

المهدي والنور

في

سورة النور

د/ محمد سرحان

فهرس المحتويات

١	فهرس المحتويات
٠	تمهيد
٣	مقدمة المؤلف
٩	ترتيب الكتاب
١٢	مقدمة عن سورة النور
١٣	تسمية السورة
١٣	مناسبات النزول
١٤	ترتيبها في المصحف وعدد آياتها:
١٥	أحوال المسلمين عند نزول السورة
١٦	فضل سورة النور
١٧	المحاور الرئيسية للسورة
٢٠	الباب الأول نور الوجدانية وظلمات الكفر
٢١	الفصل الأول
٢١	أدلة وحدانية الله تعالى
٢٢	الدليل الأول علي وحدانية الله تعالى : آية النور
٢٣	وصف النور
٢٨	ترجيح الآراء في تفسير آية النور
٢٨	الفرق بين النور والضوء
٣٦	نور الهداية
٣٧	الدليل الثاني علي وحدانية الله تعالى: وإن من شيء إلا يسبح بحمده
٣٧	كيفية التسبيح
٤٠	الدليل الثالث علي وحدانية الله تعالى : نعمة المطر
٤٢	الإعجاز العلمي في وصف القرآن الكريم للمطر

٤٣	تكون السحب.....
٤٦	حركة الرياح.....
٤٨	أنواع السحب.....
٥٠	شرح الآيات علي ضوء الحقائق العلمية لتكون السحب.....
٥٢	آيات تقلب الليل والنهار.....
٥٤	الحقائق العلمية في تقلب الليل والنهار.....
٥٦	الدليل الرابع علي وحدانية الله تعالى : خلق الدواب من الماء.....
٥٦	الإعجاز العلمي في الماء.....
٥٩	الفصل الثاني.....
٥٩	نور التوحيد.....
٦٠	وصف المؤمنين.....
٦٤	المعني الإجمالي لآيات النور.....
٦٥	الفصل الثالث.....
٦٥	ظلمات الكفر.....
٦٦	وصف الكافرين.....
٦٧	ماهو السراب ؟!!!.....
٦٨	تفسير السراب من الناحية العلمية.....
٦٩	تعريف ظاهرة السراب :.....
٦٩	أولا : السراب السفلي: و منه نوعين :.....
٦٩	السراب الصحراوي.....
٦٩	السراب في المدن.....
٧٠	ثانيا : السراب الجانبي :.....
٧٠	السبب الفيزيائي للسراب السفلي و الجانبي:.....
٧١	ثالثا: السراب القطبي :.....
٧١	تفسير حدوث السراب القطبي:.....
٧٢	وجه الإعجاز العلمي في ضرب المثل بالسراب:.....
٧٣	وجه الإعجاز البياني في آية السراب:.....

٧٧	الباب الثاني.....
٧٧	طاعة رسول الله ﷺ والوعد بالتمكين.....
٧٩	الفصل الأول.....
٧٩	وإن تطيعوه تهتدوا.....
٨٢	صفات المنافقين.....
٨٩	الفصل الثاني.....
٨٩	الأدب مع رسول الله ﷺ.....
٩٠	الفرق بين المؤمن والمنافق.....
٩٥	التحذير من مخالفة رسول الله ﷺ.....
١٠٢	الفصل الثالث.....
١٠٢	الوعد بالتمكين.....
١٠٣	آية الوعد.....
١٠٥	تحقيق الوعد بالإستخلاف.....
١٠٧	شروط الإستخلاف والتمكين.....
١١٣	الدروس والعبر في آية الوعد.....
١١٥	الباب الثالث.....
١١٥	الحدود في سورة النور.....
١١٦	الفصل الأول.....
١١٦	وجوب تطبيق الحدود.....
١١٧	مقدمة عن الحدود.....
١٢١	أولا : رد الحكم الشرعي كفر.....
١٢٢	ثانيا : لا يخاف العقوبة إلا المجرم.....
١٢٢	ثالثا : الحبس ليس عقوبة شرعية.....
١٢٣	عقوبة السجن ليست عقوبة شرعية.....
١٢٤	السجن هو صلب العقوبات الوضعية.....
١٢٥	رابعا : أهداف ومميزات تطبيق الحدود.....
١٢٥	التطهير :

الزجر :	١٢٦
القصاص :	١٢٦
التعويض :	١٢٧
خامسا : أنواع الحدود ومقاصد الشريعة	١٢٧
حد القتل (القصاص) – لحفظ النفس	١٢٨
حد السرقة – لحفظ المال	١٢٨
حد الزنا – لحفظ النسل	١٢٨
حد القذف واللعان – لحفظ العرض	١٢٨
حد الردة – لحفظ الدين	١٢٨
حد الخمر – لحفظ العقل	١٢٨
حد الحراية – لحفظ الأمن	١٢٨
سادسا : الفرق بين الحدود والعقوبات التعزيرية	١٢٨
الفرق بين الحدود والعقوبات التعزيرية ما يلي : ^(١)	١٢٩
سابعا : شروط إقامة الحدود	١٢٩
الفصل الثاني	١٣١
حد الزنا	١٣١
تهيئة النفوس للحدود	١٣٢
تفاصيل حد الزنا	١٣٣
آية الزاني لا ينكح إلا زانية	١٣٩
خلاصة القول في حد الزنا	١٤٣
الفصل الثالث	١٤٥
حد القذف	١٤٥
شروط وقوع حد القذف	١٤٨
أنواع ألفاظ القذف وحكمها	١٥٠
الفصل الرابع	١٥٥
حد الملاعة	١٥٥
تعريف الملاعة والحكمة من تشريعها	١٥٦

١٥٧	سبب نزول آية الملاعة.....
١٦٠	الفوائد المستفادة من تشريع حد الملاعة :
١٦٤	الباب الرابع.....
١٦٤	حديث الإفك.....
١٦٥	الفصل الأول.....
١٦٥	قصة الحادثة في السنة.....
١٦٦	مقدمة لقصة حديث الإفك.....
١٦٧	المقطع الأول: من رواية حديث الإفك.....
١٦٨	المقطع الثاني:.....
١٦٨	المقطع الثالث :
١٦٩	المقطع الرابع :
١٧٠	المقطع الخامس :
١٧١	المقطع السادس :
١٧٢	المقطع السابع :
١٧٣	المقطع الثامن :
١٧٤	المقطع التاسع :
١٧٦	المقطع العاشر :
١٧٧	المقطع الحادي عشر :
١٧٨	المقطع الثاني عشر :
١٧٩	من هو صفوان بن المعطل !!!!.....
١٨١	الفصل الثاني.....
١٨١	قصة الحادثة في القرآن.....
١٨٣	أوجه الخير في قصة الإفك.....
١٩٥	العذاب لمجرد حب إشاعة الفاحشة.....
٢٠٠	فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.....
٢٠١	التأكيد علي جريمة قذف المحصنات.....
٢٠٤	تفسير آية الخبيثين للخبيثات.....

٢٠٦	الفصل الثالث.....
٢٠٦	الدروس المستفادة من قصة الإفك.....
٢٠٧	أولا : الدروس والعبر من آيات قصة الإفك مايلي :
٢١٥	ثانيا : الدروس والعبر من روايات حديث الإفك.....
٢١٩	الباب الخامس.....
٢١٩	التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع المسلم.....
٢٢٠	الفصل الأول.....
٢٢٠	آداب الإستئذان.....
٢٢٢	حكم البيوت المسكونة – الحاضر سكانها.....
٢٢٣	آداب الإستئذان.....
٢٢٩	حكم البيوت المسكونة- الغائب سكانها.....
٢٣١	وجوب الرجوع في حال عدم الإذن بالدخول.....
٢٣١	حكم البيوت الغير مسكونه والأماكن العامة.....
٢٣٣	خلاصة أحكام دخول البيوت.....
٢٣٧	أحكام خاصة بالأطفال.....
٢٤٠	أحكام خاصة بالنساء العجائز.....
٢٤٢	حكم الأكل في البيوت وعدم الحرج لذوي العاهات المزمنة.....
٢٤٨	الفصل الثاني.....
٢٤٨	غض البصر وحفظ الفرج.....
٢٤٩	أولا : غض البصر.....
٢٥٢	ثانيا : حفظ الفرج.....
٢٥٦	الفصل الثالث.....
٢٥٦	تحصين المرأة المسلمة.....
٢٥٧	زينة المرأة المسلمة.....
٢٦٧	محارم المرأة المسلمة.....
٢٦٩	آداب الدخول علي النساء.....
٢٧٥	الحث علي الزواج.....

٢٧٨	الحث علي الإستعفاف لمن لا يستطيع الزواج.....
٢٨١	الترغيب في منع الرق.....
٢٨٣	الحث علي إعفاف الفتيات.....
٢٨٦	دروس وعبر من الآيات.....
٢٨٧	منظومة الآداب اللازمة للتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع المسلم.....
٢٩٣	الخاتمة.....
٢٩٣	لله ما في السماوات والأرض.....
٢٩٤	ختم السورة بإقامة الحجة.....
٣٠٠	المراجع.....

تمهید

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} {القرقان: ١}

[الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَبَّبَ الْأَلْبَابَ بَدَائِعِ حِكْمِهِ، وَخَصَّمَتِ الْعُقُولَ لَطَائِفِ حُجَجِهِ، وَقَطَعَتْ عُذْرَ الْمُلْحِدِينَ عَجَائِبِ صُنْعِهِ، وَهَتَفَتْ فِي أَسْمَاعِ الْعَالَمِينَ أَلْسُنُ أَدِلَّتِهِ، شَاهِدَةً أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي لَا عَدْلَ لَهُ مُعَادِلٌ، وَلَا مِثْلَ لَهُ مُمَاتِلٌ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ مُظَاهِرٌ، وَلَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَلَا كُفُوًا أَحَدٌ، وَأَنَّهُ الْجَبَّارُ الَّذِي خَضَعَتْ لِحَبْرَوْتِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَالْعَزِيزُ الَّذِي ذَلَّتْ لِعِزَّتِهِ الْمُلُوكُ الْأَعَزَّةُ، وَخَشَعَتْ لِمَهَابَةِ سَطَوْتِهِ ذُؤُ الْمَهَابَةِ، وَأَذَعْنَ لَهُ جَمِيعَ الْخَلْقِ بِالطَّاعَةِ طَوْعًا وَكَرْهًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} فَكُلُّ مَوْجُودٍ إِلَى وَحْدَانِيَّتِهِ دَاعٍ، وَكُلُّ مَحْسُوسٍ إِلَى رُبُوبِيَّتِهِ هَادٍ، بِمَا وَسَمَهُمْ بِهِ مِنْ آثَارِ الصَّنْعَةِ، مِنْ نَقْصٍ وَزِيَادَةٍ، وَعَجْزٍ وَحَاجَةٍ، وَتَصَرُّفٍ فِي عَاهَاتٍ عَارِضَةٍ، وَمُقَارَنَةِ أَحْدَاثٍ لَازِمَةٍ، لِيَتَكُونَ لَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ. ثُمَّ أَرَدَفَ مَا شَهِدَتْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ أَدِلَّتُهُ، وَأكَّدَ مَا اسْتَنَارَتْ فِي الْقُلُوبِ مِنْهُ بِهَجَّتِهِ، بِرُسُلٍ ابْتَعَثَهُمْ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، دُعَاءَ إِلَى مَا اتَّضَحَتْ لَدَيْهِمْ صِحَّتُهُ، وَتَبَيَّنَتْ فِي الْعُقُولِ حُجَّتُهُ؛ {لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} النساء: ١٦٥، وَلِيَذْكُرَ أَوَّلُو النَّهْيِ وَالْخُلُمِ؛ فَأَمَدَّهُمْ بِعَوْنِهِ، وَأَبَانَهُمْ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ، بِمَا دَلَّ بِهِ عَلَى صِدْقِهِمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ، وَأَيَّدَهُمْ بِهِ مِنَ الْحُجَجِ الْبَالِغَةِ، وَالْآيِ الْمُعْجَزَةِ؛ لِنَلَّا يَقُولَ الْقَائِلُ فِيهِمْ: {مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ، وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ} المؤمنون: ٣٤. فَجَعَلَهُمْ سُفَرَاءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَأَمْنَاءَهُ عَلَى وَحْيِهِ، وَاخْتَصَّهُمْ بِفَضْلِهِ، وَاصْطَفَاهُمْ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِيمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ مَوَاهِبِهِ، وَمَنْ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَرَامَاتِهِ، مَرَاتِبَ مُخْتَلِفَةٍ، وَمَنَازِلَ مُتَفَرِّقَةٍ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ، مُتَفَاضِلَاتٍ مُتَبَايِنَاتٍ، فَكَرَّمَ بَعْضَهُمُ بِالتَّكْلِيمِ وَالنَّجْوَى، وَأَيَّدَ بَعْضَهُمْ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَخَصَّهُ بِإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَإِبْرَاءِ أُولَى الْعَاهَةِ وَالْعَمَى. وَفَضَّلَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدَّرَجَاتِ بِالْعُلْيَا، وَمَنْ الْمَرَاتِبِ بِالْعُظْمَى، فَحَبَاهُ مِنْ أَقْسَامِ كَرَامَتِهِ بِالْقِسْمِ الْأَفْضَلِ، وَخَصَّهُ مِنْ دَرَجَاتِ النُّبُوَّةِ

بِالْحَظِّ الْأَجْزَلِ، وَمِنَ الْأَتْبَاعِ وَالْأَصْحَابِ بِالنَّصِيبِ الْأَوْفَرِ. وَابْتَعَثُهُ بِالدَّعْوَةِ
الْثَّامَةِ، وَالرِّسَالَةِ الْعَامَةِ، وَخَاطَهُ وَحِيدًا، وَعَصَمَهُ فَرِيدًا، مِنْ كُلِّ جَبَّارٍ عَانِدٍ،
وَكُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، حَتَّى أَظْهَرَ بِهِ الدِّينَ، وَأَوْضَحَ بِهِ السَّبِيلَ، وَأَنْهَجَ بِهِ مَعَالِمَ
الْحَقِّ، وَمَحَقَّ بِهِ مَنْارَ الشِّرْكِ، وَزَهَقَ بِهِ الْبَاطِلَ، وَاضْمَحَلَّ بِهِ الضَّلَالُ وَخُدَعُ
الشَّيْطَانِ، وَعِبَادَةُ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، مُؤَيِّدًا بِدَلَالَةٍ عَلَى الْآيَامِ بَاقِيَةٍ، وَعَلَى
الدُّهُورِ وَالْأَزْمَانِ ثَابِتَةً، وَعَلَى مَمَرِ الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ دَائِمَةً، يَزْدَادُ ضِيَاؤُهَا
عَلَى كَرِّ الدُّهُورِ إِشْرَاقًا، وَعَلَى مَرِّ اللَّيَالِي وَالْآيَامِ انْتِلَاقًا، تَخْصِيصًا مِنَ اللَّهِ لَهُ
بِهَا، ذُنُونٌ سَائِرِ رُسُلِهِ. ^(١)

وأصلي وأسلم على نبيه، المبعوث بالآيات البينات والمعجزات الواضحات،
وعلى آله وصحبه الذين شادوا الدين ورفعوا لواءه في العالمين. وبعد: فإن
من أنفع ما ينتفع به المرء في دينه ودنياه، وفي رسمه ومثواه، الاشتغال
بكلام الله، تلاوة وتجويداً، وحفظاً وتفسيراً وعملاً وتدبراً: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ص: ٢٩

فهذا هو الكتاب الثاني في سلسلة (التفسير الموضوعي لبعض سور القرآن
الكريم) في تفسير سورة النور، والله أسأل أن يجعل ما وضعته في هذا
الكتاب زاداً إلي حسن المصير إليه وعتاداً إلي يوم القدوم عليه، إنه بكل
جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

^١ من مقدمة تفسير جامع البيان للإمام الطبري

مقدمة المؤلف

القرآن الكريم هو مأدبة الله تعالى التي أعدها لضيوفه في الدنيا وهم أهله وخاصته أصحاب مجالس الذكر والعلم .

ولك أنت تتخيل النعيم الذي يمكن أن تجده عندما تكون ضيفا علي أكرم خلق الله في الدنيا الفانية ، وكن علي يقين أنك ستجد أضعاف هذا النعيم عندما تكون ضيفا عند خالق الخلق ، الذي عم بكرمه سائر المخلوقات .

وهذا الكلام ليس من قبيل المبالغة والتعصب ، وإنما هو واقع يعيشه ويستشعره كل من ذاق حلاوة التعايش مع مأدبة الله في الأرض وهو القرآن الكريم .

وإذا كانت الأطعمة هي غذاء الأبدان الذي تتلقاه بالبطون ، فالقرآن الكريم هو غذاء الروح الذي تتلقاه بالعقول .

وبما أن الأبدان نهايتها التراب مهما تعاظمت وتنعمت سواء كان أصحاب تلك الأبدان أغنياء أو فقراء ، أتقياء أو فجار ، فإن الأرواح خالدة ولكن ليس في مآل واحد كالتراب وإنما في جنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للمتقين ، أو في جهنم والعياذ بالله وبئس المصير.

الخلود في الجنة لا يأتي إلا بالجلوس إلي مأدبة الله تعالى في الأرض ، وكلما تزودت من هذه المأدبة كلما سهل طريقك إلي الجنة ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (البقرة ١٩٧) ولذلك يقول الله تعالى في أول آية من كتابه يتحدي بها الكون كله ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۚ فِيهِ ۚ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة ٢) .

ويزداد تنعمك وتلذذك بكتاب الله ، كلما أقبلت عليه بنهم الجائع ، وبتهافت المريض الذي يبحث عن علاج عند خالقه وصانعه ومدير أمره ، ويزداد هذا النهم وهذا التهافت كلما ألمت بك الخطوب ، وضاعت منك الدروب ، وأختلطت عليك الأمور ، عندها أقبل علي كتاب الله وأنت علي يقين أنك ستجد الحل لكل ما أهمك وغمك ، بشرط أن يكون إقبالك بقلب مفتوح والقلب هو محل العقل .

وأيامنا التي نحياها في هذا العصر المظلم الذي ينافس عصور الجاهلية الأولى في ظلامه ، لاتبخل علينا مع كل مطلع شمس بما يكدر علينا صفاء

نفوسنا وسلامة قلوبنا ، ولا تبخل علينا بفتن كقطع الليل المظلم ، تدع الحليم حيران ، فكان كتاب الله تعالى هو الملاذ والملجأ ، ففي كل سورة منه بل في كل آية تجد لله تعالى حكما عدلا في كل أمر من الأمور .

وسورة النور من تلك السور التي تجد فيها من كل الأصناف التي تسمن الجائع وتروي الظامئ ، وما تقوي به النفوس المتهافئة علي الوقوف في مواجهة الفتن العاتية.

ومن هذه الفتن التي تزامنت مع كتابة مقدمة هذا الكتاب في النصف الثاني من ديسمبر ٢٠١٨ ، والتي ليس لها إلا سورة النور وأخواتها من السور التي تتحدث عن حدود الله وأحكامه وآدابه .

فتن كانت الساحة المصرية في هذا التوقيت تموج فيها بأحداث مترامية الأطراف في حدثين متجددين من وقت لآخر مع نهاية كل عام .

الحدث الأول هو آخر صيحات إحدي الممثلات الساقطات في المنافسة المثيرة في إرتداء ملابس شبه عارية (فساتين) في مهرجانات نجوم مايسمونه الفن ، يجتمع فيها أهل هذه الصنعة الخبراء في فن التعري من الرجال والنساء لإستعراض أجساد النساء من خلال ملابس تكشف أكثر مما تخفي .

هذه المنافسة تتجدد من وقت لآخر ومع كل مناسبة ، ولكن المدهش هذه السنة أن إحدي الممثلات تجاوزت كل حدود الحياء في التعري ، وفتحت بابا عظيما من أبواب الفتنة ، لكي تلوك بعض الألسنة في عرضها وعرض من هم علي شاكلتها ، وأبوابا كثيرة من الإحتجاج والإستنكار لدرجة أن أحد المحامين الساعين إلي الشهرة من أي باب سارع برفع قضية عليها بتهمة نشر الفاحشة رغم أنه من دعائها .

كانت هذه الممثلة في البداية تدافع عن فعلتها بثقة وثبات زاعمة أنه من الواجب عليهن كفنانات تقليد أمثالهن من الغربيات في ملابسهن بإعتبارهن لسن بأقل منهن ، ولكن عندما تصاعدت موجات الإحتجاج والإستنكار ، سرعان ماتراجعت هذه الممثلة وأعلنت أسفها وندمها ليس عن فعلتها ولكن عن عدم تقديرها الصحيح لمشاعر الناس وعدم توقع الإساءة إليهم ، وسرعان أيضا ماتراجع المحامي الشهير عن قضيته وأعلن تقديره للممثلة الساقطة .

وبعد أن هدأت هذه الضجة بأيام قليلة ، يبدو أن الشهرة التي حصلت عليها هذه الممثلة من فعلتها السابقة أغرتها بأن تعاود الكرة مرة أخرى بعدها بأيام معدودات في أول مهرجان ، فأرتدت ملابس أكثر عريا وأشد إثارة من سابقتها وتطورت الأحاديث بعد أن كانت عن بطانة الفستان الأول ، إلي الحديث عن الملابس الداخلية الظاهرة من الفستان الثاني ، وكررت نفس المبررات وبنفس المزاعم من السعي لتقليد فنانات الغرب ولكن هذه المرة بلا أسف ولا خجل . هذه الممثلة لم تكن وحدها في مضمار هذا السباق ، ولكنها واحدة من طائفة كبيرة ، جعلن من أجسادهن لقمة سائغة لألسنة وآلات تصوير منصات الإعلام المختلفة ، التي تستضيف بعضهن للحديث عن مادة هذا الفستان وصنعه وكأنه حدث فريد .

إحدي هؤلاء الممثلات تشكو لوسائل الإعلام مايعانين منه من ضيق الحال قائلة أن الفستان الذي كن يشتريه سابقا بعشرة آلاف جنيه أصبح يشتريه بأربعين ألفا من الجنيهاات في الوقت الذي يبحث فيه بعض المسلمين عما يقتاتون به في نفايات البيوت.

وتتجسد معالم وأبعاد المصيبة التي أصابت المسلمين ، حين يصبح أمثال هؤلاء الساقطات اللاتي تخلين عن أبسط قواعد الحياء ونزعن أردية العفة - يصبحن هن نجوم المجتمع وموضع الأسوة لنسائنا وبناتنا، في نفس الوقت الذي تحارب فيه المنتقبات الفاضلات ، الباحثات عن العفاف بتغطية وجوههن وأجسادهن ، فيضيق عليهن ، ويمنعن من العمل كمدرسات في المدارس والجامعات وغيرها من الوظائف العامة.

الحدث الثاني ، هو حديث كل عام في هذا التوقيت عن الإحتفال بما يسمى (الكريسماس) ، وهو إحتفالات النصراري بما يسمونه أعياد ميلاد المسيح عليه السلام ، وتدور الأحاديث في هذا المجال علي محورين ، المحور الأول هو عن جواز تهنئة النصراري بهذه الأعياد ، والمحور الثاني هو إستعداد المراقص والملاهي لهذه الإحتفالات . وقد قرأت في بعض الصحف أن أجر إحدي الراقصات في إحياء هذه الإحتفالات وصل إلي نصف مليون جنيه .

وقد تميزت أحاديث هذا العام عن الأعوام السابقة بمتابعة لمشاركات لاعب كرة القدم المصري العالمي ، الذي إستطاع أن يحقق شهرة عالمية بلعبه في

بلاد الإنجليز ، هذه الشهرة مع حياته في بلاد الإنجليز ، فرضا علي هذا اللاعب المشاركة في بعض فعاليات هذه الإحتفالات .

لم تتواني المنصات الإعلامية عن تصدير أخبار وصور هذه المشاركات من هذا اللاعب العالمي في هذه الإحتفالات لكي يألف الشباب المعجب بهذا اللاعب هذه الصور وتصبح هذه المشاركات بالنسبة لهم شيئا مألوفا ومقبولا ولا تعارض فيه مع العقيدة الإسلامية بل ويعد من مكاسب النجاح والشهرة .

أخطر ما في هذين الحدثين ، هو تمييع العقيدة والأخلاق في المجتمع المسلم ، والمجاهرة بهذه الميوعة في وسائل الإعلام ، وبمباركة من بعض المحسوبين علي الدعوة الإسلامية بإعلاء قيم المواطنة والوطنية علي أصول العقيدة من جانب ، والتزلف ومداهنة الغرب وأخلاقه من جانب آخر .

هذين الحدثين هما نماذج لحوادث أخرى كثيرة يتم إستغلالها بشكل ممنهج ومعد له يوميا لطمس هوية المسلم وإخراجه من أصول الدين بعد الفراغ من فروعه .

مثل هذه الحوادث تحتاج منا وقفة شجاعة لإعادة المسلمين إلي النبع الصافي ، والدرع الواقي لهم من الضلال وهو كتاب الله تعالى ولا سيما إلي السور المتضمنة لحدود الله تعالى وقيم المجتمع المسلم .

وسورة النور هي من أكثر سور القرآن الكريم تضمنا للقيم اللازمة لإقامة مجتمع سليم ، راق ، صامد ضد أي بواعث للانحراف .

فكان هذا الكتاب لإقتباس ماب هذه السورة من نور نسعي به للخروج من هذه الظلمات ، ومنع تداعيات مثل هذه الحوادث التي تتصادم مع كل الآيات البينات والآداب التي دعت إليها سورة النور ، مثل الآيات الدالة علي توحيد الله عز وجل ، وطاعة رسوله ﷺ ، والآداب التي تبدأ من آداب الإستئذان لدخول البيوت مرورا بغض البصر وإمساك الألسنة وإنهاءا بتحريم الزنا .

وسورة النور من السور الثرية بموضوعاتها التي تمس حاجة المجتمع مسا مباشرا ، ولذلك كانت دائما مصدر إلهام ، ومنهلا عذبا لكثير من العلماء والمفسرين والكتاب في العلوم الشرعية لإستنباط مابها من آيات وأحكام لرد المسلمين إلي دينهم ردا جميلا .

وإذا كان كل ماسطرته أقلام علماؤنا الأولون في تفسير سورة النور وغيرها من سور القرآن الكريم ، لم يمنع من تكرار مثل هذين الحدثين اللذين قدمنا

بهما هذه المقدمة ، وكذلك السعي الدؤوب من شياطين الإنس والجن للنيل من ثوابت الإسلام .

هذا السعي الخبيث يوجب علي كل من يستطيع دفعه ولو بشرط كلمة ألا يتواني أو يتكاسل حتي ولو كان الكلام مكررا ، ولمثل هذه المواقف والأحوال نزلت آيات التذكير في القرآن الكريم ، فقد أختتمت ستة آيات بقوله تعالى {لعلكم تذكرون} ، وسبع آيات أختتمت بقوله تعالى {لعلهم يتذكرون} ، وسبع آيات أختتمت بقوله تعالى {أفلا تذكرون} .

ويقول الله تعالى في سورة الأنعام {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًَا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۚ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾} ، ويقول تعالى في سورة الأعراف {كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾} وقال تعالى في سورة هود {وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾} ، ويقول تعالى في سورة الذاريات {وَذَكَّرَ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾}

كل هذه الآيات تحت علي وجوب دوام التذكير بأحكام الله تعالى ، وتدل علي حاجة المؤمنين إلي هذا التذكير في كل الأوقات ، حتي وإن تكررت التذكرة ، فالحديد يلين بتكرار الطرق .

وسورة النور من السور التي تعددت الشروح لها ، ودراستها ، وإستخلاص الدروس والعبر منها ، ولذا فمضمون هذا الكتاب قد سبق إليه من هم أفضل مني وأثبت مني قدما في العلوم الشرعية ، إلا أنه بعض الغافلين والمنصرفين عن دراسة العلوم الشرعية يبررون إنصرافهم بصعوبة التناول ووعورة فهم كتب التراث في الفقه والتفسير ، فوجدت في نفسي سعة وقدرة علي تبسيط مايمكن بسطه للناس في تناول بعض السور المتضمنة للأحكام والقيم تناولا موضوعيا ، وقد بدأت هذه السلسلة بسورة الأحزاب ، وفي هذا الكتاب نتبعها بالعرض الموضوعي لسورة النور.

وقد لاحظت أن معظم التفاسير إن لم يكن كلها ، قد تناولت تفسير سورة النور تناولا يسير مع سياق السرد القرآني لأحداثها ، فيبدأ بآيات حد الزنا ثم

حد القذف ثم حد اللعان ثم شرح قصة حادثة الإفك ، وهكذا حتي نهاية السورة ، وبذلك يأتي تفسير آية النور التي هي محور السورة ، في وسط كتب الشرح والتفسير .

ترتيب التفاسير بهذا السياق قد يحرم القارئ من التمتع بوصف نور الله عز وجل في الآية {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۚ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۚ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَى نُورٍ ۚ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾} في بيوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾} ، بعد التعرض لأحكام الجلد والرجم وتفصيل حادثة الإفك .

فالقارئ البسيط الذي لاجلد له في مطالعة كتب التراث ، في الغالب يحتاج إلي آيات الترغيب قبل آيات الترهيب ، يميل إلي معرفة سعة رحمة الله قبل معرفة شدة عذابه ، يمني نفسه بدخول الجنة والتنعيم بما يوصف له فيها من النعيم والحرور العين ، أكثر من ميله لمعرفة أوصاف النار وسعيرها وزقومها .

فرايت أنه قد يكون من المناسب البدء بالآيات التي تصف نور الله عز وجل ، والتي سميت السورة باسمها ، وهي آية النور ومن ثم بالآيات المتعلقة بطاعة رسول الله ﷺ ، ثم الآيات المتعلقة بالأحكام والحدود الواردة في السورة ، ثم الآيات المتعلقة بالآداب والأخلاق المجتمعية ، ثم قصة حادثة الإفك ، ثم يختتم الكتاب بالآداب المطلوبة لصالح الفرد والمجتمع كما بينتها سورة النور

ترتيب الكتاب

وقد رتب الكتاب علي مقدمة بين يدي السورة ، وخمسة أبواب وخاتمة ،
في المقدمة يكون الكلام عن مناسبة نزول السورة وعدد آياتها وفضلها .
الباب الأول : نور الوجدانية وظلمات الكفر ، ورتبته في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : وحدانية الله تعالى

الفصل الثاني : نور التوحيد

الفصل الثالث : ظلمات الكفر

الباب الثاني : الواجب في طاعة رسول الله ، ورتبته في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : وإن تطيعوه تهتدوا

الفصل الثاني : الأدب مع رسول الله ﷺ

الفصل الثالث : الوعد بالتمكين

الباب الثالث : الحدود في سورة النور ، ورتبته في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : حد الزنا

الفصل الثاني : حد القذف

الفصل الثالث : حد اللعان

الباب الرابع : حديث الإفك ، ورتبته في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : قصة الحادثة في السنة

الفصل الثاني : قصة الحادثة في القرآن الكريم

الفصل الثالث : الدروس المستفادة من قصة الإفك

الباب الخامس : التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع المسلم ، ورتبته في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : آداب دخول البيوت

الفصل الثاني : غض البصر ، وحفظ اللسان

الفصل الثالث : تحصين المرأة المسلمة

الخاتمة : لله ما في السماوات والأرض

وسورة النور من السور الجامعة التي تتضمن كل ما يهم المسلم من دينه ،
ففيها أحكام ثلاثة من أهم الحدود اللازمة لصالح الفرد والمجتمع وهي الحد
المتعلقة بالأعراض مثل حد الزنا وحد قذف المحصنات وحد الملاعة ،

وفيهما ذكر وتعقيب علي حادثة الإفك التي إستهدف بها المنافقون الطعن في سيرة نبينا الطاهرة بالطعن في أهل بيته وهي السيدة عائشة رضي الله عنها أحب النساء إليه وابنة أحب الرجال إليه وهو أبي بكر الصديق رضي الله ، فتضمنت السورة براءة السيدة عائشة وتبييض صحتها من الدنس ، وفي نفس الوقت تضمنت الدروس والعبر للمؤمنين في كيفية التصرف في مثل هذه المواقف المتوقعة من أعداء الإسلام بعد أن فشلوا في النيل منه في ميادين القتال .

تضمنت السورة أيضا الجانب العقدي بالعصف الذهني لعقل المؤمن بالحديث عن أن الله نور السموات والأرض والتمثيل لهذا النور بصورة تمثيلية فريدة في تناول الفرد البسيط الذي لم يعرف من النور إلا نور المصباح في كوة بيته البسيط ، وتوهج هذا النور يصل إلي تناول الفرد الميسور المتنعم في المصابيح الحديثة المبهرة كأضواء فوانيس السيارات القوية .

هذه الصورة البديعة كانت موضع خلاف بين العلماء عن ماهية هذا النور هل هو نور ذات الله أم هو نور معنوي يراه من يعيش في طاعته ومعينته ، وقد تعرضنا لهذا الخلاف في هذا الكتاب وبيناه .

بعد هذا البيان المبدع للنور مباشرة بينت الصورة وصف المؤمنين الذين هم أولي بهذا النور بأنهم رجال يعمرن بيوت الله والتي هي بيوت النور بالتبعية ، لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

ثم تطرقت السورة لوصف الكافرين ووصفت أعمالهم بالسراب ، أو بالظلمات في بحر لحي .

وتعرضت السورة لبعض الملامح الإعجازية في خلق الله كالمطر ، والليل والنهار وتسبيح المخلوقات التي خلقت من الماء رغم إختلاف أشكالها .

ثم إنتقلت السورة إلي الآداب العامة لصالح الفرد والمجتمع وعلي هذه الآداب ، الأدب مع رسول الله ﷺ وألا يكون دعاؤهم له كدعاء بعضهم بعضا ، وطاعته وعدم التخلي عنه في الأمور الجامعة كالقتال .

ثم إنتقلت إلي الآداب المتعلقة بالحياة اليومية للمسلمين وما يستلزمه ذلك من غض البصر وإلقاء السلام ، وحفظ الفروج ، وما يتطلبه ذلك من حجاب المرأة المسلمة ، وضابط زينتها ، وضوابط إختلاطها بالرجال الأجانب عنها بعد تحديد محارمها .

وتضمنت هذا الآداب توصيات للشباب بالزواج أو الإستغفاف ، وتوصيات لأولياء الأمور بتزويج الشباب وإعانتهم علي العفاف .

كما تضمنت للميسورين من الناس بمساعدة الرقيق والعبيد علي التحرر من الرق ، وفي نفس الوقت عدم إكراه الفتيات منهم علي ارتكاب جريمة الزنا بغرض كسب المال .

وكما تضمنت السورة تيسيرا لكبار السن من النساء اللاتي أصبحن غير راغبات أو مرغوبات من الرجال ، بإمكانية التحرر مما يشكل عبئا عليهن من ثيابهن بشرط عدم التبرج بالزينه الزائده عن حاجتهن ، وإن كان التعفف عن ذلك خير لهن .

وكما كان للقواعد من النساء نصيب من هذه السورة العظيمة ، كذلك الأطفال والمخنثين من الرجال لم يعدموا الحظ والنصيب من توجيهات السورة في كيفية الإستئذان بالدخول علي النساء وأوقات الدخول المناسبة .

ورغم أن سورة النور تضمنت كل هذا الكم من التوجيهات والتشريعات ، فمن الملاحظ أنها كلها تشريعات خاصة بأمة محمد ﷺ ولم تتضمن أي إشارات مباشرة لأمة أخرى أو لنبي آخر كغيرها من سور القرآن الكريم ، فهذه سورة مخصصة لرفع شأن المسلمين فقط .

وقد إستعرضت آيات هذه السورة المباركة بالشرح والتبسيط من خلال أشهر كتب التفسير وهي تفسير الأنمة الطبري ، والقرطبي ، وابن كثير ، بصفة أساسية ومن المحدثين تفسير ابن عاشور وابن عثيمين والشعراوي وأستعنت بالصحيح من الأحاديث من كتب الحديث التسعة المشهوره ، وآليت علي نفسي ألا أضع في هذا الكتاب حديثا أو قولاً منسوباً لرسول الله ﷺ إلا بعد التأكد من الحكم بصحته ، أو بالإشارة لمصدر النقل ولا أدين بالعصمة لكلام غير كلام الله ﷻ والصحيح من كلام رسوله ﷺ ، أما ماعدا ذلك من المنقول من كلام أهل العلم فهو إجتهد يقبل الخطأ والصواب ، والتوفيق والسداد من الله وحده. فالله تعالى أسأل التوفيق والسداد في القول والعمل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وهو نعم المولي ونعم الوكيل ،

مقدمة عن سورة النور

تسمية السورة

سميت سورة النور بهذا الاسم لورود ذكره فيها ، في قول الله تعالى { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } {٣٥} وقد ورد في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور [سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ "سُورَةُ النُّورِ" مِنْ عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (عَلَّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ) وَلَمْ أَقِفْ عَلَى إِسْنَادِهِ. وَعَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرٍّ: "كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ تَعْلَمُوا سُورَةَ النِّسَاءِ وَالْأَحْزَابِ وَالنُّورِ". وَهَذِهِ تَسْمِيَّتُهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالسُّنَنِ، وَلَا يُعْرَفُ لَهَا اسْمٌ آخَرُ. وَوَجْهُ التَّسْمِيَةِ أَنَّ فِيهَا آيَةً {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} النُّور: ٣٥.

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَلَا يُعْرَفُ مُخَالَفٌ فِي ذَلِكَ. وَقَدْ وَقَعَ فِي نُسْخِ "تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ" عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} النُّور: ٥٨ الْآيَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ الرَّابِعَةِ كَلِمَةً "وَهِيَ مَكِّيَّةٌ" يَعْنِي الْآيَةَ. فَنَسَبَ الْخَفَاجِيُّ فِي "حَاشِيَّتِهِ" عَلَى "تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ" وَتَبِعَهُ الْأَلُوسِيُّ، إِلَى الْقُرْطُبِيِّ أَنَّ تِلْكَ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ مَعَ أَنَّ سَبَبَ نَزُولِهَا الَّذِي ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ صَرِيحٌ فِي أَنَّهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ كَيْفَ وَقَدْ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ "مَدَنِيَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ". وَلَعَلَّ تَحْرِيفًا طَرَأَ عَلَى النُّسْخِ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ وَأَنَّ صَوَابَ الْكَلِمَةِ "وَهِيَ مُحْكَمَةٌ" أَيْ غَيْرُ مَنْسُوخٍ حُكْمُهَا فَقَدْ وَقَعَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَطِيَّةٍ، قَالَ "وَهِيَ مُحْكَمَةٌ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَرَكَهَا النَّاسُ". [انتهى ^(٢)

مناسبات النزول

سورة النور مدنية باتفاق العلماء ، وقد نزلت بعد غزوة الأحزاب في النصف الأخير من سنة ست من الهجرة بعد غزوة بني المصطلق ، وهي الغزوة التي وقعت بعدها حادثة الإفك ، التي ورد ذكرها في السورة ، وقد حدث هذا باتفاق جميع الروايات المعتبرة بعد رجوع المسلمين من غزوة بني المصطلق ^(٣) إلا ان ابن عاشور ذكر مناسبات لنزول بعض آيات من السورة قبل ذلك فيقول :[وَسَيَأْتِي أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا

^٢ التحرير والتنوير - ج ١٨ ص ١٤٠

^٣ السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٠/٤ ، والسيرة الحلبية ٢٠٥/٢

زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً { النُّور: ٣ الآية قُضِيَتْ مَرْتَدٌ بِنَ أَبِي مَرْتَدٍ مَعَ عَنَاقٍ. وَمَرْتَدٌ بِنَ أَبِي مَرْتَدٍ اسْتَشْهَدَ فِي صَفَرِ سَنَةِ ثَلَاثٍ لِلْهَجْرَةِ فِي غَزْوَةِ الرَّجِيعِ، فَيَكُونُ أَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَ قَبْلَ سَنَةِ ثَلَاثٍ، وَالْأَقْرَبُ أَنْ يَكُونَ فِي أَوَاخِرِ السَّنَةِ الْأُولَى أَوْ أَوَّلِ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ أَيَّامَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَتَلَحَّفُونَ لِلْهَجْرَةِ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ جَعَلُوهُمْ كَالْأَسْرَى. وَمِنْ آيَاتِهَا آيَاتُ قِصَّةِ الْإِفْكِ وَهِيَ نَازِلَةٌ عَقِبَ غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ مِنْ خُزَاعَةٍ.

وَالْأَصَحُّ أَنَّ غَزْوَةَ بَنِي الْمُصْطَلِقِ كَانَتْ سَنَةِ أَرْبَعٍ فَإِنَّهَا قَبْلَ غَزْوَةِ الْخُنْدُقِ. وَمِنْ آيَاتِهَا {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ} النُّور: ٦ الآية نَزَلَتْ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ تِسْعٍ بَعْدَ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَتَكُونُ تِلْكَ الْآيَاتُ مِمَّا نَزَلَ بَعْدَ نُزُولِ أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ مُنْجَمَةً مُتَفَرِّقَةً فِي مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ وَأُلْحِقَ بَعْضُ آيَاتِهَا بِبَعْضٍ.

وَقَدْ عُدَّتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْمِائَةَ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ سُورِ الْقُرْآنِ عِنْدَ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. قَالَ: نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَقَبْلَ سُورَةِ الْحَجِّ، أَيْ عِنْدَ الْقَانِلِينَ بِأَنَّ سُورَةَ الْحَجِّ مَدَنِيَّةٌ. ^(٤)

ترتيبها في المصحف وعدد آياتها:

وترتيبها في المصحف الرابعة والعشرون بعد سورة المؤمنون ، وعدد آياتها اثنتان وستون آية، وقيل أربع وستون آية ^(٥)، يقول ابن عاشور [وَأَيُّهَا اثْنَتَانِ وَسِتُّونَ فِي عَدِّ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، وَأَرْبَعٌ وَسِتُّونَ فِي عَدِّ الْبَقِيَّةِ]. ^(٦)

ووجه اتصالها بسورة المؤمنين أنه سبحانه لما قال فيها {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ} المؤمنون: ٥ ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني وما اتصل بذلك من شأن القذف وقصة الإفك والأمر بغض البصر الذي هو داعية الزنا والاستئذان الذي إنما جعل من أجل النظر وأمر فيها بزواج الأياامي حفظاً للفرج وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا.

٤ التحرير والتنوير - ج ١٨ ص ١٤٠

٥ البيان في عد آي القرآن ١٩٣/١

٦ التحرير والتنوير

أحوال المسلمين عند نزول السورة

من المناسب في هذا المقام أن نبين أحوال وظروف المجتمع المسلم عند نزول آيات هذه السورة ، لكي يمكن تصور الدوافع التي أدت إلي الأحكام والتشريعات التي تضمنتها .

فقد نزلت هذه السورة بعد غزوة الأحزاب ، حيث بدأت تظهر معالم الأمة الإسلامية الوليدة ، وظهرت في هذه المرحلة قوة المسلمين بعد إنتصارهم في غزوة بدر ، وتعززت هذه القوة بعد إنتصارهم في غزوة الأحزاب ، بعد أن رد الله الأحزاب ولم ينالوا خيرا من تجمعهم وتحزبهم لقهر المسلمين ، وفشلهم الذريع في تحقيق النصر رغم حشودهم الكبيرة لإستئصال المسلمين ، وبذلك تأكد أعداء الإسلام أن النصر علي المسلمين لن يكون بكثرة العتاد ، وقوة الحشود .

فقد أدركوا أنهم لم ينالوا نصرا يذكر علي المسلمين في كل معاركهم السابقة رغم تفوقهم في العدة ، والعتاد ، والمال ، وإنما كان النصر دائما للمسلمين لتفوقهم في جانب الفضيلة والأخلاق ، واتباعهم لنبيهم ﷺ علي مستوي الفرد ، وتمسكهم بالرابطة الإيمانية ووحدة الصف علي مستوي الجماعة .

وإنطلاقا من هذا الإدراك ، حول أعداء الإسلام طاقاتهم من الأعمال القتالية المباشرة إلي أعمال أخرى خفية تقوم علي الدسائس والمكائد وزرع الفتن لتمزيق وحدة المسلمين ، وبذر بذور الشقاق بين صفوفهم ومحاولة الوقعة بينهم وبين نبيهم ﷺ بنشر الأخبار الكاذبة وبث الشائعات عن طريق المنافقين الذين يتزايد دخولهم في الإسلام خوفا وتقية بعد ظهور قوة المسلمين ، مستغلين أحداثا عابرة ناجمة عن تسارع حركة وديناميكية المجتمع المسلم الجديد .

ظهرت بوادر هذه الأعمال الخفية في شهر ذي القعدة من سنة خمس بعد الهجرة ، عندما تزوج رسول الله ﷺ إبنة عمته "زينب بن جحش" امرأة متبناه "زيد بن حارثة" بعد نزول التشريع بتحريم التبني ، كما ورد في سورة الأحزاب ، إستغل المنافقون هذا الحدث وأخذوا يروجون الشائعات عن وقوع النبي ﷺ في غرام زينب وإخفاؤه لذلك ، وساعد اليهود والمشركون في ترويج هذه الشائعات حتي فتن بها بعض المسلمون ، حتي نزل قول الله تعالي في الأحزاب ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾} ثم قوله تعالى {لَنْ يَنْتَهِيَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾}

وقد ذكر المفسرون عدة مواقف أخرى للمنافقين بزعامه كبيرهم "ابن سلول" أشاعت القلق بين صفوف المسلمين ، وقيل أن هذه المواقف نزل فيها قول الله تعالى في سورة المنافقون {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ۚ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾} يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾} ، لدرجة أن عمر رضي الله عنه طلب من رسول الله ﷺ الإذن في قتل "ابن سلول" ، ولكن النبي ﷺ لم يأذن بذلك حتي لا يقال أن محمد يقتل أصحابه.

ثم جاءت الحادثة المزلزلة ، حادثة الإفك ، والتي أحدثت فتنة بلغت في خطورتها حدا كاد أن يعصف بالمجتمع الإسلامي وجعلت رسول الله ﷺ ، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما يعيشان مايقرب من شهر في غاية الحزن والأسى بسبب تلك الفتنة حتي نزل الوحي ببراءة عائشة رضي الله عنها .

هذه المؤمرات كانت منهجا جديدا لأعداء الإسلام بعد أن عجزوا عن مواجهة المسلمين في ميادين القتال ، قدره الله تعالى ، لتمحيص أخلاق المسلمين وتدريب هذا الجيل المؤسس لأمة أرادها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، ولكي يأتي الوحي من السماء بآيات سورة النور في كيفية التعامل مع مثل هذا المواقف التي ستتكرر علي مر العصور .

تلك هي الظروف والأحوال التي عاشها المسلمون بعد غزوة الأحزاب ، والتي أدت إلي نزول الآيات في سورتي الأحزاب والنور بالأحكام والتشريعات اللازمة لصيانة أعراض المسلمين والمحافظة علي فضائل الأخلاق التي كانت سببا في تفوقهم علي أعدائهم .

وقد شملت سورة النور أكثر من ثمانية عشر حكما تشريعيًا نظمت من خلالها الجانب الأخلاقي للمجتمع المسلم كما سنبينها في معرض حديثنا عن موضوعات السورة .

فضل سورة النور

ذكر المفسرون بعض الأحاديث في فضل سورة النور ، إلا أن النفس لا تطمئن إلي صحة ثبوتها ، ومن ذلك ما روي عن مُجَاهِدٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ:

"عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ" وما روي عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرَ: "كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ تَعْلَمُوا سُورَةَ النِّسَاءِ وَالْأَحْزَابِ وَالنُّورِ"
إلا أن الافتتاح القوي للسورة بقول الله تعالى { سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (١) ، هذا المطلع المتميز الذي انفردت به سورة النور يجعلها ذات مكانة متميزة وفضل واسع بما اشتملت عليه من آيات وأحكام مفروضة فيها .

المحاور الرئيسية للسورة

- المحور الرئيسي للسورة هو (التربية الأخلاقية والآداب الاجتماعية للفرد المسلم والجماعة المسلمة) وقد جمع ابن عاشور أغراض السورة فيما يلي :
- ❖ شَمِلَتْ مِنَ الْأَغْرَاضِ كَثِيرًا مِنْ أَحْكَامِ مُعَاشَرَةِ الرِّجَالِ لِلنِّسَاءِ. وَمِنْ آدَابِ الْخُلُطَةِ وَالزِّيَارَةِ.
- ❖ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَتْ بِسَبَبِهِ قَضِيَّةُ النِّزَاجِ بِامْرَأَةٍ اسْتَهْرَتْ بِالزَّانِي وَصَدَرَ ذَلِكَ بَيِّنَانِ حَدِّ الزَّانِي.
- ❖ وَعِقَابُ الَّذِينَ يَقْذِفُونَ الْمُحْصَنَاتِ.
- ❖ وَحُكْمُ اللَّعَانِ.
- ❖ وَالتَّعَرُّضُ إِلَى بَرَاءَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِمَّا أَرْجَفَهُ عَلَيْهَا أَهْلُ النِّفَاقِ، وَعِقَابُهُمْ، وَالَّذِينَ شَارَكُوهُمْ فِي التَّحَدُّثِ بِهِ.
- ❖ وَالزَّجْرُ عَنْ حُبِّ إِشَاعَةِ الْفَوَاحِشِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.
- ❖ وَالْأَمْرُ بِالصَّفْحِ عَنِ الْأَذَى مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى قَضِيَّةِ مِسْطَحِ بْنِ أَنَاثَةَ.
- ❖ وَأَحْكَامُ الْإِسْتِئْذَانِ فِي الدُّخُولِ إِلَى بُيُوتِ النَّاسِ الْمَسْكُونَةِ، وَدُخُولِ الْبُيُوتِ غَيْرِ الْمَسْكُونَةِ.
- ❖ وَآدَابُ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ فِي الْمُخَالَطَةِ
- ❖ وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ.
- ❖ وَالتَّحْرِيزُ عَلَى تَزْوِيجِ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ.
- ❖ وَالتَّحْرِيزُ عَلَى مَكَاتِبَتِهِمْ، أَيْ إِعْتَاقِهِمْ عَلَى عَوْضٍ يَدْفَعُونَهُ لِمَالِكِيهِمْ.
- ❖ وَتَحْرِيمُ الْبَغَاءِ الَّذِي كَانَ شَائِعًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَالْأَمْرُ بِالْعَفَافِ.
- ❖ وَذَمُّ أَحْوَالِ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالْإِشَارَةُ إِلَى سُوءِ طَوَيْتِهِمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي حَبَائِلِ الشَّيْطَانِ.
- ❖ وَضَرْبُ الْمَثَلِ لِهَذِي الْإِيمَانِ وَضَلَالِ الْكُفْرِ.
- ❖ وَالتَّنْوِيهِ بِبُيُوتِ الْعِبَادَةِ وَالْقَائِمِينَ فِيهَا.

❖ وَتَخَلَّلَ ذَلِكَ وَصْفُ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَدَائِعِ مَصْنُوعَاتِهِ وَمَا فِيهَا مِنْ مَنْ عَلَى النَّاسِ.

❖ وَقَدْ أُرِدَفَ ذَلِكَ بِوَصْفِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ بِمَا يُضْمِرُهُ كُلُّ أَحَدٍ وَأَنَّ الْمَرْجِعَ إِلَيْهِ وَالْجَزَاءَ بِيَدِهِ. [انتهى (٧)]

ثم كانت خاتمة السورة بإعلان مالكية الله تعالى لما في السموات والأرض ، وعن علمه المحيط والشامل بأحوال الناس ، وأن مآلهم إليه سبحانه وتعالى لمحاسبتهم ومجازاتهم بما قدموا .

وبهذا الختام المؤثر ، تضع السورة المسلم أمام مسئوليات خطيرة تدفعه وتحفزه للعمل بما أنزل في هذه السورة الكريمة من تشريعات وأحكام .

والسورة تعلن عن نفسها من إسمها (النور) ، لأن النور من المسميات التي لا يمكن وصفه إلا بإسمه ، فالناس تعرف النور بمجرد النطق به دون حاجة لمزيد وصف . فبالنور تتضح المرئيات ، وتري الكائنات ، وبغير النور ما كنا لنري شيئا في هذا الكون ، هذا بالنسبة للنور المادي الخارجي ، فما بالكم إذا نبع هذا النور في قلب الإنسان .

كل أدلة الكون مرئية نراها أولاً، ثم حين تسمع، وحين تشم، وحين تلمس، وحين تميز الثقيل من الخفيف، أو القريب من البعيد. فهذا كله فرع ما يوجد فيك، بعد ما تؤمن أن الله الذي أوجدك هو الذي أوجد لك كل شيء، فإذا ما نظرت إلى النور وجدت النور أمراً حسيّاً ترى به الأشياء.

لذلك سمى الحق - تبارك وتعالى - المنهج الذي يهديك في دروب الحياة نوراً. والناس حين لا يوجد النور الرباني الإلهي يصنعون لأنفسهم أنواراً على قَدَرِ إمكاناتهم وبيئاتهم بداية من المسرحية ولمبة الجاز، وكان الناس يتفاوتون حتى في هذه - حتى عصر الكهرباء والفلوروسنت والنيون وخلافة من وسائل الإضاءة التي يتفاوت فيها الناس تفاوتاً كبيراً، هذا في الليل، فإذا ما أشرقَت الشمس أطفأ الجميع أنوارهم ومصابيحهم، لماذا؟ لأن مصباح الله قد ظهر واستوى فيه الجميع لا يتميز فيه أحد عن أحد.

وكذلك النور المعنوي نور المنهج الذي يهديك إن كان لله فيه توجيه، فأطفئ مصابيح توجيه البشر لا يصح أن تستضيء بنور ونور ربك موجود، بل عليك أن تبادر وتأخذ ما تقدر عليه من نور ربك، فكما أخذت

نور الله الحسيّ فالغيتَ به كل الأنوار، فخذُ نور الله في القيم، خذُ نور الله في الأخلاق وفي المعاملات وفي السلوك يغنيك هذا عن أيّ نور من أنوار البشر ومناهجهم.

وسورة النور جاءت لتحمل نور المعنويات، نور القيم، نور التعامل، نور الأخلاق، نور الإدارة والتصرف، وما دام أن الله تعالى وضع لنا هذا النور فلا يصح للبشر أن يضعوا لأنفسهم قوانين أخرى؛ لأنه كما قال سبحانه: {وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ} النور: ١٠؛ فلو لم تكن هذه الشمس ما استطاع أحد أن يصنع لنفسه نوراً أبداً.

الباب الأول

نور الوجدانية وظلمات الكفر

الفصل الأول : أدلة وحدانية الله

الفصل الثاني : نور التوحيد

الفصل الثالث : ظلمات الكفر

الفصل الأول

أدلة وحدانية الله تعالى

لا يستقيم إيمان المؤمن إلا إذا إستقام تصوره عن وجود الله تعالى ، وأول خصائص هذا الوجود هو الوجدانية في كل مايتعلق بالله ﷻ من أسماء وصفات وأفعال ، ولو كان للمؤمن صفة من صفات الله ﷻ كصفة الحياة أو الرحمة أو الكرم أو السمع والبصر وغير ذلك فلا بد أن يوقن العبد أن الله بخلاف ذلك فهو ﷻ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وحيث أن غاية هذا الكتاب هو تقديم تفسيراً موضوعياً لسورة النور ، فقد آثرت أن يبدأ هذا الكتاب بموضوع الآيات الدالة علي تفرد سبحانه ، بصفات الجلال والجمال والكمال ، قبل الحديث عن الأحكام والتشريعات والحدود التي بدأت بها السورة ، تيمنا ببركة الحديث عن وجدانية الله جل جلاله ، وتوطئة للنفوس علي تقبل مافي السورة من تشريعات وأحكام .وقد تضمنت السورة آيات تدل علي وجدانية الله تعالى وعلي رأس هذه الآيات آية النور :

الدليل الأول علي وجدانية الله تعالى : آية النور

ونبدأ بقول الله تعالى في سورة النور { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِثْكَاهِ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) }

هذه الآية الكريمة، جاءت بعد إنتهاء النصف الأول من السورة في بيان أحكام الزنا ، والقذف واللعان ، وحادثة الأفك وبيان ذلل المؤمنين في مثل هذه الأحاديث ، ثم بينت أحكام زينة المرأة ، وحكم الاختلاط ، والحث علي غض البصر ، وآداب الإستئذان والحث علي الزواج ، والتحذير من إتباع خطوات الشيطان ، وختم النصف الأول من السورة بقوله تعالى { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } (34) ، ثم يقول تعالى { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، كل هذه الآداب والأحكام نزلت بالنور من الله تعالى الذي ملأ نوره جل في علاه السموات والأرض وما بينهما .

وآية النور التي بين أيدينا ، تعددت في تفسيرها الآراء ، واختلف في تأويلها العلماء إختلافا ، لايتسع المقام لسبر أغوارها ، وبعد مطالعة كل الآراء في كتب التفسير إطمأنت نفسي لتصور محدد في تفسيرها ، سأورده بعد عرض مختصر لمواضع إختلاف المفسرون لهذه الآية .

وصف النور

يقول ابن عاشور [وَجَرَى كَلَامٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى مَا يَفْتَضِي أَنَّهَا بَيَانٌ لْجُمْلَةِ :{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}]^(٨) ، وقال القرطبي [وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقِيلَ: الْمَعْنَى أَيْ بِهِ وَبِقُدْرَتِهِ أَنْارَتْ أَضْوَاؤُهَا، وَاسْتَقَامَتْ أُمُورُهَا، وَقَامَتْ مَصْنُوعَاتُهَا. فَالْكَلَامُ عَلَى التَّقْرِيبِ لِلذَّهْنِ، كَمَا يُقَالُ: الْمَلِكُ نُورُ أَهْلِ الْبَلَدِ، أَيْ بِهِ قَوَامُ أَمْرُهَا وَصَلَاحُ جُمْلَتِهَا، لِجَرَيَانِ أُمُورِهِ عَلَى سَنَنِ السَّدَادِ. فَهُوَ فِي الْمَلِكِ] إنتهى^(٩)

وقال الإمام ابن جرير الطبري [يعني تعالى ذكره بقوله :{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}] هادي من في السماوات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون. واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم فيه نحو الذي قلنا] إنتهى^(١٠)

وقد جمع الحافظ ابن كثير أقوال المفسرين في جزئية قوله تعالى {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} في قوله : [قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ :{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يقول: هادي أهل السماوات والأرض.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ :{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِيهِمَا، نُجُومُهُمَا وَشَمْسُهُمَا وَقَمَرُهُمَا.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَمَرَ بْنِ خَالِدٍ الرَّقِّي، حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ رَاشِدٍ، عَنْ فَرْقَدٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: إِنَّ إِلَهِي يَقُولُ: نُورِي هُدَايَ. وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جُرَيْرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

^٨ التحرير والتنوير ج ١٨ ص ٢٣٤

^٩ تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢٣٤

^{١٠} جامع البيان لابن جرير الطبري - ت شاكر ج ١٩ ص ١٩٩

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أَبِي بِنٍ كَعْبٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} قَالَ: هُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ الْإِيمَانَ وَالْقُرْآنَ فِي صَدْرِهِ، فَضَرَبَ اللَّهُ مَثْلَهُ فَقَالَ: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} فَبَدَأَ بِنُورِ نَفْسِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ نُورَ الْمُؤْمِنِ فَقَالَ: مِثْلُ نُورٍ مَنْ آمَنَ بِهِ . قَالَ: فَكَانَ أَبِي بِنٍ كَعْبٌ يَفْرُوها "مِثْلُ نُورٍ مَنْ آمَنَ بِهِ" فَهُوَ الْمُؤْمِنُ جَعَلَ الْإِيمَانَ وَالْقُرْآنَ فِي صَدْرِهِ.

وَهَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا كَذَلِكَ: "نُورٍ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ"

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} بِفَتْحِ النُّونِ وَتَشْدِيدِ الْوَاوِ ، وَعَنِ الضَّحَّاكِ: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} أَيْضًا بِفَتْحِ النُّونِ وَتَشْدِيدِ الْوَاوِ . وَقَالَ السَّيِّدِي فِي قَوْلِهِ: {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} : فَبَنُورِهِ أَضَاءَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ.

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السَّيِّرَةِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي دُعَائِهِ يَوْمَ آدَاهُ أَهْلُ الطَّائِفِ: (أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ بِي غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ) (١١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قِيمَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ) الْحَدِيثُ (١٢). وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، نُورُ الْعَرْشِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ [إِنْتَهَى] (١٣)

وَمِنْ شَأْنِ الْخِلَافِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ فِي نِسْبَةِ النُّورِ إِلَى ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْآيَةِ {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} ، حَيْثُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْسَبَ شَيْئًا مَحْسُوسًا مِنْ مَخْلُوقَاتِ إِلَهِ اللَّهِ إِلَى ذَاتِهِ الْعَلِيِّ ، وَلِذَلِكَ اجْتَهَدَ الْعُلَمَاءُ فِي تَعْرِيفِ النُّورِ أَوَّلًا ، ثُمَّ تَأَوَّلَ تَعْلُقَهُ بِاللَّهِ تَعَالَى .

١١ رواه ابن هشام في السيرة النبوية (٤٢٠/١) ، عن ابن إسحاق

١٢ صحيح البخاري برقم (١١٢٠) وصحيح مسلم برقم (٧٦٩)

١٣ تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٨

وفي ذلك يقول الإمام القرطبي [النور في كلام العرب: الأضواء المدركة بالبصر. واستعمل مجازاً فيما صح من المعاني ولاح فيقال منه: كلام له نور. ومنه: الكتاب المنير] ثم قال [فيجوز أن يقال: لله تعالى نور من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء ونور جميع الأشياء منه ابتداؤها وعنه صدورها وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جل وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وقد قال هشام الجواليقي وطائفة من المجسمين: هو نور لا كالأنوار، وجسم لا كالأجسام. وهذا كله محال على الله تعالى عقلاً ونقلاً على ما يعرف في موضعه من علم الكلام. ثم إن قولهم متناقض، فإن قولهم جسم أو نور حكم عليه بحقيقة ذلك، وقولهم لا كالأنوار ولا كالأجسام نفي لما أثبتوه من الجسمية والنور، وذلك متناقض، وتحقيقه في علم الكلام. والذي أوقعهم في ذلك ظواهر اتبعوها منها هذه الآية، وقوله عليه السلام إذا قام من الليل يتهجد (اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض). وقال عليه السلام وقد سئل: هل رأيت ربك؟ فقال: (رأيت نوراً). إلى غير ذلك من الأحاديث.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل: المعنى أي به وبفدريته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتهما. فالكلام على التقريب للذهن، كما يقال: الملك نور أهل البلد، أي به قوام أمرها وصلاح جمليتها، لجريان أموره على سنن السداد. فهو في الملك مجاز، وهو في صفة الله حقيقة محضة، إذ هو الذي أبدع الموجودات وخلق العقل نوراً هادياً، لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضوء ظهور المبصرات، تبارك وتعالى لا رب غيره. قال معناه مجاهد والزهرري وغيرهما. قال ابن عرفة: أي منور السموات والأرض.

ثم قال : قوله تعالى { مثل نوره } أي صفة دلالة التي يقذفها في قلب المؤمن، والدلائل تسمى نوراً. وقد سمي الله تعالى كتابه نوراً فقال { وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً } [النساء: ١٧٤] وسمى نبيه نوراً فقال { قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين } [المائدة: ١٥]. وهذا لأن الكتاب يهدي ويبين، وكذلك الرسول. ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبينها وواضعها.

وَتَحْتَمِلُ الْآيَةُ مَعْنَى آخَرَ لَيْسَ فِيهِ مُقَابَلَةٌ جُزْءٍ مِنْ الْمِثَالِ بِجُزْءٍ مِنَ الْمُمَثِّلِ بِهِ، بَلْ وَقَعَ التَّشْبِيهُ فِيهِ جُمْلَةً بِجُمْلَةٍ، وَذَلِكَ أَنْ يُرِيدَ مَثَلُ نُورِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ هَذَا وَإِتْقَانُهُ صَنْعَةُ كُلِّ مَخْلُوقٍ وَبَرَاهِينُهُ السَّاطِعَةُ عَلَى الْجُمْلَةِ، كَهَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ النُّورِ الَّذِي تَتَّخِذُونَهُ أَنْتُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، الَّتِي هِيَ أَبْلَغُ صِفَاتِ النُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ، فَمَثَلُ نُورِ اللَّهِ فِي الْوُضُوحِ كَهَذَا الَّذِي هُوَ مُنْتَهَاهُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ. [(١٤)]

ويقول الرازي في التفسير الكبير [اعْلَمْ أَنَّ لَفْظَ النُّورِ مَوْضُوعٌ فِي اللُّغَةِ لِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ الْفَائِضَةِ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّارِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْجُدْرَانِ وَغَيْرِهِمَا، وَهَذِهِ الْكَيْفِيَّةُ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَكُونَ إِلَهًا] ثم قال بعد شرح طويل لإثبات استحالة أن يكون الله هو النور [والحاصل أن المراد الله هادي أهل السموات والأرض وهو قول ابن عباس والأكثرين رضي الله عنهم وثانيها: المراد أنه مدير السموات والأرض بحكمة بالغة وحجة نيرة فوصف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس العالم بأنه نور البلد، فإنه إذا كان مُدِيرَهُمْ تَدْبِيرًا حَسَنًا فَهُوَ لَهُمْ كَالنُّورِ الَّذِي يُهْتَدَى بِهِ إِلَى مَسَالِكِ الطَّرِيقِ] (١٥)

وعلى هذا فخلاصة مااتفق عليه علماء السنة استحالة أن يكون الله هو النور المعروف بصفته المحسوسة ، وقالوا في تفسير قوله تعالى {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} أنه نورا معنويا ، بمعنى الهداية ، أو تدبير أمر السموات والأرض ومنهم من قال أنها الرحمة ، ومنهم من قال هي القدرة التي أضاء بها السموات والأرض من فيهن .

وتفسير هذه الجزئية بهذا التفسير المعنوي لايتعارض مع الآيات التي ورد فيها ذكر النور في باقي سور القرآن الكريم مثل قوله تعالى في سورة البقرة {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {٢٥٧} وقوله تعالى في سورة النساء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} {١٧٤} وقوله تعالى في سورة الأنعام {أَوَمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ

^{١٤} تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢٥٧

^{١٥} التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ج ٢٣ ص ٣٧٩

فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ..

تكملة الآية جاءت لتصف النور وصفا حسيا وذلك في قوله تعالى { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) } ، هذا الوصف الحسي للنور بمثال ملموس في حياة الناس ، يتعارض مع التفسير المعنوي لنور الله تعالى .

وفي ذلك يقول الطبري [عن أبي بن كعب، في قول الله : {مَثَلُ نُورِهِ} قال: ذكر نور المؤمن فقال: مثل نوره، يقول مثل نور المؤمن .قال: وكان أبي يقرؤها: كذلك مثل المؤمن، قال: هو المؤمن قد جعل الإيمان والقرآن في صدره] ، ثم قال في موضع آخر [حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يعقوب، عن حفص، عن شمر، قال: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار، فقال له: حدثني عن قول الله : {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ} ، قال: المشكاة وهي الكوة، ضربها الله مثلا لعهد ﷺ ، {المشكاة فيها مصباح} المصباح قلبه {فِي زُجَاجَةٍ} الزُّجَاجَةُ (صدره، الزجاجية {كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ} شبه صدر النبي ﷺ بالكوكب الدري، ثم رجع المصباح إلى قلبه فقال: {يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} لم تمسها شمس المشرق ولا شمس المغرب، {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ} يكاد محمد يبين للناس، وإن لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت يضيء {وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ} (١٦) إنتهي

فإن الله تعالى أعطانا النور الحسي الذي نرى به مراني الأشياء، وجعله وسيلة للنور المعنوي، وقلنا إن الدنيا حينما تظلم ينير كل منا لنفسه على حسب قدراته وإمكاناته في الإضاءة، فإذا ما طلعت الشمس وأنار الله الكون أطفأ كل منا نوره؛ لأن نور الله كافٍ، فكما أن نور الله كافٍ في الحسيات فنوره أيضاً كافٍ في المعنويات.

١٦ تفسير الطبري ج ١٩ ص ١٧٨

فإذا كان في شرع الله حكماً معنوياً يُنظّم حركة الحياة، فلا يجوز للمؤمن أن يعارضه بشيء من عند نفسه، فكما أطفأت المصابيح الحسية أمام مصباحه فيجب أن تطفأ المصابيح المعنوية المصطنعة كذلك أمام أحكامه تعالى وأوامره، والأمر واضح في الآيات الكونية.

ترجيح الآراء في تفسير آية النور

قلت ، وبعد هذا العرض لأقوال العلماء في تفسير نور الله تعالى ، أميل إلي ترجيح القول بإستحالة أن يكون الله تعالى بذاته هو النور ، وإنما النور من صفاته ، والمقصود هو النور المعنوي وليس النور الحسي ، بلا تعارض مع وصف النور الوارد في الآية الذي سنأتي إلي بيانه لاحقا .
ويأتي هذا الترجيح بعد إستعراض الآيات التي وردت فيها كلمة النور في القرآن الكريم بالإضافة إلي التفسير العلمي الفيزيائي لظاهرة النور في الكون.

الفرق بين النور والضوء

تكرر ذكر كلمة النور في القرآن الكريم خمس وأربعون مرة في أربع وثلاثين آية ، منها خمس مرات في سورة البقرة ، وخمس مرات في سورة النور .
ذكر الله تعالى النور الحسي في أربع آيات ، أول ذكر لكلمة النور في القرآن الكريم جاء في سورة البقرة في المثل الذي ضربه الله تعالى للمنافقين في قوله ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ {١٧} ، وفي هذا المثل شبه الله تعالى المنافق الذي لم ينتفع بالإيمان ، بمن أوقد نارا للإنتفاع بنورها فاطفأها الله ليبقوا في ظلمات الكفر .

وفي هذا المثل تقرير بأن الناتج عن إيقاد النار هو الضوء وذلك في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ﴾ والنور هو أثر الضوء ، ولذلك قال ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ، وفي المثل الذي ضربه الله تعالى لنوره في آية سورة النور قال ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ ، بما يعني أن نور الكوة ناتج عن إضاءة زيت المصباح الذي في الزجاج .

وفي سورة يونس يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (٥٠) ، ويقول تعالى في سورة نوح ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ (١٦٦) ، ففي هاتين الآيتين تقرير بأن الشمس ضياء أو سراج والقمر نور ، والفرق بينهما كان موضع إهتمام العاملين في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، فقالوا أن هذا تشبيهاً علمياً دقيقاً، فالشمس هي سراج، ولكن ماذا يعمل السراج العادي وما علاقته بالشمس؟ إن السراج يحرق الزيت ويصدر الضوء والحرارة، الشمس تقوم بالعمل ذاته فهي تحرق الهيدروجين وتدمجه (بشكل نووي) لتصدر الضوء والحرارة أيضاً.

أما القمر فلا يقوم بأي عمل من هذا النوع بل هو كالمرآة التي تعكس الأشعة الشمسية الساقطة عليه فيرد جزءاً منها إلى الأرض بمراحل متعاقبة على مدار الشهر. فحجم الأشعة المنعكسة من القمر للأرض ليس ثابتاً، بل يتغير مع أيام الشهر بنظام دقيق ومحسوب.

ولولا هذا التقدير المحكم لمنازل القمر لم يستطع الإنسان معرفة الحساب والتاريخ والأوقات، وهذا من رحمة الله عز وجل بعباده.

عندما نتأمل صورة القمر نجده عبارة عن جسم بارد لا يصدر الضوء بل يعكسه على شكل نور، وهذه الحقيقة لم تكن معروفة زمن نزول القرآن، ولم يكن أحد يعلم أن القمر يعكس ضوء الشمس، بل كان الناس يظنونهم جسماً متوهجاً، ولكن القرآن صحح المفاهيم وأسماء "نور" وهذه التسمية دقيقة علمياً.

أما الشمس فهي جسم ملتهب يصدر الضوء فهي "ضياء" !! وحتى عهد قريب لم يكن العلماء يميزون بين الشمس والقمر حتى جاء العصر الحديث حيث أثبت العلم أن القمر كوكب بارد مهمته أن يعكس ضوء الشمس، وأثبت العلم أن الشمس هي مصدر الضياء، وأنها فرن نووي ملتهب تحرق الوقود وتبث الضوء والحرارة.

يظهر القمر وكأنه كوكب متوهج بسبب الغبار الذي يغطي سطحه ويعمل كعاكس ممتاز للضوء، تماماً مثل المرآة، ولذلك فإن وصف القمر بأنه "منير" هو وصف دقيق جداً من الناحية العلمية. وهذا ما عبر عنه القرآن في الآية الكريمة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا

وَقَمَرًا مُنِيرًا} الفرقان: ٦١ ، ولم يقل الله تعالى: (وجعل فيها سراجين)؛ لأن السراج يحتاج إلى وقود، فإذا اتقد السراج انبعث منه الضياء. والضياء ما كان ذاتياً، أما النور فهو عرضي، وقد كشف العلم أن الشمس تشع بنفسها إشعاعاً ذاتياً، أما القمر فإنه لا يشع ولا يشتعل بل يعكس شعاع الشمس الذي يصل إليه.

ورأينا أن الوهج ما جمع بين النور والحرارة كما يقول العلماء من أهل اللغة والمفسرين، وهذا لا ينطبق مع القمر بل ينطبق على الشمس، والتي وصفت في آية أخرى بأنها سراج وهاج، ومعنى ذلك أنها مضيئة ومتقدة عالية اللهب، وهذا هو عين ما كشف عنه العلم الحديث، وهو أن الشمس تنتج طاقة عالية جداً، وأنها عبارة عن مفاعل نووي عملاق ينتج كميات هائلة من الطاقة التي تنوهج ويصل ضياؤها إلى أرضنا.

هذا التفريق الدقيق بين الضياء والنور قبل ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة مما يشهد للقرآن الكريم بالمعجزة العلمية؛ لأن المنطق السوي يقول ما كان أحد يستطيع في ذلك الزمن البعيد أن يفرق هذا التفريق العلمي الدقيق بين الشمس (النجم) وبين القمر (الكوكب وما يلتحق به من أقمار) إلا الخالق العليم. وبذلك يكون النور المحسوس هو أثر للضوء الناتج من عملية إشعال لنار متوهجة .

بقية الآيات التي ذكر فيها النور في القرآن الكريم تدل على النور المعنوي ، وعدد هذه الآيات أكثر من ثلاثين آية كقوله تعالى في سورة البقرة {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (٢٥٧) فالظلمات هي ظلمات الكفر ، والنور هنا هو نور الإيمان. وفي سورة النساء يقول تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا } (١٧٤) قال العلماء البرهان هو محمد صلى الله عليه وسلم والنور هو القرآن الكريم

وفي سورة المائدة يقول تعالى { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ۖ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ } (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ { جعل محمد ﷺ هو النور.

وفي سورة التوبة { يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيمَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } ﴿٣٢﴾ { جعل الإسلام هو النور .

وفي سورة الحديد { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ } ﴿١٣﴾ { جعل النور هو نور الهداية والإيمان

أما في آية الزمر { وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } ﴿٦٩﴾ فقد اختلف التعبير لأن الكلام هنا عن يوم القيامة ، يوم الحساب حيث الأرض غير الأرض والسموات كما قال تعالى في سورة إبراهيم { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ } ﴿٤٨﴾ حيث لا شمس ، ولا قمر ، ولا كواكب ، ولا نجوم ، وإنقطعت أعمال العباد فلا طائل من نور معنوي جديد ، وإنما هو نور خاص بهذا اليوم أشرقت به الأرض من أجل الحساب ، وقال بعض العلماء هو العدل.

هذه هي الآيات التي تضمنت ذكر النور في القرآن الكريم ، وبقيت آيتان متعلقتان بالضياء ليستكمل هذا التصوير البديع للتفريق بين الضياء والنور ، الآية الأولى في سورة الأنبياء { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ } ﴿٤٨﴾ ، ففي كل الآيات التي تكلمت عن الكتب السماوية كان التعبير بالنور إلا في هذه الآية التي تتعلق بموسي وهارون ، ربما لأن الله ﷻ كلم موسي تكليماً مباشراً ، فكان الأنسب التعبير بأصل النور من الله تعالى وهو الضوء.

وقد ذهب كثير من أئمة اللغة إلى أن الضوء في اللغة أقوى من النور من حيث الاستعمال، وأن الضوء ما كان صادراً من ذات الشيء، وأن النور ما كان بالعرض والاكتمال من الغير، يقول الزبيدي: "الضوء أقوى من النور،

قاله الزمخشري، وتبعه الطيبي، واستدلّ بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ يونس: ٥

وقيل: "الضوء لما بالذات كالشمس والنار، والنور لما بالعرض والاكْتِسَاب من الغير" (١٧).

ويقول في موضع آخر: "وقيل: الضياء ذاتي والنور عَرَضِيّ، وتخصيص الشمس بالضوء والقمر بالنور من حيث إنّ الضوء أخصّ من النور" (١٨). وهذا المعنى يستقيم مع الآية الأخرى المتعلقة بالضوء في سورة القصص ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) ففي هذه الآية يمتن الله علي عباده بما سخر لهم من الله والنهار ، وبأنه وحده سبحانه من يملك الضياء ، ولم يقل النور لأن الضياء هو أصل النور كما بينا .

تبقى إشارة بسيطة في موضوع الفرق بين الضوء والنور إلي أن كل الأبحاث العلمية العصرية ، تجري علي مادة الضوء ومكوناته من موجات أو جسيمات (فوتونات) ، وعن طرق قياس شدة الضوء ، وكثافة الضوء ، وأن سرعة الضوء حوالي ٣٠٠,٠٠٠ كم/ثانية في الفراغ، تقل إلي ٣/٤ هذه القيمة في الماء ، وإلي ٣/٢ هذه القيمة في الزجاج . والمعاجم اللغوية العربية والأجنبية لاتفرق بين الضوء والنور ، القرآن الكريم فقط هو الذي فرق بينهما في الاستدلال بقوله تعالى ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ يونس: ٥

نعود إلي آية سورة النور في قول الله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قرأها البعض ﴿نُور﴾ بصيغة الفعل بفتح النون وتشديد الواو وفتح الراء ، وأقول ويمكن أن نقرأها " قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ " السموات والأرض كما في آية المائدة ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (١٥) ، فيستقيم المعنى أن نور السموات والأرض مرده إلي الله ﷻ وحده ، والنور هنا النور المعنوي بأي معنى من المعاني التي نقلناها عن العلماء ، الهدي ، التدبير .

ثم مثل لهذا النور بصورة دقيقة ، يعجز العقل البشري عن تصور نور الله بغير هذا التصوير الرباني بهذا المثل ، ولا شك أن المسلم بعد كل هذا الذكر للنور المعنوي الغير ملموس في كتاب الله ، سيكون في حاجة لمعرفة ماهية هذا النور وشكله وتكييف ، ولن يستطيع بشر مهما بلغت بلاغته أن يصف نور الله كما وصفه تعالى بهذا التمثيل البديع .

١٧ تاج العروس ١ / ١٦٤

١٨ المرجع السابق ١ / ٣٥٧٨

عند إرادة تصور أمرا غيبيا أو معنويا ، من المناسب أن يتم التمثيل له وتشبيهه بشيء محسوس ، ولموس في بيئة من يراد نقل التصور إليه ، ولا يتصور بضرب مثل بشيء ليس في المتناول ، كما في صحيح البخاري : قَالَ عَلِيٌّ : "حَدِّثُوا النَّاسَ ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكْذَبَ ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ" (١٩)

عندما أراد الله تعالى أن يمثل لنوره مثل له بما هو في بيئة العرب الذين نزل فيهم الوحي ، كما في المثل الذي ضربه للمنافقين في أول سورة البقرة . والتمثيل هنا لنور الله تعالى وليس لنور المؤمن كما ورد في بعض التفاسير . يقول الله تعالى في وصف نوره { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) }

رغم أن النور مصدره المصباح ، ومع ذلك قال الله تعالى { كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ } ولم يقل كمصباح في مشكاة ، وهذا من بديع التعبير القرآني ، بتقديم المشكاة علي المصباح لأن المقصود هو بيان أثر وشدة النور في هذه المساحة الصغيرة ، وليس نور المصباح ذاته ، لأن نور المصباح لو كان في غير هذه المساحة ، فربما لم يكن له أثر يذكر مهما كانت شدته .

والمشكاة هي كوة أو تجويف غير نافذ في حائط ، علي شكل مستطيل رأسي ، ضلعه الأعلى نصف بيضاوي كالحقبة ، كانت تصنع في البيوت القديمة التي كانت تبني من الطوب اللبن "الطين" لتوضع فيها مصابيح الإنارة ذات الفتيل ، وقد إنقرضت بعد ظهور الإنارة بالكهرباء والمباني الحديثة ، وهي أشبه بما يسمى "بيت النور" في أعمال الديكور الجبسية الحديثة ، فتحجز هذه الفجوة الضوء وتجمعه في ناحية فيصير قويا ، ولا يصنع ظلًا أمام مسار الضوء ، هذه المشكاة فيها مصباح ، المصباح الذي هو مصدر الضوء في زجاجة وصفها الله تعالى كأنها كوكب دري ، لكنها ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة { كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ } يعني: كوكب من الدرّ ، والدرّ ينير بنفسه ، أي الزجاجة في بريقها وصفائها ولمعانها كنجم ضخم ضوءه كالدر ، وهذا التعبير يثير لدي المتلقي حالة من العصف الذهني عن ماهية هذه الزجاجة العجيبة ، كقول الله تعالى في سورة الصافات في وصف شجرة الزقوم { طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) } ، وقد سلكَ طريقَ التشبيه في التعبير عَن شِدَّةِ صَفَاءِ الزُّجَاجَةِ بِأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِأَنَّهُ أَوْجَزُ لَفْظًا وَأَبْيَنُ وَصْفًا . وَهَذَا تَشْبِيهُ مُفَرَّدٌ فِي أَثْنَاءِ التَّمَثِيلِ وَلَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي الْمَثَلِ .

١٩ صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوما دون قوم رقم (١٢٧)

وقوله تعالى { يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ }، أي أن وقود هذا المصباح هو زيت شجرة مباركة ، وقد عبر عن الزيت بالشجرة التي يستمد منها للدلالة على عدم إنقطاعه ، والشجرة نفسها شجرة مباركة أي عظمة الثبات والخيرات لطيب منبتها ، وعندما يصف الله تعالى مخلوقا من مخلوقاته بالبركة فهذا يعني إجتماع كل صفات الخير والنفع فيه.

قوله تعالى { زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ } ، اختلف المفسرون أيضا في تفسير { زَيْتُونَةٍ } ، فقال بعضهم أنها شجرة الزيتون ، لأن زيت الزيتون هو أنقى أنواع الزيوت وأجودها ، قال ابن كثير { قَالَ أَبُو بَنٍ كَعْبٌ: كَوَّكَبٌ مُضِيءٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مُضِيءٌ مُبِينٌ ضَخْمٌ. } {يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ} {أَي: يَسْتَمَدُّ مِنْ زَيْتِ زَيْتُونِ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ {زَيْتُونَةٍ} بَدَلٌ أَوْ عَطْفٌ بَيَانٌ {لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} أَي: لَيْسَتْ فِي شَرْقِيٍّ بَقَعَتِهَا فَلَا تَصِلُ إِلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، وَلَا فِي غَرْبِيٍّ فَيَتَقَلَّصُ عَنْهَا الْفَيْءُ قَبْلَ الْغُرُوبِ، بَلْ هِيَ فِي مَكَانٍ وَسَطٍ، تَفْرَعُهُ الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ، فَيَجِيءُ زَيْتُهَا مُعْتَدِلًا صَافِيًا مُشْرِقًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمَارٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ، أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ أَبِي قَيْسٍ، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ عِزْرَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} قَالَ: شَجَرَةٌ بِالصَّحْرَاءِ، لَا يُظَلُّهَا جَبَلٌ وَلَا شَجَرٌ وَلَا كَهْفٌ، وَلَا يُوَارِيهَا شَيْءٌ، وَهُوَ أَجْوَدُ لَزَيْتِهَا.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الشَّجَرَةُ فِي الْأَرْضِ لَكَانَتْ شَرْقِيَّةً أَوْ غَرْبِيَّةً، وَلَكِنَّهُ مَثَلٌ ضَرِبَهُ اللَّهُ لِنُورِهِ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: {زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} يَقُولُ: لَيْسَتْ بِشَرْقِيَّةٍ يَحُوزُهَا الْمَشْرِقُ، وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَحُوزُهَا الْمَغْرِبُ دُونَ الْمَشْرِقِ، وَلَكِنَّهَا عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، أَوْ فِي صَحْرَاءٍ، تُصِيبُهَا الشَّمْسُ النَّهَارَ كُلَّهُ.

قال ابن كثير : وَأَوَّلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ أَنَّهَا فِي مُسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ، فِي مَكَانٍ فَسِيحٍ بَارَزٍ ظَاهِرٍ ضَاحٍ لِلشَّمْسِ، تَفْرَعُهُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَصْفَى لَزَيْتِهَا وَالطُّفْ، كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِمَّنْ تَقَدَّمَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بَنَ اسْلَمَ: يَعْنِي: لَصُوءُ إِشْرَاقِ الزَّيْتِ. [انتهى (٢٠)]

قال ابن عاشور [وذكرت الشجرة باسم جنسها ثم أبدل منه زيتونة وهو اسم نوعها للإبهام الذي يعقبه التفصيل اهتماماً بتقرر ذلك في الذهن. ووصف

الرَّيْتُونَةُ بِالْمُبَارَكَةِ لِمَا فِيهَا مِنْ كَثَرَةِ النَّفْعِ فَإِنَّهَا يُنْتَفَعُ بِحَبِّهَا أَكْلًا وَبِرَيْتِهَا كَذَلِكَ وَيُسْتَنَارُ بِرَيْتِهَا وَيَدْخُلُ فِي أَدْوِيَةٍ وَإِصْلَاحِ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ. وَيُنْتَفَعُ بِحَطْبِهَا وَهُوَ أَحْسَنُ حَطْبٍ لِأَنَّ فِيهِ الْمَادَّةَ الدُّهْنِيَّةَ قَالَ تَعَالَى: تَنْبُثُ بِالذَّهْنِ [الْمُؤْمِنُونَ: ٢٠] ، وَيُنْتَفَعُ بِجُودَةِ هَوَاءٍ غَابَاتِهَا. (٢١)

وذكر اسم الشجرة "زيتونة" بصيغة المفرد بعد ذكر جنسها ووصفها بأنها لاشرقية ولا غربية يوحي بأنها شجرة من شجر الزيتون الذي يعرفه الناس. وقوله تعالى : {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} أي أن الله تعالى إختص من بين الشجر، شجرة بعينها "زيتونة" لتنتج هذا الزيت الذي ليس ككل الزيوت بل هو زيت مخصوص يكاد يضيئ ولو لم تمسه نار من شدة بريقه ولمعانه وتوجهه بسبب نقاوته وصفائه .

يقول ابن عاشور : [وَجُمْلَةٌ: نُورٌ عَلَى نُورٍ مُسْتَنَافَةٌ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ مَجْمُوعِ أَجْزَاءِ الْمَرْكَبِ التَّمثِيلِي هُنَا هُوَ الْبُلُوغُ إِلَى إِضْاحِ أَنَّ الْهَيْئَةَ الْمُشَبَّهَ بِهَا قَدْ بَلَغَتْ حَدَّ الْمُضَاعَفَةِ لَوْسَائِلِ الْإِنَارَةِ إِذْ تَطَاهَرَتْ فِيهَا الْمَشْكَاةُ وَالْمِصْبَاحُ وَالزَّجَاجُ الْخَالِصُ وَالزَّيْتُ الصَّافِي، فَلِلمِصْبَاحِ إِذَا كَانَ فِي مَشْكَاةٍ كَانَ شَعَاعُهُ مُنْحَصِرًا فِيهَا غَيْرَ مُنْتَشِرٍ فَكَانَ أَشَدَّ إِضَاعَةً لَهَا مِمَّا لَوْ كَانَ فِي بَيْتٍ، وَإِذَا كَانَ مَوْضُوعًا فِي زُجَاجَةٍ صَافِيَةٍ تَضَاعَفَ نُورُهُ، وَإِذَا كَانَ زَيْتُهُ نَفِيًّا] (٢٢)

هذا التمثيل المركب لنور الله تعالى من المشكاة والمصباح والزجاجة ، يمكن أن تستشعره في الإضاءة القوية التي لاتكاد تقوي العين علي النظر إليها في مصابيح السيارات الحديثة ، والتي تعتمد علي وضع "مصباح" الإضاءة في تجويف زجاجي مصنوع بتقنية معينة لكي تزيد قوة الإضاءة وتركيزها . يقول ابن عاشور : [إذن: مَثَلُ تَنْوِيرِ اللَّهِ لِلْسَمَوَاتِ وَلِلْأَرْضِ مِثْلُ هَذِهِ الصُّورَةِ مَكْتَلَمَةٌ كَمَا وَصَفْنَا، وَانْظُرْ إِلَى مَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ بِهَذِهِ الْمَوَاصِفَاتِ، أَيْكُونُ بِهَا مَوْضِعٌ مَظْلَمٌ؟ فَالْسَمَوَاتِ وَالْأَرْضُ عَلَى سَعْتِهِمَا كَمِثْلِ هَذِهِ الْمَشْكَاةِ، وَالْمِثْلُ هُنَا لَيْسَ لِنُورِ اللَّهِ، إِنَّمَا لِنْتَوِيرِهِ لِلْسَمَوَاتِ وَلِلْأَرْضِ، أَمَّا نُورُهُ تَعَالَى فَشَيْءٌ آخَرُ فَوْقَ أَنْ يُوصَفَ. وَمَا الْمِثْلُ هُنَا إِلَّا لِتَقْرِيبِ الْمَسْأَلَةِ إِلَى الْأَذْهَانِ.] (٢٣)

٢١ التحرير والتنوير - ص ٢٤٢ - سورة النور - المكتبة الشاملة الحديثة

٢٢ نفس المصدر السابق

٢٣ نفس المصدر السابق

نور الهداية

ثم يقول سبحانه: {نُورٌ عَلَى نُورٍ} [النور: ٣٥] يقول الشعراوي [فلم يتركنا الحق سبحانه وتعالى في النور الحسي فقط، إنما أرسل إلينا نوراً آخر على يد الرسل هو نور المنهج الذي ينظم لنا حركة الحياة، كأنه تعالى يقول لنا: بعثت إليكم نوراً على نور، نور حسي، ونور قيمي معنوي، وإذا شهدتم أنتم بأن نوري الحسي ينير لكم السموات والأرض، وإذا ظهر تلاشت أمامه كل أنواركم، فاعلموا أن نور منهجي كذلك يطغى على كل مناهجكم، وليس لكم أن تأخذوا بمنهج البشر في وجود منهج الله.

وقوله تعالى: {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ} [النور: ٣٥] أي: لنوره المعنوي نور المنهج ونور التكليف، والكفار لم يهتدوا إلى هذا النور، وإن اهتدوا إلى النور الحسي في الشمس والقمر وانتفعوا به، وأطفأوا له مصابيحهم، لكن لم يكن لهم حظ في النور المعنوي، حيث أغلقوا دونه عيونهم وقلوبهم وأسماعهم فلم ينتفعوا به.

ولما كان كأنه قيل: ضرب الله هذا المثل لكم لتتدبروه فتنتفعوا به، عطف عليه قوله: {ويضرب الله} أي بما له من الإحاطة بكمال القدرة وشمول العلم {الأمثال للناس} لعلمه بها، تقريباً للأفهام، لعلمهم يهتدون {والله} أي الذي له جميع صفات الكمال {بكل شيء} أي منها ومن غيرها {عليم} يبين كل شيء بما يسهل سبيله فتلقوا بما يقول، وإن لم تفهموه أنفسكم وأمعنوا النظر فيه يفتح لكم سبحانه ما انغلق منه] إنتهي (٢٤).

٢٤ تفسير الشعراوي ص ١٠٢٧٣ المكتبة الشاملة الحديثة

الدليل الثاني علي وحدانية الله تعالى: وإن من شيء إلا يسبح بحمده

يقول الله تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)}

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى ما يدل على وحدة الخالق الأعلى، وكمال قيوميته، وكمال قدرته، ودُكِرَتْ هذه الآية بعد عدة أوامر نواه، وكان الله عزَّ وجلَّ يريد أن يُطمِنَكَ على أن هذا الكون الذي خلقه من أجلك وقبل أن تولد، بل، وقبل أن يخلق الله آدم أعدَّ له هذه الكون، وجعله في استقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه، ويقول لك : اطمئن فلن يخرج شيء من هذا الكون عن خدمتك فهو مُسَخَّرٌ لك، ولن يأتي يوم يتمرد فيه، أو يعصي أوامر الله.

قال الشعراوي : {أَلَمْ تَرَ} يعني: ألم تعلم، كما في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: ١] ومعلوم أن النبي ﷺ وُلِدَ عام الفيل، ولم يرَ هذه الحادثة، فلماذا لم يخاطبه ربُّه بألم تعلم ويريح الناس الذين يتشككون في الألفاظ؟

قالوا: ليدلَّك على أن ما يخبرك الله به غيباً عنك أوثق مما تخبرك به عينك مشهداً لك؛ لأن مصدر علمك هو الله، ألا ترى أن النظر قد يصيبه مرض فتختل رؤيته، كمن عنده عَمَى ألوان أو قَصَرَ نظر. فالنظر نفسه وهو أوثق شيء لديك قد يكذب عليك.

كيفية التسبيح

وحين تتتبع ألفاظ التسبيح في القرآن الكريم تجدها جاءت مرة بصيغة الماضي {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الحديد: ١] فهل سَبَّحَتْ السموات والأرض مرة واحدة، فقالت: سبحان الله ثم سَكَتَتْ عن التسبيح؟ لا إنما سَبَّحَتْ في الماضي، ولا تزال تُسَبِّحُ في الحاضر: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} الجمعة: ١، وما دام أن الكون كله سَبَّحَ لله، وما يزال يُسَبِّحُ فلم يَبْقَ إلا أنت يا ابن آدم: {سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: ١] يعني: استح أن يكون الكون كله مُسَبِّحاً وأنت غير مُسَبِّح، فصل أنت تسبيحك بتسبيح كل هذه المخلوقات.

وعجيب أن نسمع من يقول أن (مَنْ) في الآية للعاقل، فهو الذي يُسَبِّحُ أما السموات والأرض فلا دخلَ لهما في هذه المسألة، ونقول: لا دخلَ لها في تصورك أنت، أما الحقيقة فإنها مثلك تُسَبِّحُ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ النور: ٤١ ، وقال: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣] فليس لك بعد كلام الله كلام.

وآخر يقول لك: التسبيح هنا ليس على الحقيقة، إنما هون تسبيح دلالة وحال، لا مقال، يعني: هذه المخلوقات تدلُّ بحالها على تسبيح الله وتنزيهه، وأنه واحد لا شريك له، على حد قول الشاعر:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

وهذا القول مردود بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء: ٤٤

إذن: فهذه المخلوقات تُسَبِّحُ على الحقيقة ولها لسان ولغة، لكنك لا تفهم عنها ولا تفقه لغاتها، وهل فهمت أنت كل لغات بني جنسك حتى تفهم لغات المخلوقات الأخرى؟ إن العربي إذا لم يتعلم الإنجليزية مثلاً لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً، وهي لغة منطوقة مكتوبة، ولها ألفاظ وكلمات وتراكيب مثل العربية.

إذن: لا تقلُ تسبيحَ حال، هو تسبيح مقال، لكنك لا تفهمه، وكل شيء له مقال ويعرف مقالته، بدليل أن الله تعالى إن شاء أطلع بعض أهل الاصطفاء على هذه اللغات، ففهمها كما فهم سليمان عليه السلام عن النملة ﴿فَتَبَسَّمْ ضَاحِكاً مَنْ قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩] وسمع كلام الهدد وفهم عنه ما يقول عن ملكة سبأ.

ونقول لأصحاب هذا الرأي: تأملوا الخلية المسدسة التي يصنعها النحل وما فيها من هندسة تتحدى أساطين الهندسة والمقاييس أن يصنعوا مثلها، تأملوا عش الطائر وكيف ينسج عيدان القش، ويدخل بعضها في بعض، ويجعل للعش حافة تحمي الصغار، فإذا وضعت يدك في العش وهو من القش وجدت له ملمس الحرير، تأملوا خيوط العنكبوت وكيف يصطاد بها فرائسه؟ إذن: كيف نستبعد أن يكون لهذه المخلوقات لغات تُسَبِّحُ الله بها لا يعرفها إلا بنو جنسها، أو مَنْ أفاض الله عليه بعلمها؟

ثم ألم يتعلّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى لما قَتَلَ قابيلُ هابيلَ؟ كما يقول سبحانه: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ} [المائدة: ٣١] وكان ربنا عزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُنَا الْأَدَبَ وعدم الغرور.

ثم يقول سبحانه: {وَالطَّيْرَ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} [النور: ٤١] فلماذا خَصَّ الطير بالذكر مع أنها داخلة في {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} النور: ٤١.

قالوا: خَصَّهَا لِأَنَّ لَهَا خصوصية أخرى وعجبية، يجب أن نلتفت إليها؛ لأن الله تعالى يريد أن يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشيء أعظم، فالطير كائن له وزن وثقل، يخضع لقانون الجاذبية التي تجذب للأرض كُلَّ ثَقُلٍ يَلْقَى فِي الْهَوَاءِ.

لكن الحق سبحانه وتعالى يخرق هذا القانون للطير حين يَصِفُّ أجنحته في الهواء، يظل معلقاً لا يسقط: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ} [الملك: ١٩]

وكان الخالق عزَّ وَجَلَّ يقول: خُذُوا مِنَ الطَّيْرِ الْمَشَاهِدَ نَمُودَجًا وَوَسِيلَةً إِبْصَاحٍ، فإذا قلتَ لكم: {وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الحج: ٦٥] فَصَدِّقُوا وَآمِنُوا أَنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاءَ، بل: {إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ} [فاطر: ٤١] ، فخذُ من المشهد الذي تدركه دليلاً على ما لا تدركه.

الفاعل في {عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} النور: ٤١. يمكن أن يكون الطير وكل ما في الوجود، وأحسن منه أن نقول: علم الله صلاتها وتسبيحها؛ لأنه سبحانه خالقها وهاديتها إلى هذا التسبيح.

إذن: فكل ما في الوجود يعلم صلاته ويعلم تسبيحه، كما تعلم أنت المنهج، لكنه استقام على منهجه لأنه مُسَخَّرٌ وانحرفت أنت لأنك مُخَيَّرٌ.

فإن أردتَ أن تستقيمَ أمور حياتك فطَبِّقْ منهج الله كما جاءك؛ لذلك لا تجد في الكون خللاً أبداً إلا في منطقة الاختيار عند الإنسان، كل شيء لا دخل للإنسان فيه يسير منتظماً، فالشمس لم تعترض في يوم من الأيام ولم تتخلف، كذلك القمر والنجوم والهواء، إنها منضبطة غاية الانضباط، حتى إن الناس يضبطون عليها حساباتهم ومواعيدهم واتجاهاتهم.

لذلك يقول تعالى: {الشمس والقمر بحُسْبَانٍ} [الرحمن: ٥] يعني: بحساب دقيق، وما كان للشمس أن تضبط الوقت إلا إذا كانت هي في ذاتها منضبطة. {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [النور: ٤١] أي: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ تَذْيِيلٌ وَهُوَ إِعْلَامٌ بِسَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى الشَّامِلِ لِلتَّسْبِيحِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ. ثم يقول الحق سبحانه: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يريد الله عزَّ وَجَلَّ أَنْ يُطْمِئِنَّ عِبَادَهُ أَنْ الَّذِي كُلَّفَهُمْ بِمَا كُلَّفَهُمْ بِهِ يَضْمَنُ لَهُمْ مَقَوِّمَاتِ حَيَاتِهِمْ، فَلَنْ يَنْقُطَ عَنْهُمْ الْهَوَاءُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وَلَنْ تَتَأَبَّى عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ أَوْ الْقَمَرُ أَوْ الْأَرْضُ؛ لِأَنَّهَا مُلْكُ اللَّهِ، لَا يَشَارِكُهُ سُبْحَانَهُ فِي مُلْكِيَّتِهَا أَحَدٌ يَمْنَعُهَا عَنْهُمْ، فَاطْمَنُوا إِلَى أَنَّهَا سَتُؤَدِّي مَهْمَتَهَا فِي خِدْمَتِكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَشْغَلْ أَنْفُسَكُمْ بِهَا، فَقَدْ ضَمَّنَهَا اللَّهُ ﷻ.

الدليل الثالث علي وحدانية الله تعالى : نعمة المطر

يقول تعالى في سورة النور {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرَقَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ} (43) يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (44) {

في هذين الآيتين يبين الله تعالى كيفية تكون ونزول المطر ، وتقلب الليل والنهار ، ونزول المطر من الغيبيات الخمسة التي جعل مفاتيحها بيده تعالى وحده وهي المذكورة في سورة لقمان في قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (٣٤) {

ونزول المطر هو آية معجزة من آيات الله الكونية ، لم يدرك الناس الإعجاز فيها إلا بعد الاكتشافات العلمية المعاصرة ، ولذلك كان تفسير قدامي العلماء لهذه الآية يقوم علي التفسير البياني فقط ، ولم يتطرق إلي الجانب العلمي لعدم توفر المعلومات الكافية عن هذه المعجزة قديما .

يقول الحافظ ابن كثير [يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ بِقُدْرَتِهِ يَسُوقُ السَّحَابَ أَوَّلَ مَا يُنْشِئُهَا وَهِيَ ضَعِيفَةٌ، وَهُوَ الْإِرْجَاءُ {ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ} أَي: يَجْمَعُهُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ، {ثُمَّ

يَجْعَلُهُ رُكَامًا} أَي: مُتْرَاكِمًا، أَي: يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، {فَتَرَى الْوَدْقَ} أَي الْمَطَرُ {يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} أَي: مِنْ خَلْلِهِ. وَكَذَا قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ: يَبْعَثُ اللَّهُ الرِّيحَ الْمُثِيرَةَ فَتَقْفَمُ الْأَرْضَ قَفْمًا، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ النَّاشِئَةَ فَتَنْشِئُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُؤَلَّفَةَ فَتَوْلَفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ اللَّوَاقِحَ فَتَلْقَحُ السَّحَابَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ: {وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ}: قَالَ بَعْضُ النُّحَاةِ: "مِنْ" الْأُولَى: لِابْتِدَاءِ الْعَايَةِ، وَالثَّانِيَةِ: لِلتَّبْعِيضِ، وَالثَّلَاثَةِ: لِبَيَانِ الْجَنَسِ. وَهَذَا إِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلٍ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ: {مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ} وَمَعْنَاهُ: أَنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالَ بَرَدٍ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنْهَا الْبَرَدُ. وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ الْجِبَالَ ههنا عِبَارَةً عَنِ السَّحَابِ، فَإِنَّ "مِنْ" الثَّانِيَةَ عِنْدَ هَذَا لِابْتِدَاءِ الْعَايَةِ أَيْضًا، لَكِنَّهَا بَدَلٌ مِنَ الْأُولَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: {فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ} يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: {فَيُصِيبُ بِهِ} أَي: بِمَا يُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَوْعِي الْبَرَدِ وَالْمَطَرِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: {فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ} رَحْمَةً لَهُمْ، {وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ} أَي: يُؤَخِّرُ عَنْهُمْ الْعَيْثَ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ {فَيُصِيبُ بِهِ} أَي: بِالْبَرَدِ نِقْمَةً عَلَى مَنْ يَشَاءُ لِمَا فِيهِ مِنْ نَسْرِ ثِمَارِهِمْ وَإِتْلَافِ زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ. وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ أَي رَحْمَةً بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ {يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ} أَي يَكَادُ ضَوْءُ بَرْقِهِ مِنْ شِدَّتِهِ يَخْطِفُ الْأَبْصَارَ إِذَا اتَّبَعْتَهُ وَتَرَاعَتْهُ.

وَقَوْلُهُ {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} أَي يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا، فَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فِي قِصَرِ هَذَا حَتَّى يَعْتَدِلَا ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا، فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا. وَاللَّهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي ذَلِكَ بِأَمْرِهِ وَقَهْرِهِ وَعِزَّتِهِ وَعِلْمِهِ. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ} أَي: لَدَلِيلًا عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ} {آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠}. وَمَا بَعْدَهَا إِنْتِهَى (٢٥)

وبعد التطور العلمي المذهل ، الذي كشف الكثير من الحقائق العلمية التي

٢٥ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٧٢-٧٣ - المكتبة الشاملة الحديثة ٢٥

تؤكد صدق آيات القرآن الكريم وأنها من لدن حكيم خبير ، نري أنه من المناسب أن نذكر بعض الحقائق العلمية التي تتعلق بالمطر ، وبقلب الليل والنهار.

الإعجاز العلمي في وصف القرآن الكريم للمطر

في مقال للدكتور "منصور العبادي أبو شريعة" ^(٢٦) بتاريخ ٢٠١٠/٩/٤ في موقع "موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم" بإشراف الشيخ "عبد المجيد الزنداني" ^(٢٧) كتب يقول : إن الوصف الدقيق الذي وصفه القرآن الكريم للطريقة التي تتكون من خلالها الغيوم أو السحب في سماء الأرض، وكذلك ذكره لأنواع هذه الغيوم ينفي نفيًا قاطعاً أن يكون هذا القرآن من تأليف البشر، بل هو منزل من لدن عليم خبير سبحانه وتعالى. ومما يثير الدهشة أن عالم الأرصاد الجوية الإنجليزي لوك هوارد (Luke Howard) عندما قام في مطلع القرن التاسع عشر بوضع تصنيف لأنواع الغيوم أعطى لأحد أنواعها نفس التسمية القرآنية لهذا النوع، وهي السحب الركامية حيث أعطى هوارد الكلمة اللاتينية (Cumulus) والتي تعني ركام أو متراكم. بل إن الأعجب من هذا أن القرآن الكريم قد أكد على أن البرد لا ينزل إلا من غيوم لها امتدادات في السماء تظهر لمن يراها من أعلاها كأنها الجبال، وهو ما أظهرته الصور التي التقطتها الطائرات والأقمار الصناعية. ومما يثير العجب أيضاً أن يصف القرآن الكريم بعض السحب بأنها ثقيلة وهذا ما لا يمكن أن يستوعبه عامة الناس، فالغيوم بكل أنواعها تطير في الهواء فكيف يمكن أن يكون بعضها ثقيلًا وبعضها الآخر خفيفًا. ولكن علماء الأرصاد في العصر الحديث يعلمون جيداً ما معنى أن تكون السحب ثقيلة، بل

^{٢٦} الدكتور منصور العبادي أبو شريعة المولد: ١ / ١ / ١٩٥٢م الجنسية: اردني العمل : أستاذ هندسة الاتصالات-جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية ، له كتاب في مجال الإعجاز العلمي بعنوان "بداية الخلق في القرآن الكريم" عن دار الفلاح للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م.

^{٢٧} الشيخ عبد المجيد بن عزيز الزنداني هو سياسي وداعية يمني وهو المؤسس لجامعة الإيمان باليمن ومؤسس الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في مكة المكرمة ورئيس مجلس شورى حزب التجمع اليمني للإصلاح وأحد كبار مؤسسي جماعة الإخوان المسلمين في اليمن.

ويطلقون عليها اسم السحب الثقيلة (Heavy clouds) وهي سحب محملة بكميات كبيرة من الماء، فلا تكاد تطير في الهواء بسبب ثقلها ولذا نراها قريبة من سطح الأرض، العليا وصدق الله العظيم القائل {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)} الرعد.

تكون السحب

لقد أكد القرآن الكريم في آيات كثيرة على وجود معجزات كثيرة في هذه السحب التي تتكون في السماء، وحث البشر على التفكير فيها لكي يكتشفوا الآليات العجيبة التي تقف وراء تكونها بهذه الأشكال العجيبة، فقال عز من قائل {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)} البقرة.

لقد اكتشف العلماء في القرن العشرين حقائق مذهلة عن آليات تكون السحاب، وطرق نزول المطر منه، والآليات التي تضمن وصول المطر إلى مختلف مناطق اليابسة.

إن المادة الخام اللازمة لتشكيل السحب هو بخار الماء الذي يصعد من المسطحات المائية المختلفة وعلى الأخص المحيطات، وذلك بفعل حرارة الشمس وكذلك البخار الذي يخرج من أجسام الحيوانات والنباتات. إن عملية نقل الماء من المحيطات وتوزيعها على اليابسة تتم بآليات بالغة الإتقان، حيث تستخدم الطاقة الشمسية لتبخير الماء من المحيطات بدون أن يتم رفع درجة حرارة الماء إلى درجة الغليان.

ويقدر العلماء كمية الماء المتبخر من المحيطات في السنة الواحدة بأربعمئة وعشرين ألف كيلومتر مكعب، ومن اليابسة بسبعين ألف كيلومتر مكعب، وتحتاج هذه الكمية الهائلة من الماء المتبخر إلى كمية هائلة من الطاقة تقدر بمائتين وخمسين مليون بليون كيلواط ساعة في السنة الواحدة. وتتكفل الشمس بتوفير هذه الكمية الهائلة من الطاقة لعملية

تبخير الماء من خلال الإشعاع الذي يصل إلى الأرض على شكل أمواج ضوئية وحرارية.

ولو قدر لهذه الكمية الهائلة من الماء المتبخر أن تنزل دفعة واحدة على سطح جميع القارات لوصل ارتفاع الماء عليها إلى عشرة أمتار ولكن من لطف الله بعباده أن ٣٨٠ ألف كيلومتر مكعب منها ينزل على المحيطات بينما ينزل على اليابسة فقط مائة ألف كيلومتر مكعب تقريبا.

وبما أن بخار الماء أقل كثافة من الهواء فإنه يصعد إلى الأعلى ليختلط بالهواء الملامس للمسطحات المائية فيصبح الهواء رطبا وتعتمد كمية بخار الماء التي يمكن للهواء أن يحتويها على درجة الحرارة.

إن من أهم الآليات التي يعتمد عليها تشكل السحاب هي أن كمية بخار الماء التي يحتويها الهواء تزداد مع زيادة درجة الحرارة فالمتر المكعب من الهواء على سبيل المثال يمكنه أن يحمل حتى ٣٠ غرام من البخار عند ٣٠ درجة مئوية ولا يمكنه أن يحمل أكثر من ذلك عند هذه الدرجة، ويسمى هذا الحد بحد التشبع أو ما يسمى بنقطة الندى. (Dew point)

وإذا ما انخفضت درجة حرارة الهواء إلى عشرة درجات مئوية فإن المتر المكعب من الهواء لا يمكنه أن يحمل أكثر من تسعة غرامات من البخار وإذا ما انخفضت درجة حرارة الهواء أكثر فأكثر فإن كمية البخار فيه تقل إلى كمية لا تكاد تذكر.

وعلى هذا فإن الهواء المشبع ببخار الماء عندما يبرد يحول بخار الماء الزائد عن حد الندى عند درجة الحرارة الجديدة إلى قطرات من الماء فالمتر المكعب من الهواء المشبع تماما بالبخار عند درجة ٣٠ مئوية ينتج ٢١ غرام من الماء عندما يبرد إلى درجة ١٠ مئوية.

أما الآلية الثانية التي يعتمد عليها تشكل السحب فهي أن درجة حرارة الجو تقل تدريجيا مع ارتفاعه عن سطح البحر حيث تقل درجة حرارته بمعدل ستة درجات مئوية تقريبا لكل كيلومتر في الارتفاع. إن هذه الخاصية هي التي تعمل على تحويل بخار الماء المنبعث من أسطح المحيطات إلى غيوم ومن ثم إلى ماء ليعود إلى الأرض ثانية ولولا هذا التقدير في الخلق لاختفى الماء من الأرض منذ زمن بعيد حيث أن بخار الماء أخف من الهواء ولذا فإنه

سيهرب إلى الفضاء الخارجي لولا هذه الخصائص العجيبة.
إن بخار الماء المنبعث من المحيطات سيعود إليها حتما أثناء ارتفاعه إلى الأعلى بسبب تكثفه إلى ماء مع انخفاض درجة حرارة طبقات الجو الأعلى ولكن المطلوب هو إيصال هذا الماء إلى اليابسة لإدامة حياة الكائنات عليها. يتم إيصال الماء المتبخر من المحيطات والبحار إلى اليابسة من خلال الآلية الثالثة وهي الرياح فبدونها ستبقى اليابسة صحراء مقفرة لا حياة عليها رغم وفرة المياه في المحيطات.

إن ظاهرة الرياح على الأرض ظاهرة عجيبة لا يمكننا أن نخوض في تفاصيلها في هذه المقالة وسنفرد لها مقالة خاصة، ولكن سنشرح بعض خصائصها التي ستساعدنا على شرح ظاهرة السحب. تنشأ الرياح بسبب اختلاف درجة حرارة سطح الأرض فهو أشد حرارة عند خط الاستواء وتقل تدريجيا كلما تحركنا باتجاه القطبين.

بما أن كثافة الهواء تقل مع ارتفاع درجة الحرارة فإن الضغط الجوي عند خط الاستواء أقل منه عند القطبين مما يعمل على تحرك الهواء من القطبين باتجاه خط الاستواء بسرعات عالية منتجا ظاهرة الرياح، ويكون اتجاه الرياح من الشمال إلى الجنوب في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ومن الجنوب إلى الشمال في النصف الجنوبي، ولكن وبسبب دوران الأرض وما حولها من الغلاف الجوي حول محورها فإن اتجاه حركة الرياح ينحرف إلى الغرب قليلا عند القطبين مما يؤدي إلى ظهور ثلاثة أنماط مهيمنة من اتجاهات الرياح في كل نصف من الكرة الأرضية كما تبين الصورة المرفقة. ولكن وبسبب اختلاف الحرارة النوعية بين البر والبحر وبسبب وجود تضاريس معقدة على البر، وبسبب تأرجح محور دوران الأرض فإن حركة الرياح عند سطح الأرض تتشذ عن هذه الحركة العامة في كل منطقة من الأرض منتجة أنماط لا حصر لها من حركة الرياح تتحدد حسب موقع المنطقة، وفي أي وقت من السنة وبسبب هذا التعقيد في العوامل التي تحدد حركة الرياح فإنه من الصعب التنبؤ باتجاه حركتها وكذلك سرعتها بدقة.

تلعب الرياح الدور الرئيسي في تشكل السحب، وفي نقل الماء من المحيطات إلى اليابسة، وقد أكد القرآن الكريم في آيات كثيرة على هذا الدور البارز

للرياح فقال عز من قائل { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) } [فاطر] والقائل سبحانه { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) } [الأعراف].

وتدبر معي أخي القارئ في الآية السابقة قوله تعالى { إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ } والتي تؤكد على عملية نقل الماء من المحيطات إلى اليابسة، فبخار الماء الذي تنتجه المحيطات لا فائدة منه لولا الرياح، فهي التي تمر عليه لتحمله بعيدا عن المحيطات ليسقط على اليابسة. وإلى جانب نقلها للسحب من مكان إلى مكان تعمل الرياح بما تحمله من ذرات الرمال والغبار والدخان على تكثيف بخار الماء على هذه الجسيمات الدقيقة، وصدق الله العظيم القائل { وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) } [الحجر]

أما الآيات التي تبين بطريقة علمية دقيقة خطوات تشكل السحب من بخار الماء فهي قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) } [النور] ، وقوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) } [الروم] ولكي يتضح للقارئ وجوه الإعجاز في هذه الآيات، ومدى دقة التعبير القرآني في وصف عملية تشكل السحب وكذلك أنواعها؛ لا بد من شرح مبسط لما اكتشفه العلماء من حقائق حول طرق تكون السحب وكذلك أنواعها.

تتشكل السحب كما ذكرنا سابقا نتيجة لتكثف بخار الماء الذي في الهواء عندما يبرد وتصل درجة حرارته إلى درجة الحرارة الحرجة وهي الدرجة التي يصل عندها البخار إلى حد التشبع (نقطة الندى)

حركة الرياح

وتقوم الرياح بمهمة نقل بخار الماء من المحيطات أو من المناطق الرطبة في اليابسة إلى طبقات الجو الباردة لكي يتكثف ويتحول إلى مطر ينزل إلى الأرض وذلك من خلال عدة طرق:

الطريقة الأولى : من خلال التيارات الهوائية الصاعدة والتي تتولد عندما يسخن سطح الأرض، فيتمدد الهواء الملامس له فتقل كثافته ويرتفع إلى الأعلى حاملا معه بخار الماء، والذي يتكثف ليكون السحاب على ارتفاعات مختلفة، وذلك حسب درجة رطوبة الهواء والتي كلما قلت كلما ازداد ارتفاع السحب المتكونة.

الطريقة الثانية : فهي من خلال قيام الرياح بحمل البخار من المحيطات وعندما تصل إلى السلاسل الجبلية على اليابسة فإنها ترتفع نتيجة لاصطدامها بها فتصل إلى طبقات الجو الباردة فيتكثف البخار وتتكون السحب.

الطريقة الثالثة : فهي من خلال التقاء جبهتين هوائيتين، أحدهما دافئة رطبة والأخرى باردة جافة، وعند اصطدامهما ترتفع الجبهة الدافئة فوق الباردة بسبب خفة وزنها فتصل بما فيها من البخار إلى الطبقات الباردة ليتحول إلى سحاب.

الطريقة الرابعة : فهي من خلال هبوط درجة حرارة الهواء المشبع بالبخار إلى ما دون الدرجة الحرجة، فيتحول بخار الماء إلى سحاب أو ضباب أو ندى. وعندما يتحول بخار الماء بإحدى هذه الطرق إلى سحاب فإنه يكون على شكل رذاذ (water droplet) وهي قطرات ماء بالغة الصغر لا يتجاوز قطرها ٢٠ ميكرومتر، أو على شكل بلورات ثلجية صغيرة في حالة تكون السحاب عند درجات حرارة دون درجة تجمد الماء. ومن الجدير بالذكر أن البخار لكي يتكثف يلزمه وجود مواد صلبة بالغة الصغر يطلق عليها اسم نوى التكاثف (Condensation nuclei)، وهي متوفرة بكثرة في الجو، كالغبار والدخان وحبوب اللقاح وأملاح البحر التي تعلق ببخار الماء عند تبخره، ولا يتجاوز قطر هذه الجسيمات الميكرومتر الواحد. وعند وصول هذه السحب إلى مناطق باردة فإن رذاذ الماء يتجمع ليكون قطرات الماء والتي قد يصل حجمها إلى ٢٠ ملليمتر، أو ليكون حبات البرد التي قد يصل قطرها لعدة سنتيمترات، أو ليكون رقاقات الثلج ذات الأشكال العجيبة. لقد تم تصنيف السحب إلى أنواع مختلفة، وذلك حسب شكلها وارتفاع قاعدتها عن سطح الأرض، وكذلك فيما إذا كانت ماطرة أو غير ماطرة.

أنواع السحب

فمن حيث الشكل صنف العالم الانجليزي هوارد السحب من حيث شكلها إلى ثلاثة أنواع أساسية وهي:

السحب الركامية (cumulus) وهي سحب كثيفة لكنها كالصوف المنفوش، وقد تكون متقطعة ويتغير شكلها بشكل سريع، وتتكون من عدة طبقات تتراكم فوق بعضها البعض، وسمكها في المتوسط عدة كيلومترات، وقد يصل ارتفاع قممها إلى خمسة عشر كيلومتر عند خط الاستواء.

السحب الطبقيّة (stratus) وهي سحب رقيقة ومتصلة رمادية أو بيضاء اللون، وتكون على شكل طبقة واحدة لا يتجاوز سمكها عدة مئات من الأمتار.

السحب السحاقية أو الفزعية (cirrus) وهي سحب عالية وخفيفة بيضاء اللون تكون على شكل قطع صغيرة تخرج منها امتدادات على شكل ذيل الفرس.

أما من حيث الارتفاع فقد تم تصنيفها إلى ثلاثة أنواع وهي : السحب المنخفضة والتي لا يتجاوز ارتفاع قاعدتها عن سطح الأرض كيلومترين اثنين .

والسحب المتوسطة والتي يتراوح ارتفاع قاعدتها بين كيلومترين وستة كيلومترات

والسحب العالية والتي يتراوح ارتفاع قاعدتها بين ستة كيلومترات وخمسة عشر كيلومتر.

ولا توجد السحب (cirrus) العالية إلا في الارتفاعات العالية بينما يمكن أن توجد السحب الركامية والطبقيّة عند جميع الارتفاعات فهناك السحب الركامية العالية (Cirrocumulus) والمتوسطة (Alto cumulus) والمنخفضة (cumulus) وكذلك الحال مع السحب الطبقيّة.

وأما من حيث المطر فقد أطلق العلماء على السحب التي يمكن أن ينزل منها المطر اسم السحب الماطرة أو المزن (nimbus) فالسحب السحاقية غير ماطرة بينما بعض السحب الركامية والطبقيّة تكون ماطرة وفي هذا الحال تسمى المزن الركامية (Cumulonimbus) والمزن الطبقيّة (nimbostratus).

ومن الواضح من الآيات القرآنية السابقة أنها تتحدث عن نوع محدد من السحب، وهي السحب الماطرة أو المزن، وبالتحديد المزن الركامية والتي تسمى السحب أو العواصف الرعدية، ولذا سنشرح بشيء من التفصيل هذا النوع من السحب لنرى مدى التوافق بين ما أوردته الآيات القرآنية عن مواصفاتها وما اكتشفه العلماء عنها.

فالسحب الرعدية تنمو بشكل رأسي وتكون قاعدتها على ارتفاع يتراوح بين ٣٠٠ و ٥٠٠ متر عن سطح الأرض وقد تمتد قمة السحابة إلى ما يزيد عن عشرة كيلومترات وهي داكنة اللون عند أسفلها وببيضاء عند أعلاها. وتتكون مثل هذه السحب الرعدية في حالة عدم استقرار الجو وفي الغالب عند التقاء كتلتين هوائيتين أحدهما باردة جافة والأخرى دافئة رطبة، مما يدفع الكتلة الهوائية الدافئة للصعود إلى الأعلى مكونة مثل هذه السحب التي تتميز بوجود تيارات هوائية صاعدة وأخرى هابطة في داخلها. وينتج عن الاحتكاك بين مكونات هذه السحب بسبب السرعات العالية للتيارات الهوائية شحنات كهربائية موجبة وأخرى سالبة، تعمل التيارات الهوائية بفصلها عن بعضها البعض منتجة فرقا في الجهد بينها قد يصل إلى ٣٨٠ كيلوفولت، وعند تفريغ هذه الشحنات يحدث البرق يتبعه الرعد.

وقد تظهر السحب أو العواصف الرعدية على شكل خلايا (Multicellular cluster storms) يبلغ قطر الواحدة منها ما بين ٢ إلى ٥ كيلومتر، وهذه الخلايا تتكون تباعا وليس في نفس الوقت. وفي بعض خلايا السحب الرعدية يظهر في مقدمة السحابة من أسفلها جزء اسطواني الشكل ينتج عن الدوامات الهوائية في داخلها كما يظهر في قمة السحابة جزء على شكل السندل (anvil) وذلك بعد أن تضعف شدة العاصفة.

وفي كل خلية يحمل التيار الهوائي الصاعد الذي قد تصل سرعته إلى مائة كيلومتر في الساعة بخار الماء من أسفل السحابة إلى طبقات الجو العليا ذات درجات الحرارة المتدنية التي قد تصل إلى خمسين درجة تحت الصفر فيتحول بعضه إلى ماء وبعضه إلى برد وتلج والتي تنزل إلى الأرض مع تيار الهواء الهابط التي تبلغ سرعته ثلاثين كيلومتر في الساعة. وتعتمد كمية الماء في الخلية الواحدة على نصف قطرها وارتفاعها فخلية بقطر ثلاثة كيلومترات وارتفاع ستة كيلومترات قد تحتوي على ما يقرب من نصف مليون طن من الماء.

شرح الآيات علي ضوء الحقائق العلمية لتكون السحب

ونأتي الآن على شرح الآيات القرآنية السابقة والمتعلقة بتشكيل السحاب على ضوء الحقائق العلمية التي شرحناها آنفا:

فالحقيقة الأولى التي أكدت عليها الآيات القرآنية هو أن الرياح تلعب الدور الرئيسي في عملية تكون السحب، فهي التي تقوم بنقل بخار الماء من فوق البحار إلى اليابسة، وهي التي تقوم برفعه إلى طبقات الجو الباردة لكي يتكثف ويتحول إلى ماء أو برد أو ثلج، وهي التي تجلب ذرات الرمال والغبار اللازمة لعملية تكثيف البخار، كما في قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ وقوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾

أما الحقيقة الثانية فهي أن السحاب يأخذ أشكالا لا حصر لها في جو السماء، تدعو للتدبر والتأمل وتثير البهجة في النفوس لقوله تعالى ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾

أما الحقيقة الثالثة فهي ضرورة تجميع كميات كبيرة من بخار الماء في حيز واحد لكي يتم الحصول على كميات ماء كافية، وهذا يتم من خلال تراكم الغيوم فوق بعضها البعض، لقوله تعالى ﴿ثُمَّ يُوَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣].

أما الحقيقة الرابعة فهي أن البرد لا يمكن أن يتكون إلا في طبقات الجو الباردة جدا، وهذا يلزم رفع الغيوم لارتفاعات عالية تصل لما يزيد عن عشرة كيلومترات، ولذا نجد أن بعض خلايا السحب الرعدية تبرز كالجبال فوق مستوى السحابة، حيث يتكون البرد فيها لقوله تعالى ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣].

أما الحقيقة الخامسة التي ذكرتها الآيات القرآنية وهي الأعجب؛ أن السحب الرعدية يجب تقسيمها إلى خلايا لكي تتمكن من تكثيف ما بها من بخار بكفاءة عالية وفي وقت قصير، كما شرحنا ذلك آنفا وذلك مصداقا لقوله تعالى ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣]

أما الحقيقة السادسة فهي تأكيد الآيات على حقيقة وجود سحب ثقيلة تحمل كميات كبيرة من الماء تقاس بملايين الأطنان، وذلك في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف ٥٧] وقوله تعالى ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

أما الحقيقة السابعة فهي ربط حدوث البرق مع هذا النوع من السحب الرعدية، وهذا هو الحال، فالبرق لا يتولد إلا بوجود مثل هذه السحب كما قال تعالى { يَكَادُ سَنًا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ } [النور: ٤٣] وبعد هذا الشرح لهذه الآيات القرآنية ومطابقتها لما اكتشفه العلماء من حقائق علمية عن السحب بعد مرور ما يزيد عن ١٤٠٠ عام من نزول القرآن؛ هل يمكن لإنسان عاقل ومنصف أن ينسب هذا القرآن الكريم لإنسان أمي عاش في بيئة صحراوية لا تظهر فيها السحب الرعدية إلا نادراً. إن الذي يتحدث عن هذه السحب بكل ثقة، ويتأكد لا يساوره أي شك، فيعطي تفصيلات بالغة الدقة عن تركيب هذه السحب لا زال أكثر الناس في هذا العصر يجهلها هو من خلق هذه السحب وهو من أنزل هذا القرآن وهو القائل سبحانه { إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } (٩٨) [طه] إنتهي

آيات تقلب الليل والنهار

وقول الله تعالى { يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (44) } يثير بعض التساؤلات ، مثل : ما هو تقلب الليل و النهار؟ و إن كان تقلب الليل و النهار يعني تبديل الليل بالنهار و العكس وجعل نصف اليوم ليل و الآخر نهار فكيف تكون بذلك عبرة لأولي الأبصار؟ إذ أن العبرة هي عادة ما تكون بحدث كالذي حدث لفرعون مثلاً ، فجعله الله تعالى عبرة و آية لمن خلفه ، و إن كان لكلمة "عبرة" معنى آخر في تعاقب الليل والنهار فما هو ؟!

أجاب عن هذه الأسئلة الدكتور الدكتور كارم السيد غنيم (٢٨) ، أستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر في مقال في موقع "موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة " فقال : [ذكر الليل والنهار، مجتمعين أو منفصلين، في عشرات الآيات القرآنية، سواء بالإشارة إلى اختلافهما، أم إيلاج أحدهما في الآخر، أم تقلبيه، أم تكويره، أم إغشائه، أم تقديره، أم بيان أيهما يشهد مناشط الإنسان، وأيهما يهجع فيه.

الآيات التي ذكرت اختلاف الليل عن النهار، فنذكر منها قول الله تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة: ١٦٤]، { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ } [آل عمران: ١٩٠]، { إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ } [يونس: ٦].

الآيات التي ذكرت عملية الإيلاج أي: إدخال الشيء في غيره، فمنها: { تُولَجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتُولَجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران: ٢٧]، { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [الحج: ٦١]، { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [لقمان: ٢٩] ، [{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ

٢٨ الدكتور/ كارم السيد غنيم : مصري : دكتوراه الفلسفة في العلوم جامعة الأزهر

مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ { [فاطر: ١٣].

الآيات التي ذكرت الإغشاء (أى : التغطية)، فمنها قول الله تعالى: { إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف: ٥٤]، { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الرعد: ٣].

الآيات التي ذكرت خلفه الليل للنهار وخلفه النهار لليل، فمنها قول الله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا } [الفرقان: ٦٢].

الآيات التي ذكرت التقلب والتقدير، فمنها: { يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ } [النور: ٤٤]، { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ } [المزمل: ٢٠].

وأما الآيات التي ذكرت تعاقب الليل والنهار، فمنها قول الله تعالى: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يس: ٤٠].

وأما الآيات التي ذكرت انسلاخ النهار من الليل (بمعنى فصله وكشفه)، فمنها قول الله تعالى: { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَاِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ } [يس: ٣٧].

وأما الآيات التي ذكرت التكوير (بمعنى اللف والدوران أو إدخال هذا في ذاك)، فمنها قول الله تعالى: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ } [الزمر: ٥].

وأما الآيات التي ذكرت غطاش الليل (أى : ظلمته)، ومناشط الناس نهاراً وهجوهم ليلاً، فمنها قول الله تعالى: { وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا } [النازعات: ٢٩]، { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [يوسف: ٦٧]، { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [النمل: ٨٦]، { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } [غافر: ٦١].

وأما الآيات التي توضح نعمة اختلاف الليل عن النهار، فمنها قول الله تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ } [القصص: ٧١]، { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [القصص: ٧٢].

الحقائق العلمية في تقلب الليل والنهار

الأرض تدور حول محورها مرة كل يوم، فيظهر النهار بها في الجزء المواجه للشمس، بينما يكون الجزء المقابل ليل، ويتعاقب الليل والنهار باستمرار دوران الأرض أمام الشمس. وبالرغم من هذا، فإن هناك حركة ظاهرية للشمس يراها المشاهد بعينه، ويظن أن الشمس هي التي تدور حول الأرض، ولكن الحقيقة أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، إضافة إلى دورانها حول نفسها أمام الشمس، أما الحركة الأولى فتتولد عنها الفصول الأربعة (الصيف والخريف والشتاء والربيع)، وأما الحركة الثانية فيتولد عنها الليل والنهار.

تفيد المراجع الفلكية بأن مكان شروق الشمس ومكان غروبها يختلفان من يوم إلى آخر على مدار العام، وبالتالي يختلف كل من طول النهار وطول الليل، كثيراً أو قليلاً حسب انحراف زاوية كل من مكان الشروق ومكان الغروب. وإذا راقبنا هذين المكانين مع بداية فصل الربيع لوجدنا أن طول النهار يتساوى مع طول الليل، لأن الشمس تشرق من الشرق تماماً وتغرب في الغرب تماماً، لكنها بعد ذلك تنحرف شمالاً في شروقها وغروبها.

وبتوالي الأيام يزداد تدريجياً انحراف شروق الشمس من الشرق إلى الشمال، ويزداد انحراف غروبها من الغرب إلى الشمال، وبناء على هذا يطول النهار ويقصر الليل في البلاد الواقعة بين خط الاستواء والقطب الشمالي، ويحدث العكس في البلاد الواقعة بين خط الاستواء والقطب الجنوبي. ويستمر انحراف أو ميل الشمس حتى يصل أقصاه [٢٣.٥ درجة ميلاً عن خط الاستواء] عند " المنقلب الصيفي " يوم (٢٢ يونيو) وتكون الشمس في أقصى ارتفاع لها وقت الظهر، ويصير النهار أطول ما يمكن والليل أقصر ما يمكن، في بلاد نصف الكرة الشمالي، والعكس في بلاد نصف الكرة الجنوبي.

وبمرور الأيام بعد " المنقلب الصيفي " يقل ميل الشمس، فينخفض ارتفاعها وقت الظهر وتزحف في شروقها من يوم لآخر نحو الشرق، وتزحف في

غروبها من يوم لآخر نحو الغرب، وتقصّر مدة سطوع الشمس في بلاد نصف الكرة الأرضية الشمالي، وتقلّ بمرور الأيام في اتجاه القطب الشمالي، ويسود في هذه البلاد النهار الدائم، ولا يوجد بها ليل. ولكن العكس هو الذي يحدث في اتجاه نصف الكرة الجنوبي، فإذا بلغ الزمان "الاعتدال الخريفي" (٢١ سبتمبر تقريباً) تعامدت الشمس على خط الاستواء، وتساوى طول الليل مع طول النهار مرة أخرى في جميع أنحاء الكرة الأرضية.

وبعد "الاعتدال الخريفي" يتزايد نقصان ميل الشمس ويقل ارتفاعها وقت الظهيرة وتزحف في شروقها نحو الجنوب من الشرق، وتزحف في غروبها نحو الجنوب من الغرب، في البلاد الواقعة بنصف الكرة الشمالي، فيزداد تدريجياً طول الليل ويقصر طول النهار... ويحل "المنقلب الشتوي" (٢٣ ديسمبر تقريباً)، فيكون ميل الشمس أدناه [- ٢٣.٥ درجة]، ويصير النهار أقصره والليل أطوله في نصف الكرة الشمالي، ويصبح الليل دائماً في المنطقة القطبية الشمالية، والنهار دائماً في المنطقة القطبية الجنوبية. وبمرور الأيام بعد "المنقلب الشتوي" يزداد ميل الشمس، فيأخذ النهار في الطول والليل في القصر، بنصف الكرة الشمالي، ويأخذ النهار في القصر والليل في الطول بنصف الكرة الجنوبي إلى أن يحل "الاعتدال الربيعي" يوم (٢١ مارس تقريباً)، فيتساوى طول كل من الليل والنهار مرة أخرى في جميع أنحاء الكرة الأرضية.

وهكذا بدوران الأرض حول محورها مرة كل يوم، وبدورانها مرة حول الشمس كل يوم، في مدار يميل على دائرة خط الاستواء، يتغير كل من طول الليل وطول النهار خلال اليوم، ومن خط عرض إلى خط عرض آخر، شمالاً وجنوباً... ولم يتوصل العلماء إلى كل ذلك قبل القرن التاسع عشر الميلادي، بل بعده، وأما الآيات القرآنية التي أوردناها فلقد تناولت بالإشارات التصريحية أو الضمنية، هذه الظاهرة الأرضية... فسبحان منزل هذا القرآن العظيم على قلب آخر أنبيائه ورسله إلى البشر جميعاً، محمد ﷺ [إنتهى

الدليل الرابع علي وحدانية الله تعالى : خلق الدواب من الماء
يقول الله تعالى { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رَجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) } لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) }.

التفسير البياني لهذه الآية أوجزه ابن كثير بقوله [يَذْكُرُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ النَّامَّةَ
وَسُلْطَانَهُ الْعَظِيمَ، فِي خَلْقِهِ أَنْوَاعَ [الْمَخْلُوقَاتِ] . عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا
وَأَلْوَانِهَا، وَحَرَكَاتِهَا وَسُكُنَاتِهَا، مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ، {فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ}
كَالْحَيَّةِ وَمَا شَاكَلَهَا، {وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رَجْلَيْنِ} كَالْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ،
{وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ} كَالْأَنْعَامِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {يَخْلُقُ
اللَّهُ مَا يَشَاءُ} أَيُّ: بِقُدْرَتِهِ؛ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ وَلِهَذَا قَالَ:
{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}].

وفي تفسير الطبري "وقوله { خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ } يَعْنِي مِنْ نُطْفَةٍ "
وفي تفسير القرطبي "الدابة كل ما دب على وجه الأرض من الحيوان؛ يقال:
دب يدب فهو داب؛ والهاء للمبالغة. { من ماء } لم يدخل في هذا الجن
والملائكة؛ لأننا لم نشاهددهم، ولم يثبت أنهم خلقوا من ماء، بل في
الصحيح (إن الملائكة خلقوا من نور والجن من نار).

وفي الحديث عن أبي هريرة قال قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي
وقرّت عيني فأنبئني عن كل شيء، قال (إن الله تعالى خلق كل شيء من
الماء) ، وفي لفظ (كل شيء خلق من الماء) (٢٩)

الإعجاز العلمي في الماء

ومن مقال في موقع "موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة" (٣٠)
[لماء سابق في وجوده على جميع الخلائق، فقد أثبتت دراسات علوم الأرض
أن هذا الكوكب يرجع عمره إلى أكثر من ٤٦ بليون سنة مضت، بينما يرجع
عمر أقدم أثر للحياة في صخور الأرض إلى ٣٨ بليون سنة ، وهذا يعني أن
عملية إعداد الأرض لاستقبال الحياة استغرقت أكثر من ثمانمائة مليون سنة]
وقال في موضع آخر [وتتوزع المياه على سطح الأرض بواقع مساحة تشكل
حوالي ٧١%- في مقابل ٢٩% لليابسة- وتبلغ إجمالي إمدادات المياه في
العالم حوالي ١٣٨٦ مليون كيلومتر مكعب (٣٣٢٥ ميل مكعب) من الماء،

^{٢٩} مسند أحمد رقم (٧٩٣٢) مسند أبو هريرة

^{٣٠} مقال د صبحي رمضان فرج سعد مدرس بكلية الآداب- جامعة المنوفية – جمهورية مصر العربية

منها أكثر من ٩٦% عبارة عن ماء مالح (محيطات- بحار- بحيرات مالحة) ، وفيما يتعلق بالماء العذب، فإن منه ما يزيد على ٩٦% محجوز بالأنهار والكتل الجليدية و٣٠% موجود بالأرض أما مصادر الماء العذب المتمثلة في الأنهار والبحيرات فهي تشكل حوالي ٩٣١٠٠ كيلومتر مكعب (٢٢٣٠٠ ميل مكعب)، أي حوالي ١/١٥٠ من ١% من إجمالي الماء ويتباين التوزيع الجغرافي للماء على سطح الأرض، وتصف دورة المياه Water Cycle وجود وحركة المياه على الأرض وداخلها وفوقه وتتحرك مياه الأرض دائما، وتتغير أشكالها باستمرار، من سائل إلى بخار، ثم إلى جليد، ومرة أخرى إلى سائل ولقد ظلت دورة الماء تعمل مليارات السنين، وتعتمد عليها كل الكائنات الحية التي تعيش على الأرض، فمن دونها تصبح الأرض مكاناً طارداً تتعذر فيه الحياة

والماء من أهم العناصر لحياة الإنسان على الإطلاق وهو يكون ثلثي وزن الجسم وبدونه لا تستمر الحياة طويلاً حيث يمثل حوالي ٦٠% من الجسم في المتوسط، يتراوح في جسم الرجل بين ٥٥-٦٥%، وفي جسم المرأة بين ٥٠-٥٥% ويرجع محتوى الماء المرتفع في جسم الرجل مقارنة بالمرأة إلى الكتلة العضلية الكبيرة التي يتميز بها جسم الرجل هذا بالإضافة إلى النسبة المنوية لوزن الجسم والتي تتباين أيضاً مع العمر فنسبة الماء في الأطفال حديثي الولادة New-born infants تبلغ حوالي ٧٥% من وزن الجسم، وتنخفض هذه النسبة إلى النسبة الطبيعية "حوالي ٦٠%" بعد سنة من العمر. والماء في الجسم يوجد على شكلين أحدهما خارج الأنسجة ويمثل الجزء الأكبر، والآخر داخل الأنسجة، والماء خارج الأنسجة يمثل السوائل الموجودة بالدم واللمف وسائل النخاع الشوكي والإفرازات الأخرى مثل الإفرازات المعدية، والصفراء والبنكرياس وغيرها أما الماء داخل الأنسجة فيمثل السوائل المحيطة بالخلايا في المسافات البينية والسوائل المكونة للبروتوبلازم داخل الخلايا نفسها ويلاحظ بوضوح جلي الاختلافات في كمية الماء التي توجد في مختلف الأعضاء والأنسجة الحيوانية والنباتية فعلى سبيل المثال، يوجد الماء بنسبة ٨٨-٩٩% في السوائل الحيوية مثل عصير الأشجار والعصير المعدي للإنسان والحيوان وبلازما الدم والسائل الليمفاوي الخ، بينما تقدر كميته في أنسجة وأعضاء أخرى بحوالي ٢٠-٢٤%، كما في النسيج العظمي للإنسان والحيوان والأعضاء الخشبية في النباتات وكقاعدة عامة، تكون كمية المياه بنسبة أكبر في الكائنات والأعضاء حديثة السن مقارنة بالأخرى المسنة، وأوضح مثال على ذلك، الانخفاض التدريجي لنسبة الماء في جسم الإنسان والحيوان بتقدم السن، والتي يصاحبها ظهور

التجاويد المميزة على الجلد وعلى غرار ذلك، يحدث انخفاض تدريجي في كمية الماء في النباتات مع تقدم نموه ويبدو أنه توجد علاقة وثيقة بين كمية الماء الموجودة في الخلايا ومعدل النشاط الحيوي والفسولوجي لتلك الخلايا، فزيادة النشاط الحيوي للخلية يرافقة زيادة في كمية الماء، حيث تتراوح نسبته في الخلايا النشيطة الانقسام بين ٨٠-٩٠% ولقد أودع الله في الماء قوة تسمى قوة التوتر السطحي، لولا هذه القوة لم تتماسك قطرة الماء، ولم يستطع الماء أن يتبخر ولن ينزل المطر ولن توجد الحياة أصل والعجيب أن العلماء عندما أحصوا عدد الجزيئات في قطرة ماء واحدة وجدوا في كل قطرة صغيرة هنالك خمسة آلاف مليون جزيء ماء!!

وبعد أن أعطانا الحق تبارك وتعالى الأدلة على أن الملك له وحده، وأن كل شيء يُسَبَّح بحمده تعالى وإليه تُرجَع الأمور، وأنه تعالى خلق كُلَّ دابة من ماء، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ يعني: مَنْ ملك هذا الملك وحده، وخلق لكم هذه العجائب أنزل لكم آيات بينات تحمل إليكم الأحكام، فكما فعل لكم الجميل، ووفر لكم ما يخدمكم في الكون، سمائه وأرضه، فأدُّوا أنتم ما عليكم نحو منهجه وأحكامه، واتبعوا هذه الآيات البينات.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦] الهداية نوعان : هداية الدلالة وهي المنهج الذي إرتضاه الله لخلقه ، وهذه الهداية لكل الناس مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى يهدي الجميع هداية الدلالة، ويبين لكل أسباب الخير وسبل النجاة وطريق الفلاح والأسلوب الأمثل في إدارة حركة الحياة، فَمَنْ سمع كلام الله ووثق في توجيهه وأطاع في هداية الدلالة أعانه بالنوع الثاني وهو هداية التوفيق. أما قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨] ، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، فهؤلاء الذين إمتنعوا عن هداية الدلالة فمنع الله عنهم هداية التوفيق.

الفصل الثاني

نور التوحيد

وصف المؤمنين

يقول الله تعالى في سورة النور {فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) }

جاءت هذه الآيات بعد آية النور التي مثل الله تعالى فيها لنوره بالمشكاة والمصباح والزجاجة ، ليظهر أثر هذا النور في أرجاء السماوات والأرض وقوله تعالى {فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) } يشير إلي أن أولي الأماكن بنور الله عز وجل هي بيوت الله ، وقد رأي بعض المفسرون أن حرف الجر {في} هو للدلالة علي أن هذا النور هو في بيوت الله ، و{أذن} بمعنى أمر وقضي أن ترفع وتشيد المساجد لذكره تعالى . فَقَالَ : {فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ} أي: أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِرَفْعِهَا، أَيْ بِتَطْهِيرِهَا مِنَ الدَّنَسِ وَاللُّغُو، وَالْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ فِيهَا. وقد رأي بعض المفسرون أن المقصود بـ {بيوت} هي البيوت بصفة عامة ، ورأي آخرون أنها المساجد الأربعة ، المسجد الحرام بمكة ، والمسجد النبوي ومسجد قباء في المدينة ، والمسجد الأقصى في القدس ، ولكن الأظهر أن المقصود هو المساجد عامة بدلالة الآيات التي تليها وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ، وَاحْتِرَامِهَا وَتَوْقِيرِهَا، وَتَطْيِيبِهَا وَتَبْخِيرِهَا. فَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ . (٣١)

وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُذْكَرُ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) (٣٢) وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ عُمَرُ: ابْنُ النَّاسِ مَا يُكْنَهُمْ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَحْمَرَ أَوْ تُصْفَرَ فَتَفْتِنَ النَّاسَ (٣٣).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ". رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا التِّرْمِذِيَّ (٣٤)

٣١ صحيح البخاري برقم (٤٥٠) وصحيح مسلم برقم (٥٣٣)

٣٢ سنن ابن ماجه برقم (٧٣٥) من طريق الوليد بن أبي الوليد عن عثمان بن عبد الله

٣٣ صحيح البخاري (٥٣٩/١) "فتح

٣٤ المسند (١٣٤/٣) وسنن أبي داود برقم (٤٤٩) وسنن النسائي (٣٢/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٧٣٩)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ: "إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرْبِحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ. وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَشُدُّ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ". رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. (٣٥)

وفي صحيح مسلم ١٢٤ - (٢٦١٥) عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا، أَوْ فِي سُوقِنَا، وَمَعَهُ نَبْلٌ، فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا بِكَفِّهِ، أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ» أَوْ قَالَ "لِيَقْبِضَ عَلَى نِصَالِهَا" (٣٦)

وفي صحيح مسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزِرُمُوهُ دَعْوُهُ» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ. (٣٧)

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ الْكَنْدِيِّ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ، فَحَصَبَنِي رَجُلٌ، فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَأَتِنِي بِهِدَيْنٍ. فَجِئْتُهُ بِهِمَا، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ أَوْ: مَنْ أَينَ أَنْتُمَا؟ قَالَا مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ. قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا: تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تَضَعُفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ، خُمُسًا وَعَشْرِينَ ضِعْفًا. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وَضُوءَهُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خُطِيئَةٌ، فَإِذَا لَهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٣٨)

صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَاةٍ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَهَرَ الصَّلَاةُ" (٣٩)

٣٥ سنن الترمذي برقم (٣١٢١)

٣٦ رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٦١٥) من حديث أبي موسى الأشعري.

٣٧ رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٤) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٣٨ صحيح البخاري برقم (٤٧٠)

٣٩ صحيح البخاري برقم (٦٤٧) وصحيح مسلم برقم (٦٤٩) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

وَرَوَى مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ - أَوْ أَبِي أُسَيْدٍ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ).^(٤٠)

والأحاديث في فضل المساجد أكثر من أن تحصر في هذا المقام فنكتفي بهذا القدر والله المستعان.

فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، مَعَ مَا تَرَكْنَاهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ، كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ}.

وَقَوْلُهُ: {وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ} أي: اسم الله، كقوله: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الْأَعْرَافِ: ٣١] وَقَوْلُهُ {وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [الْأَعْرَافِ: ٢٩]، وَقَوْلُهُ {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الْحَجِّ: ١٨]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ} يَعْنِي: يُنْتَلَى فِيهَا كِتَابُهُ.

وَقَوْلُهُ: {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} أَي: فِي الْبُكْرَاتِ وَالْعَشِيِّاتِ. وَالْآصَالُ: جَمْعُ أَصِيلٍ، وَهُوَ آخِرُ النَّهَارِ

فَقَوْلُهُ: {رِجَالٌ} فِيهِ إِشْعَارٌ بِهِمَمُهُمُ السَّامِيَّةِ، وَنِيَّاتُهُمْ وَعَزَائِمُهُمُ الْعَالِيَةِ، الَّتِي بِهَا صَارُوا عُمَّارًا لِلْمَسَاجِدِ، الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَمَوَاطِنُ عِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ، وَتَوْجِيدِهِ وَتَنْزِيهِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الْأَحْزَابِ: ٢٣].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنِ السَّائِبِ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (خَيْرُ مَسَاجِدِ النِّسَاءِ بُيُوتُهُنَّ)^(٤١)

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُوَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ عَمَّتِهِ أُمِّ حُمَيْدٍ -امْرَأَةِ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ- أَنَّهَا جَاءَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُحِبُّ الصَّلَاةَ مَعَكَ قَالَ: (قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تُحِبِّينَ الصَّلَاةَ مَعِي، وَصَلَاتِكَ فِي بَيْتِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي حُجْرَتِكَ، وَصَلَاتِكَ فِي حُجْرَتِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي دَارِكَ، وَصَلَاتِكَ فِي دَارِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكَ، وَصَلَاتِكَ فِي مَسْجِدِ قَوْمِكَ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِكَ فِي مَسْجِدِي) قَالَ: فَأَمَرْتُ فَبَنِي

^{٤٠} صحيح مسلم برقم (٧١٣) وسنن النسائي (٥٣/٢).

^{٤١} المسند (٢٩٧/٦)

لَهَا مَسْجِدٌ فِي أَقْصَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِهَا وَأَظْلَمِهِ ، فَكَانَتْ تُصَلِّي فِيهِ حَتَّى لَقِيَ
الله، عز وجل. " لم يخرجوه. (٤٢)

وَقَوْلُهُ: {رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}، كَقَوْلِهِ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ} [الْمُنَافِقُونَ: ٩] ، وَقَالَ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ
لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الْجُمُعَةُ: ٩].

يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَشْغَلْهُمْ الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا وَزِينَتُهَا وَمَلَاذِ بَيْعِهَا وَرِيحِهَا، عَنْ
ذِكْرِ رَبِّهِمُ الَّذِي هُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ، وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ هُوَ خَيْرٌ
لَهُمْ وَأَنْفَعُ مِمَّا بِيَدَيْهِمْ؛ لِأَنَّ مَا عِنْدَهُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {لَا
تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ} أَيُّ: يُقَدِّمُونَ
طَاعَتَهُ وَمُرَادَهُ وَمَحَبَّتَهُ عَلَى مُرَادِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ

وَقَوْلُهُ {يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} أَيُّ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي
تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ، أَيُّ: مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَعَظَمَةِ الْأَهْوَالِ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى {وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاشِفِينَ} {غَافِرٍ:
١٨} ، وَقَالَ تَعَالَى: إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} {إِبْرَاهِيمَ:
٤٢} ، وَقَالَ تَعَالَى: وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا
نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا
عَبُوسًا فَمُطَرِّبِرًا فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاءً
بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} {الْإِنْسَانِ: ٨-١٢}.

وَقَوْلُهُ: {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} أَيُّ: يَتَقَبَّلُ مِنْهُمْ الْحَسَنَ وَيُضَاعِفُهُ لَهُمْ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا} [النِّسَاءُ: ٤٠] ، وَقَالَ تَعَالَى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ
أَمْثَالِهَا} [الْأَنْعَامُ: ١٦٠] ، وَقَالَ {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البَقَرَةُ: ٢٤٥] ، وَقَالَ {وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ
يَشَاءُ} [البَقَرَةُ: ٢٦١] ، كَمَا قَالَ هَاهُنَا: {وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}
وَالرِّزْقُ: كُلُّ مَا يُنْفَعُ بِهِ، وَكُلُّ مَعْنَى فِيهِ فَوْقِيَّةٌ لَكَ هُوَ رِزْقٌ، فَالْصَّحَّةُ رِزْقٌ،

والعلم رزق، والحلم رزق، والشجاعة رزق. . الخ.
والبعض يظن أن الرزق يعني المال، وهذا خطأ؛ لأن الرزق مجموع أمور كثيرة، فإن كان رزقك علماً فعلم الجاهل، وإن كان رزقك قوة فأعين الضعيف، وإن كان رزقك حُلماً فاصبر على السَّفيه، وإن كان رزقك صنعة تجيدها، فاصنع لآخرق لا يجيد شيئاً.

والحساب: أن تحسب ثمرة الأفعال: هذه تعطي كذا، وهذا ينتج كذا، يعني ميزانية ودراسة جدوى، أما عطاء الله فيأتيك دون هذه الحسابات، فأنت تحسب؛ لأن وراءك مَنْ سيحاسبك، أما ربك عزَّ وجلَّ فلا يحاسبه أحد؛ لذلك يعطيك بلا عمل ودون أسباب، ويعطيك بلا مُقَدِّمات، ويعطيك وأنت لا تستحق. هذا العطاء الرباني بغير حساب هو أعظم ثمار توحيد الله عز وجل ، والقيام على طاعته فيما أمر والإنتهاء عما نهى ، ويعيش المرء في نور الله ﷺ علي خلاف الصنف المذكور في الفصل التالي .

المعني الإجمالي لآيات النور

بعد أن بينا إستحالة أن يكون الله تعالى هو نور السموات والأرض بالمعني الحسي للنور كنور الشمس أو القمر ، أو الأنوار المصنوعة ، فيكون المهني المقصود هو ان دين الله أومنهج الله أو هدي الله والإيمان بالله هو نور السموات والأرض ، ولتقريب صورة هذا النور إلي الأذهان لكونه يفوق التصور من شدة تألقه ووضوحه ، مثل الله لهذا النور بنور مصباح في زجاجة كالدرة ، هذا المصباح بزجاجته الدرية موضوع في فجوة صغيرة لتجميع وتركيز نوره الذي يضاء من زيت الزيتون الذي كاد أن يضيئ ذاتيا من شدة نقاوته ولمعانه لأن شجرة هذا الزيت لا شرقية ولا غربية وإنما هي شجرة ذات طبيعة خاصة . هذا النور الموصوف بهذا الوصف البديع موجود في بيوت الله وهي المساجد التي أذن الله لها أن تقام وترفع لكي يذكر فيها إسم الله تعالى صباحا ومساء ، رجال لا تلهيهم التجارة والبيع والصفق في الأسواق عن ذكره ، ولا عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

الفصل الثالث

ظلمات الكفر

وصف الكافرين

بعد أن بين الله تعالى حال المؤمنين وتنعمهم في نور الله تعالى ، ينتقل الحديث إلى حال الكافرين ، فيقول الله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) } أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) } .

هَذَانِ مَثَلَانِ ضَرْبَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَوْعِي الْكُفَّارِ، كَمَا ضَرَبَ لِلْمُنَافِقِينَ فِي أَوَّلِ "البقرة" مَثَلَيْنِ نَارِيًّا وَمَائِيًّا بِقَوْلِهِ { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ } (١٧) { ثم قوله { أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ } (١٩) ، وَكَمَا ضَرَبَ لِمَا يَقْرَأُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ فِي سُورَةِ "الرعد" مَثَلَيْنِ مَائِيًّا وَنَارِيًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } (١٧) } .

فَأَمَّا الْأَوَّلُ مِنَ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ: فَهُوَ لِلْكَفَّارِ الدُّعَاةِ إِلَى كُفْرِهِمْ، الَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ، وَلَيْسُوا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى شَيْءٍ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يَرَى فِي الْقَيْعَانِ مِنَ الْأَرْضِ عَنْ بُعْدٍ كَأَنَّهُ بَحْرٌ طَامٌ.

وَالْقِيعَةُ: جَمْعُ قَاعٍ، كَجَارٍ وَجِيرَةٍ. وَالْقَاعُ أَيْضًا: وَاحِدُ الْقَيْعَانِ، كَمَا يُقَالُ: جَارٌ وَجِيرَانٌ. وَهِيَ: الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَّةُ الْمُتَشَعِّعَةُ الْمُتَبَسِّطَةُ، وَفِيهِ يَكُونُ السَّرَابُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ نِصْفِ النَّهَارِ. وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّمَا يَكُونُ أَوَّلَ النَّهَارِ، يَرَى كَأَنَّهُ مَاءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا رَأَى السَّرَابَ مَنْ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَاءِ، حَسِبَهُ مَاءً فَفَقَّصَدَهُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ { لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا } ، فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسِبُ أَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَمَلًا وَأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ شَيْئًا، فَإِذَا وَافَى اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحَاسِبَهُ عَلَيْهَا، وَنُوقِشَ عَلَى أَفْعَالِهِ، لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئًا بِالْكَلِيَّةِ قَدْ قُبِلَ،

إِمَّا لِعَدَمِ الْإِخْلَاصِ، وَإِمَّا لِعَدَمِ سُلُوكِ الشَّرْعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: ٢٣].
وَفِي الصَّاحِحِينَ : أَنَّهُ يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ. فَيُقَالُ: كَذِبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ، مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: أَيُّ رَبَّنَا، عَطَشْنَا فَاسْقِنَا. فَيُقَالُ: أَلَا تَرَوْنَ؟ فَتَمَثَّلَ لَهُمُ النَّارُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يُحَطِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَنْطَلِقُونَ فَيَتَهَاوَتُونَ فِيهَا (٤٣)
يقول ابن كثير [وَهَذَا الْمَثَلُ مِثَالٌ لِدَوِي الْجَهْلِ الْمُرْكَبِ. فَأَمَّا أَصْحَابُ الْجَهْلِ الْبَسِيطِ، وَهُمْ الطَّامَطُ الْأَغْشَامُ الْمُقْلِدُونَ لِأَيِّمَةِ الْكُفْرِ، الصَّمِّ الْبُكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، فَمَثَلُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ} : قَالَ قَتَادَةُ: وَهُوَ الْعَمِيقُ. {يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا} أَيُّ: لَمْ يَقَارِبْ رُؤْيَاهَا مِنْ شِدَّةِ الظَّلَامِ، فَهَذَا مِثْلُ قَلْبِ الْكَافِرِ الْجَاهِلِ الْبَسِيطِ الْمُقْلِدِ الَّذِي لَا يَذَرِي أَيْنَ يَذْهَبُ، وَلَا [هُوَ] يَعْرِفُ حَالَ مَنْ يَقُودُهُ، بَلْ كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ لِلْجَاهِلِ: أَيْنَ تَذْهَبُ؟ قَالَ: مَعَهُمْ. قِيلَ: قَالَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ قَالَ: لَا أَذْرِي.] انتهى (٤٤)
وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} أَيُّ: مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَهُوَ هَالِكٌ جَاهِلٌ حَائِرٌ بَائِسٌ كَافِرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ} [الأعراف: ١٨٦] وهذا في مقابلة مقابلة مَا قَالَ فِي مِثْلِ الْمُؤْمِنِينَ: {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ}.

ماهو السراب ؟!!!

وفي المثل الأول شبه الله تعالى أعمال الكافرين بالسراب ، والسراب ظاهرة علمية لم يكن للعرب علم بها عند نزول القرآن ، أي أن القرآن كالعادة يبقي مصدرا لآيات الله في الآفاق حتي يتبين للناس أنه الحق هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات. فمثلهم في ذلك كالسراب. والسراب: ما يرى نصف النهار في اشتداد الحر، كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض.
وسمي السراب سراباً لأنه يسرب سروباً، أي يجري كالماء، و لا تسرابه في

⁴³ صحيح البخاري برقم (٤٥٨١) وصحيح مسلم برقم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري، .

⁴⁴ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٧١ - المكتبة الشاملة الحديثة

مرأى العين. ويقال: سرب الفحل أي مضى وسار في الأرض. ولا يكون السراب إلا في الأرض القiecie والحر فيغتر به العطشان. والقiecie جمع القاع، مثل جيرة وجار، والقاع ما انبسط من الأرض واتسع، ولم يكن فيه نبت، وفيه يكون السراب. وأصل القاع الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء، وجمعه قيعان. وقال الجوهري: القاع المستوي من الأرض.

وفي معنى: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ﴾، فعل حسب يدل على أن الشيء الذي تحسبه موجود، هو في الحقيقة ليس كذلك، فهو غير موجود حقيقة. وبالتالي فهو مناقض لما ترى. والظمان: أي العطشان. وقال الزجاج: هو أشده. والظمان: العطشان. وقد ظمى فلان يظماً ظماً إذا اشتد عطشه. وهو ظمى وظمان، والأثنى ظمأى وقوم ظماء أي عطاش، ورجل مظماء معطاش، وظمى إلى لقائه: اشتاق.

فيكون المعنى: إذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء، سيقصده ليشرب منه؛ لأنه على حد علمه ماء يشرب، فلما انتهى إليه (لم يجده شيئاً)، فكَذَلِكَ الكفار، يعولون على ثواب أعمالهم، فإذا حاسبهم سبحانه وتعالى يوم القيامة عليها لم يجدوا منها شيئاً، كما قال الله تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ الفرقان: ٢٣. كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضاً لا ماء فيها.

تفسير السراب من الناحية العلمية

يعتبر انتشار الضوء على هيئة خطوط مستقيمة، ومتوحدة الخواص إحدى المسلّمات الأساسية في علم البصريّات، حيث ينتشر الضوء بالوسط الشفاف والمتجانس، وموحد الخواص على هيئة خطوط مستقيمة طالما لم يعترضه عائق، ويتميز الوسط البصري بوجود معامل يطلق عليه معامل الانكسار الذي يقيس سرعة الضوء بهذا الوسط، فكلما زاد هذا المعامل كلما كانت سرعة انتشار الضوء بالوسط صغيرة. ويتوقف معامل الانكسار للهواء على كثافته وبالتالي على درجة حرارته، فكلما زادت كثافة الهواء كلما انخفض معامل الانكسار، ويتكون السراب نتيجة لانكسار الضوء في الهواء. و هو يحدث عندما تكون طبقات الهواء القريبة من سطح الأرض أقل كثافة من

طبقات الهواء الأعلى. فعندما تسطع الشمس في أيام الصيف في الصحراء
أعلى الطرق المرصوفة ترتفع درجة حرارة سطح الأرض ، وترتفع درجة
حرارة طبقة الهواء الملامسة والقريبة من سطح الأرض فتتمدد، وتقل
كثافتها وكذلك كثافتها الضوئية ومعامل انكسارها، وبذلك يزداد معامل
انكسار الهواء تدريجيا كلما ارتفعنا إلى أعلى حيث يبرد الهواء.

تعريف ظاهرة السراب :

هي خدعة بصرية (ضوئية) تحدث نتيجة ظروف البيئة المحيطة من اشتداد
درجة الحرارة، والأرض المستوية ، واختلاف في معامل الانكسار، مما
يجعلها في حالة توهج شديد حيث تبدو كالماء الذي يلتصق بالأرض ليعكس
صورا وهمية للأجسام وكأنها منعكسة عن سطح مرآة كبير، وترجع تسمية
السراب عند العرب إلى سرب الماء أي جرى وسار، أما التسمية الإنكليزية
لهذه الظاهرة فتعود إلى كلمة mirage وتعني المرآة باللغة الفرنسية.
و للسراب ثلاثة أنواع :

أولا : السراب السفلي: و منه نوعين :

السراب الصحراوي

يحدث هذا النوع في الصحراء نتيجة الحرارة الشديدة التي تنعكس عن
رمالها مما يجعلها في حالة توهج شديد ليأخذ شكل سطح مائي أمام عين
الناظر (المسافر) فيعكس صوراً عديدة وهمية تمثل انعكاساً للمسافة الممتدة
أمامه، ويفسر ذلك بأن كثافة طبقة الهواء الساخنة القريبة من الأرض تكون
أقل من الطبقات الأعلى منها مما يجعل الضوء المنعكس عن هذه المنطقة
يصاب بدرجة من التقوس ، والانحناء تجعله يرتد عنها إلى أعلى فيبدو لعين
الناظر وكأنه سطح مرآة ينعكس عليه صفحة الماء الهادئ يمتد أمامه إلى
مالا نهاية بسبب شدة الحرارة بدليل أنه كلما اقترب منه ابتعد عنه.

السراب في المدن

يحدث هذا النوع من السراب في المدن وخاصة على الطرق المبلطة ،
والمعبدة بالإسفلت التي تسخن بشدة تحت تأثير أشعة الشمس ، وبفضل

لونها الأسود فيبدو سطح الطريق من بعيد وكأنه مغطى ببركة من المياه ، ويعكس الأجسام البعيدة ، وبذلك يدرك الناظر أن هذه الظاهرة خدعة بصرية ؛ لأنه كلما اقترب منها ابتعدت عنه ، وتبقى المسافة ثابتة بين البركة الخادعة وعينه

ثانيا : السراب الجانبي :

وهو انعكاس لأحد الجدران العمودية الساخنة بتأثير الشمس، وقد أتى على وصفه أحد المؤلفين الفرنسيين حين لاحظ عند اقترابه من سور القلعة أن الجدار المسطح للسور بدأ يلمع فجأة مثل المرآة وقد انعكس فيه المنظر الطبيعي بما فيه الأرض ، والسماء ، وعند اقترابه عدة خطوات إلى الأمام لاحظ نفس التغيير قد طرأ على الجدار الآخر للسور ، وبدأ له وكأن السطح الرمادي غير المنتظم قد تحول إلى سطح لامع ، وكان يوما شديد الحر أدى إلى تسخين الجدار بشدة واختلقت الكثافة بين طبقات الهواء وبالتالي اختلاف معاملات الانكسار، وهذا السبب الفيزيائي لرؤية الجدار يلمع .

السبب الفيزيائي للسراب السفلي و الجانبي :

يكون الهواء بالحالات الثلاث السابقة أسخن بالقرب من الأرض ، ومعامل الانكسار ضعيفاً مما يجعل الضوء يسير بسرعة أكبر، وتنحني أشعة الضوء إلى الأعلى ، لذا نرى انعكاس السماء أو جسم بعيد على الأرض كما لو كان هناك ماء ، وما يحدث في هذه الحالة ليس مجرد انعكاس بل ما يسمى بلغة الفيزياء (الانعكاس الكلي)، ولكي يحدث هذا الانعكاس يجب أن يكون الشعاع الداخل في طبقات الهواء مائلاً أكثر من الميل الذي هو عليه ، وفيما عدا ذلك لا تتكون لديه (الزاوية الحرجة) لسقوط الشعاع التي لا يحدث بدونها انعكاس كلي ، ولكي يحدث هذا الانعكاس يجب أن تكون طبقات الهواء الكثيفة أعلى من الطبقات التي تقل عنها كثافة، وتتحقق هذه الحالة بوجود الهواء المتحرك حيث لا تتحقق بدونه، وعند الاقتراب من السراب تزداد قيمة الزاوية المنحصرة بين الأشعة والأرض فيقل انحناء الأشعة فيختفي الماء الخادع.

ثالثاً: السراب القطبي :

وهو ظاهرة مألوفة لسكان الشواطئ خاصة في المناطق الباردة ، وفيه تبدو الأجسام الموجودة على سطح الأرض وكأنها مقلوبة ومعلقة في السماء. وتحدث هذه الظاهرة عندما تكون طبقات الهواء السفلي باردة ، بينما تهب في الطبقات العليا تيارات ساخنة، وبذلك تقل كثافة طبقات الهواء بزيادة بعدها عن سطح الأرض، وبالتالي تقل معاملات انكسار طبقات الهواء المتتالية صعوداً. لذلك إذا تتبععت شعاعاً ضوئياً صادراً من مركب شراعي تجده ينكسر في طبقات الهواء المتتالية بعداً عن العمود ، ومتخذاً مساراً منحنياً حتى تصبح زاوية سقوطه في إحدى الطبقات أكبر من الزاوية الحرجة لهذه الطبقة بالنسبة للطبقة التي تعلوها ، فينعكس انعكاساً كلياً ليتخذ مساراً منحنياً في الاتجاه المضاد ليصل إلى العين فيبدو المركب معلق في الهواء وهو مقلوب.

تفسير حدوث السراب القطبي :

عندما تكون طبقات الهواء السفلي باردة ، وطبقات الهواء العليا دافئة، فإنه كلما ارتفعنا إلى أعلى تقل كثافة الهواء؛ وبالتالي تقل معاملات الانكسار لطبقات الهواء المتتالية.

الشعاع الصادر من مركب شراعي ينتقل من طبقة معامل انكسارها كبير إلى طبقة أخرى معامل انكسارها صغير؛ لذا ينكسر الشعاع مبتعداً عن العمود المقام على الحد الفاصل .

يستمر انكسار الأشعة الضوئية بين طبقات الهواء المتتالية مبتعدة عن العمود المقام حتى تصبح زاوية السقوط في إحدى الطبقات أكبر من الزاوية الحرجة لهذه الطبقة بالنسبة للطبقة التي تليها ، فينعكس الشعاع انعكاساً كلياً داخلياً متخذاً مساراً منحنياً إلى أسفل. عندما يصل الشعاع إلى العين ثرى صورة المركب على امتداد الشعاع فتبدو الصورة مقلوبة، وكأنها معلقة في السماء.

وجه الإعجاز العلمي في ضرب المثل بالسراب:

عبر القرآن الكريم عن ظاهرة السراب تعبيراً رائعاً ، ووصفاً علمياً دقيقاً يضاهي تعريف العلماء ، وأصحاب الاختصاص ، كما جاء وصفها أيضاً بكلام نبيه المصطفى عليه صلوات الله وسلامه بالحديث الشريف، وقبل شرح أوجه الإعجاز دعونا نتذكر صفات السراب لنبين الإيجاز في تعبير آيات القرآن الكريم ، والوصف العلمي الدقيق لها:

١. المكان المناسب لحدوثها.

٢. اشتداد الحرارة.

٣. السراب يشبه سطح الماء.

٤. وجود الهواء المتحرك.

٥. كلما اقتربنا منه ابتعد عنا،(ثبات المسافة بين عين الناظر والسراب)
قال تعالى﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَاءَ حِسَابِهِ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾
النور ٣٩

في قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ فهذا يعني أن السراب لا يحدث إلا في الأرض القيعية ، والتي تعني الأرض المستوية ، أو ما انبسط من الأرض ، ولا يتكون السراب إلا بوجود هذا المكان الخاص . والكفار ليسوا فقط من أهل الصحراء الذين ألفوا السراب وعرفوه، بل هم في كل مكان مأهول، فمنهم من يعيش في المدن ذات الطرقات المرصوفة والأبنية الشاهقة، ومنهم من يعيش في المناطق الساحلية، وهنا يكمن إعجاز القرآن الكريم في أن السراب يحدث في كل الأماكن التي تكون فيها الأرض منبسطة ومستوية، وهذه المعلومات عن أنواع السراب سابقة الذكر لم تكن معروفة في زمن الرسول الكريم ﷺ لأنها اقتصرَت على السراب الصحراوي. وفي قوله تعالى ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً﴾ أما الظمان فهو ما اشتد عطشه ، ويصبح كذلك تحت ظروف الجو الحار، وهذا يدل على الشرط الثاني.

والإعجاز المبهر والذي لا جدال فيه عند أصحاب الاختصاص، تشبيه السراب بالماء، وليس بالمرآة مثلما قال العلماء الغربيون ، فشتان ما بين الانعكاس عن سطح الماء وسطح المرآة؛ لأن حادثة السراب لا تحدث إلا

بوجود الهواء المتحرك (تيارات الحمل)، فتظهر طبقات الهواء متموجة مثل الماء، وهذا هو الشرط الثالث والرابع. والمعادلة الفيزيائية لظاهرة السراب تكمن بقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ۖ نَسْتَنْبِطُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الرِّبَانِيَّةُ أَنَّهُ كَلِمَا اقْتَرَبْنَا مِنَ السَّرَابِ ابْتَعَدْنَا ، وبالتالي فإن المسافة بين عين الناظر والسراب ثابتة ، وهذا هو الشرط الخامس.

وجه الإعجاز البياني في آية السراب:

وهو تمثيل يصور أعمال الذين كفروا في بطلانها، وعدم انتفاعهم بها، عند موقف هم في أشد الحاجة إلى هذه الأعمال، بصورة السراب، الذي يحسبه الظمان ماء، فيتعلق به قلبه، ويسعى إليه جاهداً يطلبه بكل ما أوتي من قوة، وكلما اقترب منه رآه يبتعد عنه، ويستمر على هذا الحال إلى أن تخور قواه، فبالرغم من هذا الجهد المتواصل، والمعاناة الشاقة، يصل إلى المكان الذي كان يخيّل له أنه ماء، فلا يجد شيئاً، لتغلي مراجل ظمئه، ويشتد بأسه وقنوطه، ويكون هلاكه فيه. أنتهي^(٥٠)

أما عن المثل الثاني { كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ }

يرى العلماء أن أسباب وجود هذه الظلمات في البحار اللجية ترجع في الحقيقة إلى سببين رئيسين:

أما السبب الأول فهو العمق. فإن الجزء المرئي من أشعة الشمس، الذي ينفذ إلى كتل الماء في البحار والمحيطات، يتعرض لعمليات كثيرة من الانكسار، والتحلل إلى الأطياف المختلفة، والامتصاص بواسطة كل من جزيئات الماء، وجزيئات الأملاح المذابة فيه، وبواسطة المواد الصلبة العالقة به، وبما يحيا فيه من مختلف صور الأحياء، وبما تفرزه تلك الأحياء من مواد عضوية؛ ولذلك يضعف الضوء المار في الماء بالتدريج مع العمق.

والطيف الأحمر هو أول ما يمتص من أطياف الضوء الأبيض. ويتم امتصاصه بالكامل على عمق، لا يكاد يتجاوز العشرين متراً. فلو أن خواصاً

^{٥٠} من أبحاث المؤتمر العاشر للإعجاز العلمي بتركيا (١١- ١٣ مارس ٢٠١٩)، و الذي تم تحت إشراف الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن و السنة.

جرح، وهو يغوص في ماء البحر، فإن الدم، الذي يخرج منه يكون أسوداً؛ لأن اللون الأحمر ينعدم تماماً، ويصبح هناك ظلمة اللون الأحمر. ويليه الطيف البرتقالي، الذي يتم امتصاصه على عمق ثلاثين متراً. ثم يليه الطيف الأصفر، الذي يتم امتصاصه زرق اللون، لتشتت هذا الطيف من أطراف الضوء الأبيض في المائتي متر العليا من تلك الكتل المائية.

وبذلك فإن معظم موجات الضوء المرئي تمتص على عمق مائة متر تقريباً من مستوي سطح الماء في البحار والمحيطات، ويستمر ١% منها إلى عمق مائة وخمسين متراً، و ٠,١% إلى عمق مائتي متر في الماء الصافي الخالي من العوالق.

وعلى الرغم من السرعة الفائقة للضوء، فإنه لا يستطيع أن يستمر في ماء البحار والمحيطات لعمق يزيد على الألف متر، فبعد مائتي متر من أسطح تلك الأوساط المائية يبدأ الإظلام شبه الكامل؛ حيث لا ينفذ بعد هذا العمق سوى أقل من ٠,١% من ضوء الشمس، ويظل هذا القدر الضئيل من الضوء المرئي يتعرض للانكسار والتشتت والامتصاص حتى يتلاشى تماماً على عمق، لا يكاد يصل إلى كيلومتر واحد تحت مستوى سطح البحر؛ حيث لا يبقى من أشعة الشمس الساقطة على ذلك السطح سوى واحد من عشرة تريليون جزء منها. ثم تغرق أعماق تلك البحار والمحيطات بعد ذلك في ظلام دامس.

وأما السبب الثاني فهو الحواجز من الموج الداخلي، والموج الخارجي، والسحاب. فهذه كلها حواجز، تمنع مرور الشعاع الضوئي إلى الأسفل.

والموج الداخلي هو الذي يعلو البحر اللجّي ويغطيه، ويعكس معظم ما بقي من الأشعة الشمسية الساقطة على أسطح البحار والمحيطات، ويحول دون الوصول إلى أعماقها. وبذلك يكون السبب الرئيس في إحداث الإظلام التام فوق قيعان البحار اللجية. ويتكون هذا الموج الداخلي عند الحدود الفاصلة بين كل كتلتين مائيتين مختلفتين في الكثافة. ويبدأ تكونه على عمق أربعين متراً تقريباً من مستوى سطح الماء في المحيطات؛ حيث تبدأ صفات الماء فجأة في التغير من حيث كثافتها ودرجة حرارتها، وقد تتكرر على أعماق أخرى، كلما تكرر التباين بين كتل الماء في الكثافة.

ومن فوق هذا الموج الداخلي موج آخر، يسمّى بالموج السطحي، الذي يعدُّ أحد العوائق أمام مرور الأشعة الشمسية. وبذلك يعد أحد الأسباب في إحداث ظلمة تلك الأعماق، بالإضافة إلى تحلل تلك الأشعة إلى أطيافها، وامتصاصها بالتدرّج في الماء.

ومن فوق هذا الموج السطحي يأتي السحاب، الذي يمتص حوالي تسعة عشر جزءاً بالمائة من الأشعة الشمسية المارة من خلاله. ويحجب بالانعكاس والتشتيت نحو ثلاثين جزءاً بالمائة منها، فيحدث قدرًا من الظلمة النسبية، التي تحتاجها الحياة على سطح الأرض. وبذلك تجتمع ظلمة الموج الداخلي، وظلمة الموج السطحي، وظلمة السحاب مع ظلمات الأطياف السبعة، التي يحدثها امتصاص الماء لتلك الأطياف.

والله سبحانه عندما يصف هذه الظلمات، ينسبها إلى عمق البحر اللجي: ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾. ثم يقول سبحانه: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، وكأنه يقول لنا: هذه الظلمات الكثيفة المترابطة سببها الأعماق، وسببها الحواجز. ومن المعروف أن لفظ ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ من جموع القلة. وجمع القلة من ثلاثة إلى عشرة. فأنت تقول: ظلمة، وظلمتان، وثلاث ظلمات إلى عشر ظلمات. والظلمات التي نتحدث عنها الآية الكريمة هي عشر ظلمات: سبع منها للألوان، وثلاث للحواجز (الأمواج الداخلية، والأمواج السطحية، والسحاب).

ثم يختم الله تبارك وتعالى الآية الكريمة بهذه الحقيقة المعنوية الكبرى، فيقول سبحانه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾. ثم تفاجئنا البحوث العلمية أخيراً بواقع مادي ملموس لهذه الحقيقة المعنوية، فقد كان العلماء إلى عهد قريب جداً لا يتصورون إمكانية وجود حياة في أغوار المحيطات العميقة، للظلمة التامة فيها، وللبرودة الشديدة لمانها، وللضغوط الهائلة الواقعة عليها، وللملوحة المرتفعة أحياناً لذلك الماء؛ ولكن بعد تطوير غَوَاصات خاصة لدراسة تلك الأعماق، فوجيء دارسو الأحياء البحرية بوجود بلايين الكائنات الحيّة، التي تنتشر في تلك الظلمة الحالكة، وقد زودها خالقها بوسائل إنارة ذاتية في صميم بنائها الجسدي تعرف باسم الإنارة الحيوية.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: من غير الله الخالق يمكنه أن يعطي كل نوع من أنواع تلك الأحياء البحرية العميقة، هذا النور الذاتي؟ وهنا يتضح البعد المادي الملموس لهذا النص القرآني المعجز، كما يتضح بعده المعنوي الرفيع {وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ}.

الباب الثاني

طاعة رسول الله ﷺ والوعد بالتمكين

الفصل الأول : وإن تطيعوه تهتدوا

الفصل الثاني : الأدب مع رسول الله ﷺ

الفصل الثالث : الوعد بالتمكين

الفصل الأول

وإن تطيعوه تهتدوا

تعرية المنافقين ، ووصف أحوالهم ، أحد الموضوعات الرئيسية في كتاب الله عز وجل ، وقد بين الله تعالى تقلباتهم ، ومكرهم في كل المواقف ، وقد جاءت آيات كثيرة تثني على الصحابة وتزكيهم ، وتذم المنافقين وتعريهم ، مع بيان صفاتهم وحقيقة أفعالهم.

والقرآن ذكر المؤمنين والمنافقين في غير موضع، وَذَكَرَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ يَدُلُّ عَلَى التَّغَايُرِ بَيْنَهُمَا وَالتَّمَايُزِ، كما قال سبحانه: {وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ} [التوبة: ٥٦] الآية.

كما ذكر المنافقين تصريحاً بالإسم أو بالفعل في سبع وعشرين آية ، منها آية في آل عمران ، وست آيات في النساء ، وآية في الأنفال ، وست آيات في التوبة ، وآية في العنكبوت ، وست آيات في الأحزاب ، وآية في الفتح ، وآية في الحديد ، وآية في الحشر ، وثلاث آيات في المنافقون ، وآية في التحريم .

وذكر القرآن الكريم المنافقين بالوصف دون تصريح في مواضع كثيرة لا يتسع المقام لحصرها ، أهمها في سورة البقرة ، والمائدة ، والقتال "محمد" ، والسورة التي بين أيدينا "النور" ؛ بل عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقين.

فبيّن سبحانه وتعالى أن المنافقين يخلفون بأنهم من الصحابة رضي الله عنهم، ثم أخبر بأنهم ليسوا منهم.. فلكل طائفة صفاتها وخصائصها وما يميزها عن غيرها: {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ١٤١].

وقد حصل للصحابة الذين صحبوا النبي ﷺ من التزكية والعلم ما شهد به رب العالمين، فقال جل شأنه: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢].

فبيّن أنهم كانوا في ضلال مبين، ثم حصلت لهم التزكية والعلم بالكتاب والسنة بسبب صحبتهم لرسول الله ﷺ وتلقيهم منه مباشرة آيات الكتاب عند نزولها وسنته العملية والقوليه في تطبيقها وفهمها .

والله سبحانه وتعالى يعلم المؤمنين من المنافقين ولا تخفى عليه سبحانه وتعالى منهم خافية، ولكنه سبحانه لم يعلم نبيه بكل من لم يظهر نفاقه؛ بل قال: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ} [التوبة: ١٠١]، ثم إنه ابتلى الناس بأمر تميز بين المؤمنين والمنافقين، كما قال سبحانه: {وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت: ١١]، وقال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [آل عمران: ١٧٩] ^(٤٦) وللمنافقين صفات رئيسية بارزة تميزهم عن المؤمنين توالي ذكرها في الآيات المشار إليها ، منها :

- تخلفهم وتهربهم الدائم عن الجهاد في سبيل الله والبحث الدائم عن أعذار لعدم الخروج للجهاد.
 - ومن صفاتهم السعي في تفريق صف المسلمين بأي وسيلة ممكنة ، كأتخاذهم مسجدا ضاررا في المدينة .
 - ومن صفاتهم التكاثر عن الصلاة ولا يذكرون الله إلا قليلا .
 - ومن أهم صفاتهم التظاهر بالإيمان وبطاعة الله ورسوله ، وهم يبيطنون الكفر وكراهية الإسلام وأهله.
- وهذه الصفة هي ماتضمنته الآيات التي بين أيدينا من سورة النور

⁴⁶ الصارم المسلول على شاتم الرسول: (٣٧/١)، بتصرف يسير.

صفات المنافقين

يقول الله تعالى { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) }

في هذه الآيات يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بالسننهم: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}.

وقوله: {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ} أي: إذا طلبوا إلى اتباع الهدى، فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه. وهذه كقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [النساء: ٦٠، ٦١].

وقوله: {وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ} ، أي: وإذا كانت القوة والغلبة لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله: {مُذْعِنِينَ} وإذا كانت الغلبة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكموا إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم ليروج باطله ثم. فإدعائه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه؛ ولهذا لما خالف الحق قصده، عدل عنه إلى غيره؛ ولهذا قال تعالى: {أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ} يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو

يَخَافُونَ أَنْ يَجُورَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْحُكْمِ. وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كُفْرٌ مَحْضٌ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ مِنْهُمْ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مُنْطَوٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

وما زال بين المسلمين من يستهويه منهج المنافقين ، عندما يكون له حق تجده يبدي خشوعا وخضوعا وإستحضارا لآيات القرآن ولأحاديث الرسول ﷺ في المطالبة بحقه إن كان الحق له ، وتجده معاندا ومعرضا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إن يكن الحق عليه.

وَقَوْلُهُ: {بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} أَي: بَلْ هُمُ الظَّالِمُونَ الْفَاجِرُونَ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ مُبْرَأَانِ مِمَّا يَظُنُّونَ وَيَتَوَهَّمُونَ مِنَ الْحَيْفِ وَالْجَوْرِ، تَعَالَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، الَّذِينَ لَا يَبْغُونَ دِينًا سِوَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَقَالَ: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} أَي: سَمِعْنَا وَطَاعَةً؛ وَلِهَذَا وَصَفَهُمْ تَعَالَى بِفَلَاحٍ، وَهُوَ نَيْلُ الْمَطْلُوبِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْمَرْهُوبِ، فَقَالَ: {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ، يقول ابن كثير [وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: {أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} ذَكَرْنَا أَنَّ عِبَادَةَ بَنِ الصَّامِتِ -وَكَانَ عَقَبِيًّا بِذُرِّيًّا، أَحَدَ نُقَبَاءِ الْأَنْصَارِ- أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِابْنِ أَخِيهِ جُنَادَةَ بَنِ أَبِي أُمَيَّةَ: أَلَا أُتَيْتُكَ بِمَاذَا عَلَيْكَ وَمَاذَا لَكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ، فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةَ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُقِيمَ لِسَانَكَ بِالْعَدْلِ، وَالْأَلَا تَنَازَعَ الْأَمْرَ أَهْلُهُ، إِلَّا أَنْ يَأْمُرُوكَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ بِوَاحِدٍ، فَمَا أُمِرْتُ بِهِ مِنْ شَيْءٍ يَخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ، فَاتَّبِعْ كِتَابَ اللَّهِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: وَذَكَرْنَا أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ قَالَ: لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا فِي جَمَاعَةٍ، وَالنَّصِيحَةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْخَلِيفَةِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ عَامَةً. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالْأَحَادِيثُ وَالْأَثَارُ فِي وَجُوبِ الطَّاعَةِ لِكِتَابِ اللَّهِ [وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَلِلْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَالْأَنْمَةِ إِذَا أَمَرُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ] كَثِيرَةٌ جَدًّا، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ فِي هَذَا الْمَكَانِ.] إنتهي (٤٧)

وَقَوْلُهُ {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} أَي: فِيمَا أَمَرَاهُ بِهِ وَتَرَكَ وَمَا نَهَاهُ عَنْهُ، {وَيَخْشِ اللَّهَ} فِيمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ، {وَيَتَّقِهِ} فِيمَا يَسْتَقْبِلُ.

^{٤٧} تفسير ابن كثير ص ٧٦ - المكتبة الشاملة الحديثة

وَقَوْلُهُ {فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِرُونَ} : الَّذِينَ فَازُوا بِكُلِّ خَيْرٍ، وَأَمِنُوا مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقد قيل أن هذه الآيات نزلت في أحد المنافقين ، وكانت له خصومة مع يهودي، فطلب اليهودي أن يتحاكما عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وطلب المنافق أن يتحاكما عند كعب بن الأشرف، لكن رَدَّ اليهودي حكومة كعب لما يعلمه من تزييفه وعدم أمانته والإنسان وإن كان في نفسه مُزَيِّفًا إلا أنه يحب أن يحتكم في أمره إلى الأمين العادل وفعلًا تغلب اليهودي وذهب إلى رسول الله فحكم لليهودي، لكن المنافق لم يَرْضَ حكم رسول الله، وانتهى بهما الأمر إلى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَصَّ عليه ما كان، ولما علم أن المنافق رَدَّ حكم رسول الله قام عمر وجاء بالسيف يُشَنِّره في وجه المنافق وهو يقول: مَنْ لَمْ يَرْضَ بقضاء رسول الله فذلك قضائي فيه. وبعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة شكل من أشكال النفاق وهو رفض حكم رسول الله ﷺ ، يذكر في الآيات التالية شكلا آخر من أشكال النفاق.

يقول تعالى في الآيات من سورة النور {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَكُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) } في هذه الآيات يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ النِّفَاقِ، الَّذِينَ كَانُوا يَخْلِفُونَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَئِنْ أَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ لَخَرُجُوا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ لَا تُقْسِمُوا} أَي: لَا تَخْلِفُوا.

وَقَوْلُهُ: {طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ} قِيلَ: مَعْنَاهُ طَاعَتُكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً، أَي: قَدْ عَلِمْتَ طَاعَتَكُمْ، وَأَصْبَحَ أَمْرُكُمْ مَكْشُوفًا إِنَّمَا هِيَ قَوْلٌ بَلَا فِعْلٍ مَعَهُ، وَكُلَّمَا حَلَفْتُمْ كَذَبْتُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التَّوْبَةِ: ٩٦] ، وَقَالَ تَعَالَى: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الْمُنَافِقُونَ: ٢] ، فَهُمْ مِنْ سَجِيَّتِهِمُ الْكَذِبَ حَتَّى فِيَمَا يَخْتَارُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

لَنْ أُخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَنْ نَنْصُرَهُمْ لِيُؤْتُوا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ} [الحشر: ١١، ١٢]
 وَقِيلَ: الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: {طَاعَةً مَعْرُوفَةً} أَي: لِيَكُنْ أَمْرُكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً،
 أَي: بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ حَلْفٍ وَلَا إِفْسَامٍ، كَمَا يُطِيعُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الْمُؤْمِنُونَ
 بَعِيرٍ حَلْفٍ، فَكُونُوا أَنْتُمْ مِثْلَهُمْ. أَي طاعة رسول الله ﷺ أمراً طبيعياً لدي
 الطائعين لا يحتاج إلى قسم أو تأكيد.

يقول البقاعي [ثم علل ذلك بقوله: {طاعة} أي هذه الحقيقة معروفة منكم
 ومن غيركم، وإرادة الحقيقة هو الذي سوغ الابتداء بها مع تنكير لفظها لأن
 العموم الذي تصلح له كما قالوا من أعرف المعارف، ولم تعرف ب «ال»
 لنلا يظن أنها لعهد ذكري أو نحوه، والمعنى أن الطاعة وإن اجتهد العبد في
 إخفائها لا بد أن تظهر مخايلها على شمانله، وكذا المعصية لأنه «ما أسر
 عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها» رواه الطبراني عن جندب رضي الله عنه،
 وروى مسدد عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: لو أن رجلاً دخل بيتاً
 في جوف بيت فادمن هناك عملاً أو شك الناس أن يتحدثوا به، وما من عامل
 عمل عملاً إلا كساه الله رداء عمله، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.]
 (٤٨)

وَقَوْلُهُ: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} كَقَوْلِهِ: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
 وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: ٤٠] ، وَقَوْلُهُ {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ
 بِمُسَيِّرٍ} [الغاشية: ٢١، ٢٢].

وقد ذكر الحافظ بن كثير بعضاً من صفات النبي ﷺ كما وردت في رواية
 لوهب بن منبه فقال [وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيٍِّّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ -يُقَالُ لَهُ: شُعَيْبٌ- أَنْ قُمْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنِّي سَأُطْلِقُ لِسَانَكَ
 بِوَحْيٍ. فَقَامَ فَقَالَ: يَا سَمَاءُ اسْمَعِي، وَيَا أَرْضُ انصُتِي، فَإِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ
 يَقْضِيَ شَأْنًا وَيُدَبِّرَ أَمْرًا هُوَ مُنْقِذُهُ، إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُحَوِّلَ الرِّيفَ إِلَى الْفَلَاةِ،

وَالْأَجَامَ فِي الْغِيْطَانِ، وَالْأَنْهَارَ فِي الصَّحَارِي، وَالنِّعْمَةَ فِي الْفُقَرَاءِ، وَالْمُلْكَ فِي الرِّعَاةِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ أَمِيًّا مِنَ الْأُمِّيِّينَ، لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيْظٍ وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، لَوْ يَمُرُّ إِلَى جَنْبِ السِّرَاجِ لَمْ يُطْفِئْهُ مِنْ سَكِينَتِهِ، وَلَوْ يَمْشِي عَلَى الْقَصَبِ الْيَابِسِ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ. أَبْعَثَهُ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لَا يَقُولُ الْخَنَا، أَفْتَحْ بِهِ أَغْنِنَا عُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَأَسَدَدَهُ لِكُلِّ أَمْرٍ جَمِيلٍ، وَأَهَبَ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ كَرِيمٍ، وَأَجْعَلَ السَّكِينَةَ لِبَاسِهِ، وَالْبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالْحِكْمَةَ مَنْطِقَهُ، وَالصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالْعَفْوَ وَالْمَعْرُوفَ خُلُقَهُ، وَالْحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالْعَدْلَ سِيرَتَهُ، وَالْهُدَى إِمَامَهُ، وَالْإِسْلَامَ مِلَّتَهُ، وَأَحْمَدَ اسْمَهُ، أَهْدَى بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ، وَأَعْلَمَ بِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ، وَارْفَعَ بِهِ بَعْدَ الْخَمَالَةِ، وَأَعْرَفَ بِهِ بَعْدَ النُّكْرَةِ، وَأَكْثَرَ بِهِ بَعْدَ الْقِلَّةِ وَأَغْنَى بِهِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ، وَأَجْمَعَ بِهِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ، وَأَوَلَّفَ بِهِ بَيْنَ أُمَّمٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَقُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَهْوَاءٍ مُتَشَتِّتَةٍ، وَأَسْتَنْقَذَ بِهِ فِنَاءًا مِنَ النَّاسِ عَظِيمًا مِنَ الْهَلَكَةِ، وَأَجْعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، مُؤَحِّدِينَ مُؤْمِنِينَ مُخْلِصِينَ، مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلِي. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٤٩). [(٥٠)

ونلاحظ في هذه الآية تكرار الأمر أطيعوا {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النور: ٥٤] وفي آيات أخرى يأتي الأمر مرة واحدة، كما في الآية السابقة: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [النور: ٥٢] ، وفي {أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال: ٢٠] وفي {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: ٨٠] أي: أن طاعتها واحدة وذلك لأن القرآن ليس كتاب أحكام فحسب كالكتب السابقة ، وإنما هو كتاب إعجاز ، والأصل فيه أنه معجز

{إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} أي: هُوَ خَبِيرٌ بِكُمْ وَبِمَنْ يُطِيعُ مِمَّنْ يَعَصِي، فَالْحَلْفُ وَإِظْهَارُ الطَّاعَةِ -وَالْبَاطِنُ بِخِلَافِهِ، وَإِنْ رَاجَ عَلَى الْمَخْلُوقِ فَالْخَالِقُ، تَعَالَى، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، لَا يَزُوجُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التَّدْلِيسِ، بَلْ هُوَ خَبِيرٌ بِضَمَائِرِ عِبَادِهِ، وَإِنْ أَظْهَرُوا خِلَافَهَا. كما في قوله تعالى في سورة البقرة {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} (٩) وفي سورة النساء {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى

^{٤٩} وروي عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار كما في الشفا للقاضي عياض (١٥/١)

^{٥٠} تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٧٧ - المكتبة الشاملة الحديثة

الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أَي: اتَّبِعُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي: تَتَوَلَّوْا عَنْهُ وَتَتْرَكُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أَي: إِبْلَاجُ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أَي: مِنْ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ وَالْفِيَامَ بِمُقْتَضَاهُ، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشُّورَى: ٥٣]

ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام، وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه في الحديث الشريف، وجعل له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقاً في التشريع بنص القرآن: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] .

والقرآن حين يُورد الأحكام يوردها إجمالاً ثم يُفصِّلها رسول الله ﷺ ، فالصلاة مثلاً أمر بها الحق تبارك وتعالى وفرضها، لكن تفصيلها جاء في السنة النبوية المطهرة، فإن أردت التفصيل فانظر في السنة.

وللشيخ الشعراوي عليه رحمة الله رأي معتبر في إقتران طاعة رسول الله ﷺ بطاعة الله تعالى فيقول [فالأمر الذي يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسول الله، كالصلاة مثلاً: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾] [النساء: ١٠٣] ، أما في مسائل عدد الركعات وما يُقَالُ في كل ركعة وكونها سراً أو جهراً، كلها مسائل بيّنها رسول الله. إذن: فهناك طاعة لله في إجمال التشريع أن الصلاة مفروضة، وهناك طاعة خاصة بالرسول في تفصيل هذا التشريع، لذلك يأتي الأمر مرتين {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النور: ٥٤]. كما نلاحظ في القرآن: {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النور: ٥٦] هكذا فحسب. قالوا: هذه في المسائل التي لم يرد فيها تشريع ونص، فالرسول في هذه الحالة هو المشرع، وهذه من مميزات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جميع الرسل، فقد جاءوا جميعاً لاستقبال التشريع وتبليغه للناس، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الوحيد الذي فُوض من الله في التشريع. [٥١]

[والطاعة هي موافقة الأمر بفعل الأوامر وإجتنب النواهي ، وتكرار الأمر {وَأَطِيعُوا} يدل علي أن لرسول الله ﷺ طاعة مستقلة ، وأن ما جاء عن رسول الله ﷺ كالذي جاء منه عن الله ﷻ ، ولهذا قال العلماء أن ماوجب في سنة رسول الله ﷺ كالذي وجب في القرآن من أمر ونهي] (٥٢)

وفي قوله تعالى {وَأِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} في هذا إشارة إلي ماسبق من أن ما جاءت به السنة فهو حكم مستقل يجب أن يطاع ويتبع كالذي جاء به القرآن . وقوله {تَهْتَدُوا} دليل علي أن الهداية مطلوبة من طاعة رسول الله ﷺ ، ودليل علي أنه لايجوز عدم العمل بما جاءت به السنة باعتبار أنه لا يوجد في القرآن فهذا الإعتقاد فيه كفر بالقرآن نفسه ، وهذا من أوضح الأدلة للرد علي من يطلقون علي أنفسهم القرآنيين .

⁵² تفسير القرآن الكريم لإبن عثيمين - تفسير سورة النور

الفصل الثاني

الأدب مع رسول الله ﷺ

الفرق بين المؤمن والمنافق

آيتين في سورة النور لتعليم المؤمن الأدب مع رسوله ﷺ يقول الله تعالى في الآية الأولى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) }.

جَرَى الْكَلَامُ السَّابِقُ لِهَذِهِ الْآيَةِ فِي شَأْنِ الاسْتِئْذَانِ لِلدُّخُولِ عَقِبَ ذَلِكَ بِحُكْمِ الاسْتِئْذَانِ لِلْخُرُوجِ وَمُفَارَقَةِ الْمَجَامِعِ فَأَعْتَنِي مِنْ ذَلِكَ بِالْوَاجِبِ مِنْهُ وَهُوَ اسْتِئْذَانُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مُفَارَقَةِ مَجْلِسِهِ أَوْ مُفَارَقَةِ جَمْعٍ جُمِعَ عَنْ إِذْنِهِ لِأَمْرِ مُهِمٍّ كَالشُّورَى وَالْقِتَالِ وَالْاجْتِمَاعِ لِلْوَعظِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَكَانَ مِنْ أَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ أَنْ يَحْضُرُوا هَذِهِ الْمَجَامِعَ ثُمَّ يَتَسَلَّلُوا مِنْهَا تَفَادِيًا مِنْ عَمَلٍ يَشُقُّ أَوْ سَامَةً مِنْ سَمَاعٍ كَلَامٍ لَا يَهْتَبِلُونَ بِهِ، فَنَعَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِعْلَهُمْ هَذَا وَأَعْلَمَ بِمُنَافَاتِهِ لِلْإِيمَانِ وَأَنَّهُ شِعَارُ النِّفَاقِ. بَأَنْ أَعْرَضَ عَنْ وَصْفِ نِفَاقِ الْمُنَافِقِينَ وَاعْتَنَى بِاتِّصَافِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَحْقَاءِ بِضِدِّ صِفَةِ الْمُنَافِقِينَ قَالَ تَعَالَى: وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ [التَّوْبَةُ: ١٢٧] وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي أَوَاخِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ قَوْلُهُ: { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا } [النور: ٦٣].

يقول ابن عاشور [فَالْقَصْرُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ (إِنَّمَا) قَصْرٌ مُوصُوفٌ عَلَى صِفَةٍ. وَالتَّعْرِيفُ فِي الْمُؤْمِنُونَ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ أَوْ الْعَهْدِ، أَيِ إِنْ جِنْسُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ إِنْ الَّذِينَ عُرِفُوا بِوَصْفِ الْإِيمَانِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَنْصَرَفُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ. فَالْخَبَرُ هُوَ مَجْمُوعُ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ وَهُوَ قَصْرٌ إِضَافِيٌّ قَصْرُ إِفْرَادٍ، أَيِ لَا غَيْرَ أَصْحَابِ هَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ الرَّسُولَ عِنْدَ إِرَادَةِ الْإِنْصِرَافِ، فَجُعِلَ هَذَا الْوَصْفُ عَلَامَةً مُمَيِّزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ الْأَحْقَاءِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ يَوْمَئِذٍ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمُؤْمِنِينَ الْأَحْقَاءِ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَنْصَرِفُ عَنْ مَجْلِسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدُونِ إِذْنِهِ، فَالْمَقْصُودُ: إِظْهَارُ عَلَامَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَمْيِيزُهُمْ عَنْ عَلَامَةِ الْمُنَافِقِينَ.

فَلَيْسَ سِيَاقُ الْآيَةِ لِبَيَانِ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ لِأَنَّ لِلْإِيمَانِ حَقِيقَةً مَعْلُومَةً لَيْسَ اسْتِئْذَانُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ إِرَادَةِ الذَّهَابِ مِنْ أَرْكَانِيهَا، فَعَلِمْتُ أَنَّ

لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْحَصْرِ سَلْبُ الْإِيمَانِ عَنِ الَّذِي يَنْصَرِفُ دُونَ إِذْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْأَحْقَاءِ لَوْ وَقَعَ مِنْهُ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِ قَصْدِ الْخَذْلِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ آدَاهُ، إِذْ لَا يَعْدُو ذَلِكَ لَوْ فَعَلَهُ أَحَدُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَكُونَ تَقْصِيرًا فِي الْأَدَبِ يَسْتَحِقُّ التَّأْدِيبَ وَالتَّنْبِيهَ عَلَى تَجَنُّبِ ذَلِكَ لِأَنَّهُ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ كَمَا وَرَدَ التَّحْذِيرُ مِنْ خِصَالِ النِّفَاقِ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ مِنْ نِظَامِ الْجَمَاعَاتِ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ لِأَنَّ مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ إِمَامٌ وَرَأْسٌ يُدِيرُ أَمْرَ ذَلِكَ الْجَمَاعَةِ. وَقَدْ أَشَارَتْ مَشْرُوعِيَّةُ الْإِمَامَةِ إِلَى ذَلِكَ النِّظَامِ. وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ لَا يَجْتَمِعَ جَمَاعَةٌ إِلَّا أَمَرُوا عَلَيْهِمْ أَمِيرًا فَالَّذِي يَتَرَأَسُ الْجَمْعَ هُوَ قَائِمٌ مَقَامَ وَلِيِّ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ فِي مَقَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَنْصَرِفُ أَحَدٌ عَنِ اجْتِمَاعِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُ، لِأَنَّهُ لَوْ جَعَلَ أَمْرَ الْإِنْسِلَالِ لَشَهْوَةِ الْحَاضِرِ لَكَانَ ذَرِيعَةً لَانْفِصَاضِ الْجَمَاعَاتِ دُونَ حُصُولِ الْفَائِدَةِ الَّتِي جُمِعَتْ لِأَجْلِهَا، وَكَذَلِكَ الْأَدَبُ أَيْضًا فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجَمْعِ عِنْدَ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ كاجْتِمَاعِ الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ وَالْقَضَائِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ أَوْ التَّخَلُّفِ عَنْ مِيقَاتِ الْجَمْعِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ إِلَّا لِعُذْرٍ وَاسْتِثْنَاءٍ. [انتهى (٥٣)]

يقول القرطبي ["] إِنَّمَا " فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْحَصْرِ، الْمَعْنَى: لَا يَتِمُّ وَلَا يَكْمُلُ إِيْمَانُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ مِنَ الرَّسُولِ سَامِعًا غَيْرَ مُعْتَبٍ فِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ يُرِيدُ إِكْمَالَ أَمْرٍ فَيُرِيدُ هُوَ إِفْسَادَهُ بِزَوَالِهِ فِي وَقْتِ الْجَمْعِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَبَيَّنَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ السُّورَةِ أَنَّهُ أَنْزَلَ آيَاتِ بَيِّنَاتٍ، وَإِنَّمَا النَّزُولُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَتَمَ السُّورَةَ بِتَأْكِيدِ الْأَمْرِ فِي مُتَابَعَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِيُعْلَمَ أَنَّ أَوَامِرَهُ كَأَوَامِرِ الْفُرَّانِ.

الثَّانِيَّةُ - وَاخْتَلَفَ فِي الْأَمْرِ الْجَامِعِ مَا هُوَ، فَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ مَا لِلْإِمَامِ مِنْ حَاجَةٍ إِلَى تَجْمَعِ النَّاسِ فِيهِ لِإِدَاعَةِ مَصْلَحَةٍ، مِنْ إِقَامَةِ سُنَّةٍ فِي الدِّينِ، أَوْ لِنَرْهَبِ عَدُوٍّ بِاجْتِمَاعِهِمْ وَلِلْحُرُوبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ } [آل عمران: ١٥٩]. فَإِذَا كَانَ أَمْرٌ يَشْمَلُهُمْ نَفْعُهُ وَضَرُّهُ جَمَعَهُمْ لِلتَّشَاوُرِ فِي ذَلِكَ. وَالْإِمَامُ الَّذِي يَتَرَقَّبُ إِذْنُهُ هُوَ إِمَامُ الْأَمْرِ، فَلَا يَذْهَبُ أَحَدٌ لِعُذْرٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا ذَهَبَ بِإِذْنِهِ ارْتَفَعَ عَنْهُ الظَّنُّ السَّيِّئُ. وَقَالَ مَكْهُولٌ وَالزُّهْرِيُّ: الْجُمُعَةُ مِنْ

الْأَمْرُ الْجَامِعُ، وَإِمَامُ الصَّلَاةِ يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَأْذَنَ إِذَا قَدَّمَهُ إِمَامُ الْإِمْرَةِ، إِذَا كَانَ يَرَى الْمُسْتَأْذِنَ، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: كَانُوا يُسْتَأْذِنُونَ الْإِمَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ قَالَ زِيَادٌ: مَنْ جَعَلَ يَدَهُ عَلَى فِيهِ فَلْيُخْرِجْ دُونَ إِذْنِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا بِالْمَدِينَةِ حَتَّى أَنْ سَهْلَ بْنَ أَبِي صَالِحٍ رَعَفَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَاسْتَأْذَنَ الْإِمَامَ. وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَفْتَضِي أَنْ يُسْتَأْذَنَ أَمِيرُ الْإِمْرَةِ الَّذِي هُوَ فِي مَقْعَدِ النُّبُوَّةِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَانَ لَهُ رَأْيٌ فِي حَيْسِ ذَلِكَ الرَّجُلِ لِأَمْرِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ. فَأَمَّا إِمَامُ الصَّلَاةِ فَقَطْ فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ وَكِّلَ عَلَى جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الدِّينِ لِلَّذِي هُوَ فِي مَقْعَدِ النُّبُوَّةِ.

وَرَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي حَقِّ الْخُنْدَقِ حِينَ جَاءَتْ قُرَيْشٌ وَقَانِدُهَا أَبُو سُفْيَانَ، وَغَطَفَانَ وَقَانِدُهَا عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، فَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخُنْدَقَ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَذَلِكَ فِي شَوَالِ سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، فَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَتَسَلَّلُونَ لِيَوَادًا مِنَ الْعَمَلِ وَيَعْتَدِرُونَ بِأَعْدَارٍ كَاذِبَةٍ. وَنَحْوَهُ رَوَى أَشْهَبُ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَنْ مَالِكٍ، وَكَذَلِكَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ.

وَقَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، اسْتَأْذَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي الرَّجْعَةِ فَأَذِنَ لَهُ وَقَالَ: (انْطَلِقْ فَوَاللَّهِ مَا أَنْتَ بِمُنَافِقٍ) يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يُسْمَعَ الْمُنَافِقِينَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّمَا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْعُمْرَةِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَذِنَ لَهُ: (يَا أَبَا حَفْصٍ لَا تَنْسَنَا فِي صَلَاحِ دُعَائِكَ).

قُلْتُ: وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ لِيَتَأَوَّلَهُ جَمِيعُ الْأَقْوَالِ. وَاخْتَارَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ مَا ذَكَرَهُ فِي نَزُولِ الْآيَةِ عَنْ مَالِكٍ وَابْنِ إِسْحَاقَ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَخْصُوصٌ فِي الْحَرْبِ. قَالَ: وَالَّذِي يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَمْرَانِ:

أَحَدُهُمَا- قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} [النور: ٦٣]. وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَتَلَوَّدُونَ وَيَخْرُجُونَ عَنِ الْجَمَاعَةِ وَيَتَرَكُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَهُمْ بِأَلَّا يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى يَأْذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِذَلِكَ يَتَبَيَّنُ إِيْمَانُهُ. الثَّانِي- قَوْلُهُ: {لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} وَأَيُّ إِذْنٍ فِي الْحَدِيثِ وَالْإِمَامِ يَخْطُبُ، وَلَيْسَ لِلْإِمَامِ خِيَارٌ فِي مَنْعِهِ وَلَا إِبْقَائِهِ، وَقَدْ قَالَ: {فَإِذَا لَمِنْ شَنْتَ مِنْهُمْ}، فَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّهُ مَخْصُوصٌ فِي الْحَرْبِ.

قُلْتُ: الْقَوْلُ بِالْعُمُومِ أَوْلَى وَأَرْفَعُ وَأَحْسَنُ وَأَعْلَى. {فَإِذَا لَمِنْ شَنْتَ مِنْهُمْ}

فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْخِيَارِ إِنْ شَاءَ أَنْ يَأْذَنَ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَوْلُهُ: " فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ " مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ } [التوبة: ٤٣]. أَيْ لَخُرُوجِهِمْ عَنِ الْجَمَاعَةِ إِنْ عَلِمْتَ لَهُمْ عَذْرًا. {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [٥٤]

وقوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } يدل على أن الإيمان ليس مجرد التصديق وإنما الإيمان يتضمن القبول والإذعان لأمر الله ورسوله ، فالمؤمن: مَنْ آمَنَ بِإِلَهِهِ وَآمَنَ بِالرَّسُولِ الْمُبَلَّغِ عَنِ الْإِلَهِ، وَمَا ذُمَّتْ قَدْ آمَنَتْ بِالرَّسُولِ الْمُبَلَّغِ عَنِ اللَّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ حَرَكَتُكَ خَاضِعَةً لِأَوَامِرِهِ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ ذَاتَكَ لَهُ، فَإِذَا رَأَى الرَّسُولُ أَمْرًا جَامِعًا يَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ فِي خُطْبٍ أَوْ حَدَثٍ أَوْ حَرْبٍ، ثُمَّ يَدْعُوكُمْ إِلَى التَّشَاوُرِ لِيُدْلِيَ كُلُّ مِنْكُمْ بِرَأْيِهِ وَتَجَرِبَتِهِ، وَيُوسِّعَ مَسَاحَةَ الشُّورَى فِي الْمَجْتَمَعِ لِيَأْتِيَ الْحُكْمُ صَحِيحًا سَلِيمًا مُوَافِقًا لِلْمَصْلَحَةِ الْعَامَةِ.

فالمؤمن الحق إذا دُعي إلى مثل هذا الأمر الجامع، لا يقوم من مجلسه حتى يستأذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وليس إلزاماً أَنْ يَأْذَنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ الْجَامِعَ لَهُمْ قَدْ يَكُونُ أَهَمُّ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي يَشْغَلُكَ، وَتَرِيدُ أَنْ تَقُومَ مِنْ أَجْلِهِ، وَتَتْرَكَ مَجْلِسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وهذه الآية الكريمة فيها عدة فوائد منها مايلي :

الأولي : أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، فعدم الاستئذان في الأمور الجامعة هو معصية لا توجب الكفر ، ولا تنفي مطلق الإيمان ، ولكنها تنفي كمال الإيمان .

الثانية : أن ولي الأمر يجب عليه التيسير على رعيته إذا سمحت الظروف بالتيسير وذلك من قوله تعالى { فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ }.

الثالثة : عدم قبول الاستئذان في الأمور الجامعة بدون عذر وذلك من قوله تعالى { فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ } حيث ربط الاستئذان أن يكون لشأن ما وليس بلا عذر .

الرابعة : قبول العذر للاستئذان أمر يخص ولي الأمر فقط للمصلحة وليس للتسلط وذلك من قوله { فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ }.

^{٥٤} تفسير القرطبي - ص ٣٢٠ سورة النور آية ٦٢ - المكتبة الشاملة الحديثة

الباب الثاني : طاعة رسول الله ﷺ والوعد بالتمكين

الخامسة : عناية الله تعالى بعباده المؤمنين ، حيث أمر رسوله ﷺ أن يستغفر لهم بقوله {وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ}
السادسة : الأمر بالإستغفار للمؤمنين بعد الإذن لهم يعني أن الأصل عدم الإستئذان في الأمور الجامعة.

التحذير من مخالفة رسول الله ﷺ

يقول الله تعالى في الآية الثانية للأدب مع رسول الله ﷺ {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوَادًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) }.

تتضمن هذه الآية أدب للمؤمنين في مخاطبة رسول الله ﷺ لمخالطتهم له ، فالرسول ﷺ يعيش بين الناس لايحجبه عنهم حجاب ، ولايمنعه منهم حرس كعادة الملوك والحكام ، ولَمَّا كَانَ الْجَمَاعُ لِلرَّسُولِ فِي الْأُمُورِ يَقَعُ بَعْدَ دَعْوَتِهِ النَّاسُ لِلْجَمَاعِ وَقَدْ أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ لَا يَنْصَرِفُوا عَنْ مَجَامِعِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَّا لِعِذْرٍ بَعْدَ إِذْنِهِ أَنْبَأَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَجُوبِ اسْتِجَابَةِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ إِذَا دَعَاهُمْ. وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ [٢٤] . وَالْمَعْنَى: لَا تَجْعَلُوا دَعْوَةَ الرَّسُولِ إِيَّاكُمْ لِلْحُضُورِ لَدَيْهِ مُخِيرِينَ فِي اسْتِجَابَتِهَا كَمَا تَتَخَيَّرُونَ فِي اسْتِجَابَةِ دَعْوَةِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا، فَوَجَّهَ الشَّبَهَ الْمُنْفِي بَيْنَ الدَّعَوَتَيْنِ هُوَ الْخِيَارُ فِي الْإِجَابَةِ. وَالْغَرَضُ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنْ لَا يَتَوَهَّمُوا أَنَّ الْوَاجِبَ هُوَ الثَّبَاتُ فِي مَجَامِعِ الرَّسُولِ إِذَا حَضَرُوهَا، وَأَنَّهُمْ فِي حُضُورِهَا إِذَا دُعُوا إِلَيْهَا بِالْخِيَارِ، فَالدُّعَاءُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ مَصْدَرٌ دَعَاهُ إِذَا نَادَاهُ أَوْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ لِيَحْضُرَ.

وإضافة دعاء إلى الرسول من إضافة المصدر إلى فاعله. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ إِضَافَةُ دُعَاءٍ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى مَفْعُولِهِ وَالْفَاعِلُ الْمَقْدَرُ ضَمِيرُ الْمُخَاطَبِينَ.

يقول ابن عاشور [وَوَقَعَ الْإِلْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى خِطَابِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى عَلَى تَلْقَى الْجُمْلَةِ بِنَشَاطٍ فَهَمٌ، فَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَحَدَّثَ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} وَقَوْلُهُ: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ} الْخ. نُهُوا عَنْ أَنْ يَدْعُوا الرَّسُولَ عِنْدَ مُنَادَاتِهِ كَمَا يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي اللَّفْظِ أَوْ فِي الْهَيْئَةِ، فَأَمَّا فِي اللَّفْظِ فَيَبْأَن لَا يَقُولُوا: يَا مُحَمَّدٌ، أَوْ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ، أَوْ يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، وَلَكِنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوْ بِكُنْيَتِهِ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. وَأَمَّا فِي الْهَيْئَةِ فَيَبْأَن لَا يَدْعُوهُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجَرَاتِ، وَأَنْ لَا يُلْحُوا فِي دُعَائِهِ إِذَا لَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْحُجَرَاتِ، لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الْجَلَافَةِ

الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِعَظَمَةِ قَدْرِ الرَّسُولِ ﷺ فَهَذَا أَدَبٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَسَدٌّ لِلأَبْوَابِ الْأَدَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ. وَإِذْ كَانَتْ الْآيَةُ تَحْتَمِلُ أَلْفَظَهَا هَذَا الْمَعْنَى صَحَّ لِلْمُتَدَبِّرِ أَنْ يَنْتَزِعَ هَذَا الْمَعْنَى مِنْهَا إِذْ يَكْفِي أَنْ يَأْخُذَ مَنْ لَاحَ لَهُ مَعْنَى مَا لَاحَ لَهُ. فَالْمَعْنَى. لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَمَا جَعَلَ الْمُنَافِقُونَ بَيْنَهُمْ وَتَوَاطَؤُوا عَلَى ذَلِكَ. [أَنْتَهِيَ (٥٥)]

هَذِهِ آدَابٌ أَدَبَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا يُعَامِلُونَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالْإِحْتِرَامِ وَالتَّبْجِيلِ وَالْإِعْظَامِ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ} ، أَي: لَا تُسْرِعُوا فِي الْأَشْيَاءِ بَيْنَ يَدَيْهِ، أَي: قَبْلَهُ، بَلْ كُونُوا تَبَعًا لَهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ.

والحث على الأدب في مخاطبة رسول الله ﷺ ذكر في أكثر من موضع في كتاب الله ومن ذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا} [البقرة: ١٠٤] ، وَقَالَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} إِلَى قَوْلِهِ: {إِنَّ الَّذِينَ ينادونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ} [الحجرات: ٢-٥]

وكان المسلمون في القرن الأول ، في زمن رسول الله ﷺ يملكون حسا إيمانيا راقيا ، وإستشعارا لمراد الله ورسوله بمجرد نزول الوحي ، ومن ذلك ما رواه البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ نَائِبَتَ بَن قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ. فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ فِي بَيْتِهِ مُنْكِسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَاتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ مُوسَى: فَرَجَعَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الْآخِرَةَ بِبَشَارَةِ عَظِيمَةٍ فَقَالَ: "اذهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ" تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ (٥٦)

وللمفسرين قولان في قوله تعالى {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ

٥٥ التحرير والتنوير ص ٣٢٠ - سورة النور آية ٦٢ - المكتبة الشاملة الحديثة

٥٦ صحيح البخاري برقم (٤٨٤٦) .

بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، القول الأول كما بيناه في قول ابن عاشور أي لايناديه أحدهم كما ينادي بعضكم بعضا ، باسمه مجردا كمن يقول يا محمد ، أو بكنيته " يا أبا القاسم " ولكن ليكن في ندائكم ودعاؤكم له التكريم والتبجيل والإحترام المناسب لمقامه الرفيع ، فلا يكون نداؤه إلا بـ "ياأيها النبي " أو " ياأيها الرسول " ، كما لم يناده الله ﷻ إلا بهذا النداء في كتابه الكريم .

ورغم أن ظاهر هذا الأدب موجهها لمن عاصروا النبي ﷺ وعاشوه من صحبه الكرام إلا أنه واجب أيضا علي من تبعه بإحسان إلي يوم الدين ، فكم من متحدث علي الفضائيات وفي المنتديات ، وأثناء الحديث عن النبي ﷺ وعند تناول شيء من سيرته العطرة ، تجد هذا المتحدث ، يتحدث عنه كأنه يتحدث عن آحاد الناس فيقول قال محمد ، أو فعل محمد هكذا ، بلا توقير ولا إحترام ، بينما لو كان الحديث عن أحد من أصحاب السلطان أو ممن تربطه به منفعة دنيوية تجده يسرف في تقديم الحديث بالمدح والإطراء ، وتحميله بأعظم الألقاب التي لا يكون فيه شيء منها .

فإذا كان الأمر بتوقير وإحترام رسول الله ﷺ نزل في صحابته رضي الله عنهم ، وفيهم من آواه ونصره بالنفس والمال فنحن أولي بالتقرب إليه بإحسان ذكره في مجالسنا ، ويجب أن تعبيرنا عن حبه وإحترامه بما يليق من كلام وكثرة الصلاة والسلام عليه في كل الأوقات .

ولا يليق أن نناديه ﷺ باسمه: يا محمد. لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد، إنما الجامع أنه رسول الله، فلا بُدَّ أن نناديه بهذا الوصف. ولم لا وربّه عزَّ وجلَّ وهو خالقه ومصطفيه قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل، ومن أولي العزم، فناداهم بأسمائهم.

وكما نُميِّزُ دعاء رسول الله حين نناديه، كذلك حين ينادينا نحن يجب أن نُقَدِّرَ هذا النداء، ونعلم أن هذا النداء لخير عام يعود نفعه على الجميع.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى فِي: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} أَي: لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّ دُعَاءَهُ عَلَى غَيْرِهِ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ، فَإِنَّ دُعَاءَهُ مُسْتَجَابٌ، فَاحْذَرُوا أَنْ يَدْعُو عَلَيْكُمْ فَتَهْلِكُوا. حَكَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَعَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وهذا القول له وجاهته أيضا ، لأن رسول الله ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين

، ولا ينطق عن الهوي ، لن يدعو علي أحد إلا إذا كان يستحق هذا الدعاء ، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن إِيَّاسُ بْنُ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، أَنَّ أَبَاهُ، حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ»، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ. (٥٧)

في هذا الحديث دعا رسول الله ﷺ علي من أمره أن يأكل بيمينه ، فأبى تكبرا ، وكذلك يلزم أتباع النبي ﷺ ألا يعرضوا أنفسهم للمواضع التي دعا فيها علي أصحابها ، ويتجنبوا المواطن التي نهى عن إرتيادها .
قال البقاعي [ولما أظهرت هذه السورة بعمومها، وهذه الآيات بخصوصها، من شرف الرسول ما بهر العقول، لأجل ما وقع للمنافق من التجروء على ذلك الجنب الأشم، والمنصب الأتم، وعلم منه أن له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل أمره وجميع شأنه خصوصية ليست لغيره، صرح بذلك تفخيماً للشأن، وتعظيماً للمقام، ليتأدب من ناضل عن المنافق، أو توانى في أمره فقصر عن مدى أهل السوابق، فقال منبهاً على أن المصائب سبب لإظهار المناقب أو إشهار المعاييب {لا تجعلوا} أي ايها الذين آمنوا {دعاء الرسول} أي لكم الذي يوقعه {بينكم} ولو على سبيل العموم، في وجوب الامتثال {كدعاء بعضكم بعضاً} فإن أمره عظيم، ومخالفته استحقاقاً لكفر، ولا تجعلوا أيضاً دعاءكم إياه كدعاء بعضكم لبعض بمجرد الاسم، بل تأدبوا معه بالتفخيم والتبجيل والتعظيم كما سن الله بنحو: يا ايها النبي، ويا ايها الرسول، مع إظهار الأدب في هينة القول الفعل بخفض الصوت والتواضع.] إنتهي (٥٨)

٥٧ صحيح مسلم - باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما - حديث رقم (٢٠٢١) المكتبة الشاملة الحديثية .

٥٨ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ص ٣٢٤ - المكتبة الشاملة الحديثية

وَقَوْلُهُ: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: هُمْ الْمُنَافِقُونَ، كَانَ يَنْقُلُ عَلَيْهِمُ الْحَدِيثَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ -وَيَعْنِي بِالْحَدِيثِ الْخُطْبَةَ- فَيَلْوِذُونَ بِبَعْضِ الصَّحَابَةِ -أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ- حَتَّى يَخْرُجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ لَا يَصْلُحُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، بَعْدَمَا يَأْخُذُ فِي الْخُطْبَةِ، وَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ أَشَارَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْذُنُ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، بَطَلَتْ جُمُعَتُهُ. (٥٩)

قال القرطبي (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا) التَّسَلَّلُ وَالْإِنْسِلَالُ: الْخُرُوجُ. وَاللِّوَاذُ مِنَ الْمَلَاوَذَةِ، وَهِيَ أَنْ تَسْتَتِرَ بِشَيْءٍ مَخَافَةَ مَنْ يَرَاكَ، فَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَتَسَلَّلُونَ عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ. "لِوَاذًا" مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيِ مُتَلَاوِذِينَ، أَيِ يَلْوِذُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، يَنْضَمُّ إِلَيْهِ اسْتِنَارًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْمُنَافِقِينَ أَنْقُلُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَحُضُورِ الْخُطْبَةِ، حَكَاهُ النَّقَّاشُ، وَقَدْ مَضَى الْقَوْلُ فِيهِ. وَقِيلَ: كَانُوا يَتَسَلَّلُونَ فِي الْجِهَادِ رَجُوعًا عَنْهُ يَلْوِذُ عَنْهُمْ بِبَعْضٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ: لِوَاذًا فِرَارًا مِنَ الْجِهَادِ، وَمِنْهُ قَوْلُ حَسَّانَ [انتهى (٦٠)]

والتسلل لواءا أي التهرب من أمر ما خفية ، والتعبير بكلمة (لواءا) تعبير بديع أصله "لاذ ويلوذ" بمعنى اللجوء والتخفي وهذا عادة تصرف من ينوي ارتكاب شيئا مخالفا ليس من أقلها الجهاد أو صلاة الجمعة كما كان يفعل المنافقون في زمن رسول الله ﷺ فقط ، وإنما في كل زمان. ولذلك جاءت الآية التالية محذرة من مخالفة أمره بقوله تعالى : {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} أَيِ: عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَبِيلُهُ هُوَ وَمِنْهَاجُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَسُنَّتُهُ وَشَرِيعَتُهُ، فَتَوَزَّنِ الْأَقْوَالَ وَالْأَعْمَالُ بِأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ، فَمَا وَافَقَ ذَلِكَ قَبْلَ، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى قَائِلِهِ وَفَاعِلِهِ، كَانِنًا مَا كَانَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) (٦١) أَيِ: فَلْيَحْذَرِ وَلِيخْشَ مَنْ خَالَفَ شَرِيعَةَ الرَّسُولِ بَاطِنًا

٥٩ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٨٩ - المكتبة الشاملة الحديثة

٦٠ تفسير القرطبي - ص ٣٢٢ - سورة النور آية ٦٣ - المكتبة الشاملة الحديثة

٦١ صحيح البخاري كتاب الصلح رقم (٢٦٩٧) صحيح مسلم كتاب الأقضية رقم (١٧١٨)

أَوْ ظَاهِرًا {أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} أَي: فِي قُلُوبِهِمْ، مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ بِدْعَةٍ، {أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أَي: فِي الدُّنْيَا، بِقَتْلِ، أَوْ حَدْ، أَوْ حَبْسٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا . جَعَلَ الْفَرَّاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللَّاتِي [يَقَعْنَ فِي النَّارِ] يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِرُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ وَيَنْقَحْنَ فِيهَا". قَالَ: "فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا أَخَذْتُ بِحُجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي وَتَفْتَحُمُونِ فِيهَا". أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ (٦٢)

قال القرطبي [قَوْلُهُ تَعَالَى {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} بِهَذِهِ الْآيَةِ احْتِجَّ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْوُجُوبِ. وَوَجْهُهَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ حَذَرَ مِنْ مَخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَتَوَعَّدَ بِالْعِقَابِ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ (أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فَتَحَرَّمَ مُخَالَفَتُهُ، فَيَجِبُ امْتِثَالُ أَمْرِهِ، وَالْفِتْنَةُ هُنَا الْقَتْلُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، عَطَاءُ: الزَّلَازِلُ وَالْأَهْوَالُ. جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: سُلْطَانُ جَائِرٍ يَسْلُطُ عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ: الطَّنْغُ عَلَى الْقُلُوبِ بِشَوْمٍ مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ، وَالضَّمِيرُ فِي "أَمْرِهِ" قِيلَ هُوَ عَائِدٌ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَهُ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ. وَقِيلَ: إِلَى أَمْرِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَمَعْنَى: "يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ" أَيِ يُعْرِضُونَ عَنْ أَمْرِهِ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْأَخْفَشُ: "عَنْ" فِي هَذَا الْمَوْضِعِ زَائِدَةٌ. وَقَالَ الْخَلِيلُ وَسِيبَوَيْهٌ: لَيْسَتْ بِزَائِدَةٍ، وَالْمَعْنَى: يُخَالِفُونَ بَعْدَ أَمْرِهِ [إِنْتَهَى (٦٣)]

قال البقاعي [قَوْلُهُ {فَلْيَحْذَرِ} أَيِ يَوْقِعُ الْحَذَرَ {الَّذِينَ يُخَالِفُونَ} أَيِ يَوْقِعُونَ مُخَالَفَتَهُ بِالذَّهَابِ مَجَاوِزِينَ مَعْرِضِينَ {عَنْ أَمْرِهِ} أَيِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى خِلَافِهِ {أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} أَيِ شَيْءٍ يُخَالِطُهُمْ فِي الدُّنْيَا فَيَحِلُّ أُمُورُهُمْ إِلَى غَيْرِ الْحَالَةِ الْمَحْبُوبَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا {أَوْ يُصِيبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ*} فِي الْآخِرَةِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ لِلْوُجُوبِ حَتَّى يَصْرِفَ عَنْهُ صَارِفٌ، لَتَرْتِيبِ الْعِقَابِ عَلَى الْإِخْلَالِ بِهِ، لِأَنَّ التَّحْذِيرَ مِنَ الْعِقَابِ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ قِيَامِ الْمُقْتَضَى لِنَزُولِ الْعَذَابِ. [إِنْتَهَى (٦٤)]

٦٢ المسند (٣١٢/٢) ومسلم برقم (٢٢٨٤) وليس عند البخاري من هذا الطريق.

٦٣ تفسير القرطبي - ص ٣٢٣ سورة النور آية - ٦٣ المكتبة الشاملة الحديثة

٦٤ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ص ٣٢٦ - المكتبة الشاملة الحديثة

وقال: {يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} [النور: ٦٣] لا يخالفون أمره، فجعل في المخالفة معنى الإعراض، لا مجرد المخالفة، فالمعنى: يُعرضون عنه. والأمر: يُراد به فعل الأمر أو النهي أو الموضوع الذي نحن بصددده يعني: ليس طلباً، وهذا المعنى هو المراد هنا: أي الموضوع الذي نبحثه ونتحدث فيه، فانظروا ماذا قال رسول الله ولا تخالفوه ولا تعارضوه؛ لأنه وإن كان بشراً مثلكم إلا أنه يُوحى إليه.

لذلك يحدد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مركزه كبشر وكرسول، فيقول: (يَرُدُّ عَلَيَّ يَعْنِي مِنَ الْحَقِّ الْأَعْلَى أَنَا لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ، وَيُؤْخَذُ مِنِّي فَأَقُولُ: مَا أَنَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ) .

لذلك كان الصحابة يفهمون هذه المسألة، ويتأدبون فيها مع رسول الله، ويسألونه في الأمر: أهو من عند الله قد نزل فيه وَحْيٌ، أم هو الرأي والمشورة؟ فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ فَلَا كَلَامَ لِأَحَدٍ مَعَ كَلَامِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَرِدْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ أَذْلَى كُلِّ مِنْهُمْ بِرَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ.

وهذا حدث فعلاً «في غزوة بدر حين نزل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلاً رأى بعض الصحابة أن غيره خير منه، فسألوا رسول الله: أهذا منزل أنزلك الله، أم هو الرأي والمشورة؟ فقال:» بل هو الرأي والمشورة «فأخبروه أنه غير مناسب، وأن المكان المناسب كذا وكذا».

وقوله تعالى: {أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} [النور: ٦٣] أي: في الدنيا {أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣] أي: في الآخرة، فَإِنْ أَفْلَتُوا مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا فَلَنْ يُفْلَتُوا مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ.

الفصل الثالث

الوعد بالتمكين

آية الوعد

يقول الله تعالى في سورة النور {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) }

تأتي هذه الآية بعد العرض القرآني المبهر لنور الله ﷻ في السموات والأرض ، وأثره في المؤمنين المعمرين لبيوت الله بالذكر والتسبيح ، والتمايز بينهم وبين الكافرين المتردين في ظلمات الكفر ، ظلمات كأمواج البحر ، ثم عرض آيات الله الكونية في تسبيح الطير ، وحركة السحاب ، ونزول المطر ، والآيات البينات في خلق المخلوقات من الماء .

ثم تأتي الآيات في بيان بعض أساليب المنافقين في إظهارهم طاعة رسول الله ﷺ وإضمارهم الكفر ، وختمت هذه الآيات بدعوة هؤلاء المنافقين لطاعة حقيقية لرسول الله ﷺ بقول الله تعالى "إن تطيعوه تهتدوا"

وسط هذه الجرعة الإيمانية وقبل التعرض للأدب الرباني للمؤمنين في التعامل مع رسوله ﷺ ، يقدم الله تعالى هذه البشري وهي الوعد بالتمكين لعباده المخلصين الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات .

وقد إعتدنا أن نجد في أكثر آيات القرآن الكريم جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، إلا أن الجزاء في هذه الآية جاء مختلفا ، وهو بالتمكين في الحياة الدنيا .

وهذا الجزاء كان من رحمة الله لعباده ورعايته لهم ، والإتيان به في هذا الموضع هو من بديع النظم القرآني ، وذلك لأن الوعد بالتمكين هو الجزاء الأنسب للأجواء والظروف التي نزلت فيها سورة النور.

فكما بينا في المقدمة ، أن سورة النور في الغالب نزلت بعد غزوة الأحزاب ، حيث تعرض المسلمين لضغوط عصبية وتوترات شديدة بسبب تجمع وتواطؤ كفار قريش مع اليهود مع الأحابيش من قبائل العرب لحصارهم وإستئصالهم ، وبعد أن من الله علي المؤمنين بالنصر ورد كيد الكافرين ، بدأت حرب الفتن والشائعات لتمزيق صف المسلمين وإحباطهم وتفريق كلمة الإسلام .

جاء الوعد بالتمكين من الله تعالى بردا وسلاما علي هذه القلوب التي أضناها

الخوف وتتطلع للأمن والأمان في ظلال التوحيد .
ولما لاح بهذا الإذن في الكف عن قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمنافقين
لنلا يقول الناس: إن محمداً استنصر بقوم، فلما نصره الله بهم أقبل يقتلهم.
فيمتنع من يسمع ذلك من الدخول في الإسلام، فتكون مفسدة قتلهم أعظم من
مفسدة إبقائهم، لأن الدين لم يكن حينئذ تمكن تمكناً لا يؤثر فيه مثل ذلك،
تشوفت النفوس إلى أن هذا الحال هل يستمر؟ فجلّى الله عنهما هذا الكرب
بقوله: بياناً لأن تمكن الدين غير مفتقر إليهم سواء أقبلوا أو أدبروا: {وعد
الله} أي الذي له الإحاطة بكل شيء {الذين آمنوا} وهو مع ذلك كالتعطيل لما
قبله ترغيباً لمن نظر في الدنيا نوع نظر؛ وقيد بقوله: {منكم} تصريحاً بأهل
القرن الأول، ليكون ظاهراً فس إخراج المنافقين المتولين بالإعراض، إشارة
إلى أنهم لا يزالون في ذل وضعة؛ وقدم هذا القيد اهتماماً به لما ذكر بخلاف
ما يأتي في سورة الفتح {وعملوا} تصديقاً لإيمانهم {الصالحات} من الإذعان
للأحكام وغيرها، وأكد غاية التأكيد بلام القسم، لما عند أكثر الناس من
الريب في ذلك فقال: {ليستخلفنهم في الأرض} أي أرض العرب والعجم، بأن
يمد زمانهم، وينفذ أحكامهم {كما استخلف} أي طلب وأوجد خلافة بإيجادهم
{الذين من قبلهم} أي من الأمم من بني إسرائيل وغيرهم من كل من حصلت
له مكنة، وظفر على الأعداء بعد الضعف الشديد كما كتب في الزبور {أن
الأرض يرثها عبادي الصالحون} وكما قال موسى عليه السلام: {إن الأرض
لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين} {وليمكنن لهم} أي في
الباطن والظاهر {دينهم} أضافة إليهم إشارة إلى رسوخ أقدامهم فيه وأنه
أبدى لا ينسخ {الذي ارتضى لهم} حتى يقيموا الحدود فيه من قتل وغيره
على الشريف والوضع سواء كان الواقعون في ذلك عصابة أم لا، لا يراعون
أحداً، ولا يخافون لومة لائم، لأنه لا يضره إذ ذاك إدباراً مدبر كما قال صَلَّى
الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . [إنتهي (٦٥)

تحقيق الوعد بالإستخلاف

يقول ابن كثير [هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ، أَي: أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك. وله الحمد والمنة، فإنه لم يمُت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية -وهو المقوقس- وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحمة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهى عند موته ﷺ وأطد جزيرة العرب ومهدّها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صُحبة خالد بن الوليد، رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صُحبة أبي عبيدة، رضي الله عنه، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صُحبة عمرو بن العاص، رضي الله عنه، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخالفهما من بلاد حوران وما والآها، وتوفاه الله عز وجل، واختار له ما عنده من الكرامة. ومن على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياماً تاماً، لم يذر الفلک بعد الأنبياء [عليهم السلام] على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانته غاية الهوان، وتفقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فأنحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتح بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبته مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتح

مَدَائِنَ الْعِرَاقِ، وَخُرَاسَانَ، وَالْأَهْوَازَ، وَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الشَّرِكِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جَدًّا، وَخَذَلَ اللَّهُ مَلِكَهُمُ الْأَعْظَمَ خَاقَانَ، وَجَبِيَ الْخَرَاجَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِلَى حَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَذَلِكَ بِبَرَكَةِ تِلَاوَتِهِ وَدِرَاسَتِهِ وَجَمْعِهِ الْأُمَّةَ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ؛ وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مَلُوكُ أُمَّتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا) ^(٦٦) فَهَانَحْنُ نَتَقَلَّبُ فِيهَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْإِيمَانَ بِهِ، وَبِرَسُولِهِ، وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيهِ عَنَّا.] انتهى ^(٦٧)

وفي صحيح مسلم قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا". ثُمَّ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلِمَةٍ خَفِيتْ عَنِّي فَسَأَلْتُ أَبِي: مَاذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالَ: "كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ". وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، بِهِ ^(٦٨) وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً عَادِلًا وَلَيْسُوا هُمْ بِأَيِّمَةِ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشَرَ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَوْلِيكَ لَمْ يَكُنْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَاتَّهَمُ بِكَوْنِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ، يُلُونُ فَيَعْدِلُونَ. وَقَدْ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، ثُمَّ لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ مُتَتَابِعِينَ، بَلْ يَكُونُ وُجُودُهُمْ فِي الْأُمَّةِ مُتَتَابِعًا وَمُنْفَرَقًا، وَقَدْ وَجِدَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ عَلَى الْوَلَاءِ، وَهُمْ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ثُمَّ كَانَتْ بَعْدَهُمْ فِتْرَةٌ، ثُمَّ وَجِدَ مِنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَدْ يُوْجَدُ مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ فِي وَقْتِ يَعْلَمُهُ اللَّهُ. وَمِنْهُمْ الْمُهَدِّيُّ الَّذِي يُطَابِقُ اسْمُهُ اسْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُنْيَتُهُ كُنْيَتُهُ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا، كَمَا مِلْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، عَنْ سَفِينَةَ -مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يَكُونُ مَلِكًا عَضُوضًا) ^(٦٩)

٦٦ صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان، رضي الله عنه.

٦٧ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٧٨ - المكتبة الشاملة الحديثة

٦٨ صحيح مسلم برقم (١٨٢١) وصحيح البخاري برقم (٧٢٢٢)

٦٩ المسند (٢٢٠/٥) وسنن أبي داود برقم (٤٦٤٦) وسنن الترمذي برقم (٢٢٢٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨١٥٥) وقال الترمذي: "حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جهمان" ولم ترد لفظة: "عضوض" في هذه المصادر، وإنما وردت في

وقد ذكر المفسرون سببا لنزول هذه الآية ، ننقله هنا من تفسير ابن كثير حيث قال وقال الربيع بن أنس، عن أبي العالِيَةِ في قَوْلِهِ: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} الآية، قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ، يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سِرًّا وَهُمْ خَائِفُونَ، لَا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ، حَتَّى أُمِرُوا بَعْدَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ، فَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمَسُّونَ فِي السِّلَاحِ وَيَصْبَحُونَ فِي السِّلَاحِ، فَعَبَّرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبَدَ الدَّهْرُ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا؟ أَمَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمُنُ فِيهِ وَنَضَعُ عَنَّا فِيهِ السِّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَنْ تَعْبُرُوا إِلَّا بِسَيْرٍ حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِمْ حَبِيدَةٌ) وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَأَمَّنُوا وَوَضَعُوا السِّلَاحَ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، قَبَضَ نَبِيَّهُ ﷺ فَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنِينَ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمَرَ وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فِيْمَا وَقَعُوا، فَأَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ فَاتَّخَذُوا الْحَجْرَةَ وَالشَّرْطَ وَغَيَّرُوا، فَعَبَّرَ بِهِمْ. (٧٠)

شروط الإستخلاف والتمكين

ومن بديع النظم القرآني أنه قدم التمكين في الدين قبل الأمن ، رغم حاجة المسلمين الشديدة إلى الشعور بالأمن وهذه إشارة من الله تعالى أنه لا أمن يرتجي بدون إقامة الدين الذي إرتضاه الله لعباده ، وهذا تصديقا لقوله تعالى فيما سبق من الآيات { وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا } [النور: ٥٤] .
وَقَالَ ﷺ (وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ) . (٧١)

حديث آخر عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَدَأَ هَذَا الْأَمْرَ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً، وَكَانَ خَلْفَةً وَرَحْمَةً، وَكَانُوا مُلْكًا عَضُوضًا، وَكَانُوا عَنُوةً وَجَبْرِيَّةً وَفُسَادًا فِي الْأُمَّةِ ... الْحَدِيثُ" أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٥٩/٨) .

٧٠ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٧٩ - المكتبة الشاملة الحديثة

٧١ صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب علامات النبوة - رقم (٣٦١٢)

خَرَجَهُ الْبَخَارِي فِي صَحِيحِهِ، فَكَانَ كَمَا أَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَلَايَةُ مُعْجَزَةِ النُّبُوَّةِ، لِأَنَّهَا إِخْبَارٌ عَمَّا سَيَكُونُ فَكَانَ.

وَالْتَعْرِيفُ فِي الصَّالِحَاتِ لِلِاسْتِعْزَاقِ، أَيِ عَمِلُوا جَمِيعَ الصَّالِحَاتِ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الَّتِي وَصَفَهَا الشَّرْعُ بِأَنَّهَا الْحَدِيثَةُ صَلَاحٌ، وَتَرَكَ الْأَعْمَالَ الَّتِي وَصَفَهَا الشَّرْعُ بِأَنَّهَا فَسَادٌ لِأَنَّ إِبْطَالَ الْفَسَادِ صَلَاحٌ.

وَقَوْلُهُ: {كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٢٩] ، وَقَالَ تَعَالَى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَنَجْعَلَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَثَةً وَنُرِيهِمْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [القصص: ٥، ٦].

{وَلِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ} وَهُوَ الْإِسْلَامُ، كَمَا قَالَ {وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]

وَقَوْلُهُ: {وَلِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، حِينَ وَقَدَ عَلَيْهِ: "أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟" قَالَ: لَمْ أَعْرِفْهَا، وَلَكِنْ قَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ: "فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُثَبِّتَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظُّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ، وَلَتَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمَزٍ." قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمَزٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، كِسْرَى بْنُ هُرْمَزٍ، وَلَيُبَدِّلَنَّ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ." قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: فَهَذِهِ الظُّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيْمِنْ أَفْتَتَحُ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمَزٍ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا. (٧٢)

وَقَوْلُهُ: {يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} يَقُولُ ابْنُ كَثِيرٍ [قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: بِسَنَدِهِ ، أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ حَدَّثَهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ، قَالَ: "يَا مُعَاذُ"، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: "يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ"، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

قَالَ: "هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟" قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا". قَالَ: ثُمَّ سَارَ سَاعَةً. ثُمَّ قَالَ: "يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ"، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: "فَهَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟"، قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "فَإِنَّ حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ". (٧٣)

وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} أَي: فَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَتِي بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَدْ فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ وَكَفَى بِذَلِكَ ذَنْبًا عَظِيمًا. فَالصَّحَابَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لَمَّا كَانُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَطْوَعَهُمْ لِلَّهِ -كَانَ نَصْرُهُمْ بِحَسَبِهِمْ، وَأَظْهَرُوا كَلِمَةَ اللَّهِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَيَّدَهُمْ تَأْيِيدًا عَظِيمًا، وَتَحَكَّمُوا فِي سَائِرِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ. وَلَمَّا قَصَرَ النَّاسُ بَعْدَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَوَامِرِ، نَقَصَ ظُهُورُهُمْ بِحَسَبِهِمْ، وَلَكِنْ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَى الْيَوْمِ الْقِيَامَةِ) وَفِي رَوَايَةٍ: (حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ) وَفِي رَوَايَةٍ: (حَتَّى يُفَاتِلُوا الدَّجَالَ) وَفِي رَوَايَةٍ: (حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَهُمْ ظَاهِرُونَ) وَكُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ صَحِيحَةٌ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا (٧٤).

وَالْآيَةُ تَسْمِي بَايَةِ الْوَعْدِ وَمَا دَامَ الْوَعْدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ صِدْقٌ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: ١٢٢] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} [التوبة: ١١١] .

وَالَّذِي يَفْسِدُ عَلَى النَّاسِ وَعُودُهُمْ، وَيَجُرُّ عَلَيْهِمْ عَدَمَ الْوَفَاءِ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُتَغَيِّرٌ بِطَبْعِهِ مُتَقَلِّبٌ، فَقَدْ يَعِدُ إِنْسَانًا بِخَيْرٍ ثُمَّ يَتَغَيَّرُ قَلْبُهُ عَلَيْهِ فَلَا يَفِي لَهُ بِمَا وَعَدَ، وَقَدْ يَأْتِي زَمَنُ الْوَفَاءِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، أَمَّا الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَلَا يَتَغَيَّرُ أَبَدًا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا وَعَدَ بِهِ، فَلَيْسَتْ هُنَاكَ قُوَّةٌ أُخْرَى تَمْنَعُهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ؛ لِذَلِكَ فَوَعَدَهُ تَعَالَى نَاجِزًا. وَفَرَّقَ بَيْنَ تَمَكِينِ الْإِسْلَامِ وَتَمَكِينِ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَالْبَعْضُ يَدْعِي الْإِسْلَامَ، وَيَرْكَبُ مَوْجَتَهُ حَتَّى يَحْكُمَ وَيَسْتَتَبَ لَهُ الْأَمْرُ وَتَنْتَهِيَ الْمَسْأَلَةُ، لَا لِأَنَّ التَّمَكِينَ

٧٣ المسند (٢٤٢/٥) وصحيح البخاري برقم (٥٩٦٧) وصحيح مسلم برقم (٣٠) .

٧٤ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٨١ - المكتبة الشاملة الحديثة

ليس للحاكم، إنما التمكن لدين الله.
ثم يقول تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) {.

يقول البقاعي [ولما تمت هذه البشرى، وكان التقدير: فاعملوا واعبدوا، عطف عليه قوله: {وأقيموا الصلاة} أي فإنها قوام ما بينكم وبين ربكم، مع أنه يصح عطفه على قوله «أطيعوا الله» فيكون من مقول {قل} {وآتوا الزكاة} فهي نظام ما بينكم وبين إخوانكم {وأطيعوا الرسول} أي المحيط بالرسالة في كل ما يأمركم به، فإنما هو عن أمر ربكم {لعلكم ترحمون} أي لتكونوا عند من يجهل العواقب على رجاء من حصول الرحمة ممن لا راحم في الحقيقة غيره.] إنتهي (٧٥)

ولما كانت عبادة الله وحده هي حق الله علي العباد ، فمن رحمته أن بين لهم في هذه الآيات الأركان الرئيسية لعبادته وعلي رأسها بعد شهادة التوحيد ، إقامة الصلاة ، فيقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بإقام الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين ضغفانهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أي: سالكين وراءه فيما به أمرهم، وتاركين ما عنه رجزهم، لعل الله يرحمهم بذلك. ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} [التوبة: ٧١].

ولأهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام اجتمع فيها كل أركان الإسلام، ففي الصلاة تتكرر الشهادة: لا إلا إلا الله محمد رسول الله، وفي الصلاة زكاة؛ لأن الزكاة فرع العمل، والعمل فرع الوقت، والصلاة تأخذ الوقت نفسه، وفيها صيام حيث تمتنع في الصلاة عما تمتنع عنه في الصوم بل وأكثر، وفيها حج لأنك تتجه في صلاتك إلى الكعبة.

إذن: فالصلاة نائبة عن جميع الأركان في الاستبقاء، لذلك كانت هي عمود الدين، والتي لا تسقط عن المؤمن بحال من الأحوال حتى إن لم يستطع

الصلاة قائماً صلى جالساً أو مضطجعا، ولو أن يشير بأصبعه أو بطرفه أو حتى يخطر بها على باله؛ ذلك لاستدامة الولاء بالعبودية لله المعبود. والصلاة تحفظ القيم، فتشوّي بين الناس، فيقف الغني والفقير والرئيس والمرؤوس في صفٍّ واحد، الكل يجلس حسب قدومه، وهذا يحدث استطرافاً عبودياً في المجتمع، ففي الصلاة مجال يستوي فيه الجميع.

وإن كانت الصلاة قوام القيم، فالزكاة قوام المادة لمن ليست له قدرة على الكسب والعمل. إذن: لدينا قوانين للحياة، ولاستدامة الخلافة على الأرض قوام القيم في الصلاة، وقوام المادة في الزكاة.

ثم يقول سبحانه: {وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [النور: ٥٦] وهنا في الصلاة والزكاة خصّ الرسول بالإطاعة؛ لأنه صاحب البيان والتفصيل لما أجمله الحق سبحانه في فرضية الصلاة والزكاة، حيث تفصيل كل منهما في السنة المطهرة، فقال: {وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ} [النور: ٥٦].

وقوله {لَا تَحْسَبَنَّ} أي: لَا تَظُنَّ يَا مُحَمَّدُ {الَّذِينَ كَفَرُوا} أي: خَالِفُوكَ وَكَذَّبُوكَ، {مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} أي: لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ، بَلِ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ، وَسَيُعَذِّبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَمَا أَوَاهُمْ} أي: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ {النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ} أي: بِنَسِ الْمَالِ مَالُ الْكَافِرِينَ، وَبِنَسِ الْقَرَارِ وَبِنَسِ الْمَهَادِّ.

والشيء المعجز هو الذي يثبت العجز للمقابل، نقول: عملنا شيئاً معجزاً لفلان يعني: لا يستطيع الإتيان بمثله.

فإياك أن تظن أن الكافرين مهما علّت مراتبهم ومهما استشرى طغيانهم يُفْلِتُونَ من عقاب الله، فلن يثبتوا له سبحانه العجز عنهم أبداً، ولن يُعْجِزُوهُ، إنما يُمْلِي لهم سبحانه ويمهلهم حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهو سبحانه مُدْرِكُهُمْ لا محالة.

ولما كان الملل من شيم النفوس، فكان تدرج الكلام في المقاصد لا سيما الأحكام شيئاً فشيئاً خلال مقاصد أخرى أوقع في القلب، وأشهى إلى الطبع، لا سيما إذا كان على وجوه من المناسبات عجيبة، وضروب من الاتصالات هي مع دقتها غريبة، زين الله تأصيلها بتفصيلها فابتدأ السورة بطائفة منها، وفصلها بدر الوعظ، وجواهر الحكم، والحث على معالي الأخلاق، ومكارم

الأعمال، ثم وصلها بالإلهيات التي هي أصولها، وعن علي مقاماتها تفرعت فصولها، فلما ختمها بالتمكين لأهل هذا الدين، وتوهين أمر المعتدين، شرع في إكمالها، بإثبات بقية أحوالها، تأكيداً لما حكم به من التمكين، وما ختمه من ذلك من التوهين، وتحذيراً مما ختمه من العذاب المهين، وتحقيقاً لما ألزم به من الطاعة، ولزوم السنة والجماعة.

فوعده الله بالتمكين في الأرض لا يكون إلا للذين آمنوا ، ثم قرنوا الإيمان بعمل الصالحات .

والوعد هو أن يمني الموعود بما يحب ، أما الوعيد هو تهديد المتوعد بما يكره ، وقد تعددت الآيات في كتاب الله التي تؤكد هذين المعنيين للوعد والوعيد .

وعلي هذا لا يكون لليهود أي حق في فلسطين ، أو في غيرها من أرض الله تعالى لأنهم ليسوا أهلاً لوعده الله تعالى بالتمكين في الأرض ، والأرض يورثها الله تعالى لعباده الصالحون كما في قوله تعالى {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [الْقَصَص: ٥ ، ٦]. وقوله تعالى في سورة الأنبياء {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} (١٠٥)

ونحن نعتقد جازمين أن المسلمين لو أحسنوا العودة لدينهم وعملوا الصالحات كما يريد ربهم فسوف يطردون اليهود ومن ورائهم من ديار المسلمين .

ومن يتدبر أحداث التاريخ يعرف صدق هذا الوعد ، فما تمكن المسلمون في وقامت دولتهم إلا بعد أن تمكن منهم الإيمان وأستكملوه بالأعمال الصالحة ، وماتمكن منهم عدوهم إلا بخلل في الطاعة كما حدث يوم أحد حين خالف الرماة أمر سول الله ﷺ بلزوم الجبل ، أو بخلل في الإيمان كما حدث يوم حنين عندما إغثروا بكثرتهم وقالوا لن نهزم اليوم من قلة ونسوا أن النصر من عند الله .

الدروس والعبر في آية الوعد

وفي هذه الآيات فوائد كثيرة منها مايلي :

- الأولي : الحث والترغيب في كمال الإيمان مقرونا بالأعمال الصالحة .
- الثانية : الوعد للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بالإستخلاف في الأرض
- الثالثة : لفت النظر إلي أن الإستخلاف للصالحين سنة كونية وذلك من قوله تعالى {كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} ، فمن يريد الإعتبار فلينظر إلي سير الأمم السابقة.
- الرابعة : الآيات فيها حث وترغيب علي معرفة سير وتاريخ الأمم السابقة .
- الخامسة : أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وقد بين شروط الإستخلاف فيها لكي لا يكون للناس علي الله حجة بعد الرسل .
- السادسة : الإيمان والعمل الصالح هما السبب الرئيسي لتمكين الدين الذي إرتضاه الله لعباده قبل أي أسباب مادية أخرى .
- السابعة : الدين الإسلامي هو الدين الذي إرتضاه الله ﷻ للناس دينا .
- الثامنة : الأمن لا يكون إلا من بعد الخوف ، فلا يغتر بالأمن علي أمن ، والأمن قرين تمكين الدين بعد تحقيق الإيمان والعمل الصالح .
- التاسعة : الآية تتضمن عدة مؤكدات بأدوات التوكيد اللفظية والمعنوية لأهمية الأمر ، وفي هذا دليل علي مشروعية إستعمال المؤكدات للأمور الهامة لإزالة أي إلتباس .
- العاشرة : أن الإيمان والعمل الصالح هما من العبادات لقوله تعالى {يَعْبُدُونَنِي} الحادية عشر : تحقيق التوحيد من كمال العبادة التي تحقق التوحيد لقوله تعالى { لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا }.
- الثانية عشر : تنكير كلمة { شَيْئًا } بعد { لَا يُشْرِكُونَ بِي } دليل علي تعميم أسباب الشرك بالله وعدم قصرها علي عبادة الأصنام والأوثان ، بل الشرك بالله المانع للتمكين قد يكون بشيئ ضئيل كما قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي (أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) (٧٦)
- الثالثة عشر : الآية بدأت بوعد المؤمنين بالتمكين ، وختمت بوعيد الكافرين

٧٦ صحيح مسلم ، كتاب الزهد وارقانق ، باب من أشرك في عمله غير الله ، رقم (٢٩٨٥)

بقوله تعالى { وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
الرابعة عشر: وصف من كفر بعد ذلك حصريا بقوله { فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
{ رغم أن للفسق أشكال أخرى ، إلا أن حصر الفسق فيهم بالآلف واللام دليل
على عظم هذا الفسق ، وقد بين الله تعالى جزاء الفسق في سورة السجدة
بقوله تعالى { وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا
أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُوفُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } (٢٠)
الخامسة عشر : قوله تعالى { وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } بعد قوله {
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} فيه دليل آخر للرد على القرانيين بوجوب
العمل بالسنة.

الباب الثالث

الحدود في سورة النور

الفصل الأول : وجوب تطبيق الحدود

الفصل الثاني : حد الزنا

الفصل الثالث : حد القذف

الفصل الرابع : حد اللعان

الفصل الأول

وجوب تطبيق الحدود

مقدمة عن الحدود

الحديث عن الحدود الشرعية في الإسلام حديث ذو شجون ، لأن عدم تطبيق الحدود الشرعية في معظم البلاد الإسلامية ، يسبب جرحا غائرا في نفس كل مسلم غيور علي دينه ، وعلي عرضه ، حريص علي ماله وعياله ووطنه . حتي الدول الإسلامية التي تزعم تطبيق الحدود ، لا تطبقها بشروطها الشرعية التي ترضي الله ورسوله ، وإنما تطبقها في إطار مواءمات سياسية وترتيبات خاصة تجعلها لا تطبق إلا علي الضعفاء والفقراء وعلي من ليسوا من ملأ الحكام أو من حاشيتهم ، وصدق فيهم قول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن الزُّهري، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَلَمْ يَجْتَرِئِ أَحَدٌ أَنْ يُكَلِّمَهُ، فَكَلَّمَهُ أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَقَالَ: (إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ، لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتَ يَدَهَا) (٧٧)

هذا المنهج المختل ، والمقصود به تنحية شرع الله جانبا إرضاء ورضوخا لأعداء الإسلام من الغرب والشرق ، رغم ماتطالعنا به الأخبار علي مدار الساعة بشكل يومي ، بأخبار عن جرائم أخلاقية بشعة تجاوزت كل الحدود ، فكم من زوج قتل زوجته وأولاده لإرتيابه في سلوك زوجته ، وكم من شاب يمارس زنا المحارم ، وكم من مرتش فضحته رشوته ، والناس في ذهول يصرخون مالذي يحدث؟! وأصبحنا كما يقول الشاعر :

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول
فكتاب الله بين أيدينا ، لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، نتلوها في الإفتتاحيات والمناسبات فقط ودواوين السنة وكتب العلماء ورسائل طلبية العلم جعلت فقط لتزيين أرفف المكتبات ، والتفاخر بها في المنتديات ، دون تطبيق ما فيها من أحكام وتشريعات . ثم يبحث من يطلقون علي أنفسهم التنويريين والمثقفين عن حلول في مناهج الغرب . هذا الوضع المزري الذي نعيش فيه يتحمل مسئوليته كل مسلم إستسلم لدعاوي التغريب ، ورضي بتنحية شرع الله جانبا ، وتخرج من إعلاء كلمة الله تعالى .

ولا يظنن ظان أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل شريعته وترك لنا الخيار في العمل بها أو إلغائها، أو أنه يأجرنا ويبارك لنا إذا أخذنا بها، ولا يعاقبنا إن تركناها. أعني ليس تنفيذ الشريعة من باب المستحب والمستحسن، بل من باب الفرض والواجب. فكما أن على تطبيق الشريعة يحصل الفلاح في الدنيا والآخرة، فإن على تركها وإهمالها يتوجب الخسار والدمار في الدنيا والآخرة أيضاً، وإليك الأدلة الشرعية والعقلية على ذلك.

من الأدلة الشرعية : قال تعالى أمراً رسوله بتنفيذ حدوده {سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون} (النور: ١) ، وهذه الآية هي مطلع سورة النور وفيها يبين الله سبحانه وتعالى فرضية هذه السورة التي شرع فيها حد الزنا، والقذف، وضوابط اللعان، وكذلك كثيراً من آداب الإسلام الأخرى كالحجاب والاستئذان وطاعة الرسول. وبدأت سورة المائدة بقوله: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} (المائدة: ١) ، وهذا أمر بأن نوفي أي نكمل ونتمم كل ما عاهدنا الله عليه ثم ذكر الله في هذه السورة كثيراً من العقود والحدود، ومنها تحريم أنواع من الأطعمة، ووجوب العدل مع الأعداء، والوضوء والتميم، والقتال، والقصاص، والسرقه، وقال في هذه السورة سبحانه بعد ذكر طائفة من هذه العقود والحدود {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} (المائدة: ٤٨) ، وقال أيضاً: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيراً من الناس لفاسقون، أفحكم الجاهلية يبغون. ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون} (المائدة: ٤٩-٥٠) . وهكذا أوجب على رسوله أن يحكم بين الناس بما أنزل الله إليه، وحذره أن يخرج عن بعض هذا المنزل، وبالطبع هذا الأمر للرسول أمر للأمة كلها، والتحذير تحذير للأمة وخاصة من بيدهم الحكم ومن ولاهم الله شئون المسلمين.

ومن الأدلة العقلية : يستطيع أي عاقل منصف ينظر إلى الشريعة الإسلامية ومنهجها في الزجر عن الفساد في الأرض واستئصال دابر الجريمة، وكيفية إقامة العدل بين الناس أن يصل إلى يقين بأن ترك هذه الشريعة يعني زرع

الفساد في الأرض وخاصة أرض العرب إذ أن هذا الجنس من البشر لا يجتمع إلا على سلطان ديني، فما اجتمع العرب في تاريخهم الطويل إلا على هذا السلطان الذي ألف بين قلوبهم ووحد صراطهم ومنهجهم في الحياة، وردع أهل الشر منهم والفساد عن شرهم وفسادهم، ولا يكاد يخرج هذا الدين من أوساطهم حتى يعودوا إلى مثل الجاهلية الأولى شراً وفساداً وفرقة.

ولا نعني بهذا أن الدين لا يصلح إلا للعرب خاصة، بل الدين فيه صلاح العالمين والعرب على وجه الخصوص واليقين. فالعالم اليوم يعج بأحط أنواع الفساد والانحلال ، فالظلم والطغيان في ظل القوانين الاقتصادية الجائرة أمر شاهد لكل عين سواء في ظل النظام الرأسمالي الذي يبيح الربا وأنواعاً من الاحتكار أو في ظل النظام الشيوعي الذي ينتهك حرمة الإنسان بتجريدته من أهم ما يقوم حياته وهو رأس المال ووسيلة الإنتاج ويجعل منه عبداً لصنم يسمى (المجموع) وحيث يذهب المال في النهاية إلى طوائف من المنتفعين ممن يبقون على رأس السلطة في المجتمعات الشيوعية والاشتراكية، وكذلك الحال في النظام السياسي فبقضاء الشريعة عم الظلم وناهيك عن النظم الاجتماعية والأخلاقية حيث انهارت الأسرة وفقد التواصل والترابط بين الأرحام وكل ذلك بانتشار الزنا وإباحة اللواط حيث انعدم الوفاء والإخلاص والمودة الحقيقية بين الزوجين وبالتالي بين الأم وأبنائها، والأب وأولاده، والإخوة بعضهم مع بعض، وأصبح المجتمع أشبه بمجتمع الحيوانات، حيث يتقاتل الذكور على الإناث وقت السفاد دون خجل أو حياء، ومثل هذا المجتمع الذي يفقد الإنسان فيه آدميته ويلتحق بالبهائم لا شك أنه مجتمع شر وفساد.

وهل من الممكن أن تصلح هذه المجتمعات دون نظام إسلامي يردع عن الفواحش ويضع العلاقة بين الرجل والمرأة في مكانها الصحيح ويقيم أسس الاجتماع على التراحم بين الأقارب، ويعرف الإنسان فيه أباً حقيقياً وأماً رحيمة وأخوة يشاركونه نفس الأب وكذلك أعماماً وأخوالاً وأحفاداً، بدلاً من أن يعيش الناس في مجتمع لا يشكلون فيه أكثر من أرقام عديدة كهذه الأرقام التي نعلقها على الطيور والحيوانات في مزارع تربية الماشية والدواجن.

وإذا كان العالم اليوم يشكو من السرقة التي استفحل أمرها، ومن حوادث الاغتصاب التي باتت تهدد كل فتاة، ومن حوادث القتل التي لا تكاد تأمن منها نفس، فمن لهذا العالم ما يخرج من الفساد إلا نظام الله وقانونه الذي ما إن يطبق في مجتمع ما تطبيقاً عادلاً حتى تستقر الأوضاع ويأمن الناس وينقطع دابر الشر والفساد.

ومثل هذه الدعوى التي ندعيها لا تحتاج إلى برهان لأن التاريخ كله شاهد بذلك قديماً وحديثاً، ومقارنة يسيرة إلى أي مجتمع جاهلي يطبق قوانين الإنسان الجاهلية، ومجتمع مسلم طبق قانون الله السميع العليم سيطلع أي منصف على الفارق الشاسع بين نظام البشر حيث الجهل والظلم والانحراف وبين نظام الله حيث الرحمة والعدل والطهارة.

ولذلك فكل عاقل من البشر مدعو أن يطالب بملء فهمه وبغاية جهده أن يعود الناس إلى نظام الله لنأمن في الدنيا ونسعد قبل الآخرة، وأقول كل إنسان سواء كان مؤمناً أو كافراً يجب أن يسعى لهذا ما دام يملك شيئاً من الإنصاف والحق، وذلك أن كل منصف وصاحب حق سواء اهتدى إلى الإيمان أم لم يهتد سيجد في تشريع الله ضالته المنشودة في إقامة العدل بين الناس وفيما يسمى بالمجتمع الفاضل والمدينة الفاضلة، فالحرية السياسية والدينية قد كفلها الله للجميع في ظل هذا النظام والمحافظة على عقول الناس وأعراضهم وأموالهم، ودمانهم ونسلهم ودينهم قد شرع الله لها من التشريعات ما يصونها ويحفظها، وهل يريد أي عاقل أن يعيش في مجتمع خير من هذا المجتمع الذي يصون له كل مقومات حياته، ويطلق يده في كل باب من أبواب الخير يعود عليه بالنفع، بالطبع لا يعارض إلا المجرمون من أهل الظلم والسرقات والغصب أو من أهل الخنا والخسة والدناءة الذي يحبون أن تشيع الفاحشة ليعيشوا في حماتها وأن ينتشر الزنا ليصيبوا منه ما وسعهم ولا يسألون بعد ذلك على بناتهم أو أمهاتهم أو أرحامهم، أمثال هؤلاء هم الذين تشرق حلوقهم بذكر تشريع الله ويصيبهم الهلع والجزع إذا سمعوا بحدوده ويتحسسون ظهورهم وأيديهم وأعناقهم خوفاً من الجلد والقطع لما اقترفوه من زنا وفاحشة وسرقة وقتل وفساد. والواجب ألا نعبأ بهؤلاء لأن هؤلاء هم آفة المجتمعات وسوسها وتخليص المجتمعات من

شروعهم هو أكبر رحمة للبلاد والعباد، فهل يتنادى العقلاء بعد ذلك من كل ملة وجنس بالعودة إلى تشريع الله وتطبيق حدوده في الأرض؟
تثير الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية خوفاً وهلعاً عند فئات شتى، فالحكام يخافون على مناصبهم، وأصحاب الأموال يخافون على ثرواتهم، وأهل الفجور والمعاصي يخافون على ما هم فيه من دنس وقذارة، وقد يكون في وسط هؤلاء وهؤلاء بعض من يصلون ويزعمون حب الله ورسوله والامتثال برسالة الإسلام، وحتى يكون في هذا الكتاب موعظة لكل هؤلاء فإننا نذكرهم جميعاً بما يلي:

أولاً : رد الحكم الشرعي كفر

وقد دل على هذا المعنى آيات كثيرة كقوله تعالى: {إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا} وكقوله جل وعلا: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً}، وفي هذه الآية تعجب الله سبحانه ممن يدعي الإيمان وهو يريد أن يتحاكم إلى غير حكم الله وحكم رسوله وأخبر أنه لا يؤمن إلا من حكم الله ورسوله في كل شجار يكون بينه وبين آخرين، ورضي بحكم الله وحكم رسوله وسلم تسليماً كاملاً لذلك.

[ولا شك أن الحدود الشرعية للجرائم المعروفة: السرقة، والقتل، والزنا، وشرب الخمر، وقطع الطريق، والإفساد في الأرض، وغير ذلك من الجرائم، وهذه الحدود الشرعية، أصبحت لاشتهارها من المعلوم في الدين ضرورة، ولا يكاد بل لا يصح من المسلم أن يجهل ذلك. وإذا كان هذا ثابتاً ومعلومًا في الدين فإن تكذيبه أو رده كفر مخرج من ملة الإسلام، وهذا الحكم لا خلاف فيه بتاتاً، أعني كفر من رد حكماً من أحكام الله الثابتة في كتابه أو على لسان رسوله خاصة إذا كان هذا الرد معطلاً بأن هذا التشريع لا يناسب الناس، أو يوافق العصر، أو أنه وحشية، أو غير ذلك لأن حقيقة عيب التشريع هي عيب المشرع، والذي شرع هذا وحكم به هو الله سبحانه

وتعالى، ولا يشك مسلم في أن عيب الله أو نسبة النقص أو الجهل له كفر به وخروج عن ملة الإسلام.] (٧٨)

ثانيا : لا يخاف العقوبة إلا المجرم

إن كثيراً من الذين هالهم وأخافهم تنفيذ العقوبات الشرعية هم من الكفار الأصليين (الكافر الأصلي هو الذي لم يدخل الإسلام من قبل كاليهودي والنصراني) وإن كانوا يتكلمون بحرص كاذب على الإسلام والمسلمين، ونعلم يقيناً كذلك أنه لا يخاف العقاب إلا المجرم، فالذين يثرون اليوم مذعورون خائفين ما أخافهم إلا أن ينالهم العقاب يوماً، ولذلك فهذه الضجة المفتعلة التي أججها من أججها بكل هذا الذعر والخوف والصراخ يعلم الجميع دوافعه ودوافعه، فهذه العقوبات لا تنال في الشريعة إلا المجرمين فقط، والجرائم متشابهة في كل الشرائع ، والإختلاف في كيفية معالجتها ، ولا تكون الجريمة في مواقعها الشرعية إلا بتوفر شروط صارمة، فالزنا لا يتوفر إثباته الشرعي إلا بشهادة أربعة عدول يشهدون الجرم نفسه، وهذا لا يتأتى إلا أن تفعل هذه الفاحشة في الهواء الطلق. وليس هناك من إثبات آخر لهذه الجريمة سوى الاعتراف، والمعترف هو يريد الطهارة لنفسه.

والأدلة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ علي وجوب تحكيم شرع الله وتطبيق حدوده ، أكثر من أن تستقصى في هذا المقام ، لذا سنكتفي بهذه الأدلة ، وقبل أن نواصل شرح الحدود التي تتضمنها سورة النور يجدر أن نبين ثمرة تطبيق الحدود بعد معرفتنا بوجوب تطبيقها .

ثالثا : الحبس ليس عقوبة شرعية

يقول الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق [اطلعت على ما نشرته (الوطن) يوم السبت ٢٣-١٢-١٩٧٨م حول الفتوى التي نسبتها إلى لجنة الفتوى بوزارة الأوقاف وذلك بإباحة الشرع للسجين أن يعاشر زوجته أثناء فترة سجنه، وقرأت التبرير الذي نسب إلى الشيخ عطية صقر والذي برر به هذه المعاشرة وجاء في معرض قوله: "عقوبة السجن يقصد بها التهذيب والتقويم". وقوله: "وإننا نرى أنه لا بأس من أن يكون للسجين فرصة للقاء

زوجته على أن لا يكون ذلك بصفة دائمة، أو مرات متقاربة حتى لا يستمرى حياة السجن ما دامت مطالبته ومشتهياته كلها في متناوله، بل يكون هذا اللقاء في فترات متباعدة ليبقى لديه الإحساس بمرارة الحرمان والندم على ذنبه"أ. هـ.

وحيث أن هذه الفتوى تعد ترفيعاً خطيراً للقانون الوضعي (المخالف للشرعية الإسلامية) وكذلك تعتبر تأييداً وتدعيماً لعقوبة "لا إنسانية" وهي السجن، فإننا رأينا من واجبنا أن نرد على ذلك مبينين أن عقوبة السجن ليست عقوبة شرعية حتى يستفتي المسلمون في شأن إصلاحها، وكذلك فالسجن أيضاً ليست عقوبة إنسانية، بل نراها جريمة ترتكب باسم العدالة، وإلحكم الأدلة والبيان لما قدمنا:

عقوبة السجن ليست عقوبة شرعية:

- I. وهذا الحكم تقريباً من المعلوم في الدين ضرورة فلم ترد كلمة السجن والحبس في الكتاب والسنة كعقوبة محكمة (غير منسوخة) قط.
 - II. وأما الدليل الآخر الذي قد يفهم منه بعض الناس أن الحبس عقوبة شرعية، فهو النفي أو التغريب، الذي جاء في قوله تعالى في شأن المفسدين في الأرض: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا، أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ (المائدة: ٣٣) الآية.
- وقد ذكر الله هذا (النفي) على أنه عقوبة شرعية، وكذلك جاء في حديث عبادة بن الصامت الذي ذكرناه آنفاً في شأن عقوبة الزاني البكر قوله ﷺ: (والبكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام) ، فالتغريب المذكور هنا في الحديث يعني الإبعاد عن مسرح الجريمة.. وقد فهم بعض الناس كما ذكرت آنفاً أن "النفي والتغريب" في الآية والحديث يعني السجن، أو يقوم السجن مقامه، وهذا قياس بعيد جداً فالمنفي يمارس حياته كاملة في منفاه وإن كان يراقب أو "تحدد إقامته" كما هو اصطلاح العصر وكذلك من حكم عليه بالتغريب فإنه يمارس أيضاً حياته كاملة، والسجن أيضاً عقوبة تختلف عن هذا تماماً.

III. وقد يستدل بعض الناس أن السجن عقوبة شرعية لأن بعض الخلفاء قد اتخذوا السجن، وعاقبوا بهذه العقوبة، فالجواب عن ذلك أنه لم يعاقب خليفة راشد قط بالسجن كعقوبة لحد من حدود الله تعالى كسرقة وقتل وزنا ونحو ذلك من العقوبات التي جاء لها حدود في الشريعة الإسلامية وإنما عاقب بعض الخلفاء بالسجن كعقوبة تعزيرية في الجرائم التي لم ينزل تحديد شرعي بعقوبتها، كما عاقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النشوز، والهجاء وقد كانت هذه العقوبة يوماً واحداً أو أياماً قليلة، وهذا في الحقيقة نوع من التوقيف والتعزير، وليس هذا عقوبة شرعية ولذلك نص من أباح السجن في مثل هذه التعازير أن لا يزيد عن سنة بحال حتى لا يجاوز الحد الشرعي في التغريب، وهذا على كل حال ليس دليلاً شرعياً لأن هذا اجتهاد لسنا ملزمين بالأخذ به وخاصة إذا كانت كل الشواهد تدل على أن السجن قد أضحى مدرسة للإجرام وليس إصلاحاً وتهذيباً كما يزعمون.

السجن هو صلب العقوبات الوضعية

وبينما نرى أن الشريعة المطهرة استبعدت "السجن" تماماً كعقوبة شرعية (أي منصوص عليها، وإنما السجن في الشريعة مجرد إيقاف احتياطي على ذمة التحقيق أو تعزيراً باجتهاد القاضي لا يتعدى الأيام المحدودة) ، فإن القوانين الوضعية جعلت عقوبة السجن هي العقوبة الأساسية في كافة الجرائم على اختلاف صورها وأشكالها. فالسجن هو عقوبة في جرائم القتل، والعدوان على ما دون النفس، والسرقعة، والنصب والتزوير وكل الجرائم المالية، وكذلك جعلته عقوبة للاغتصاب وما تعتبره جرائم خلقية، والأدهى من ذلك أيضاً أنها جعلته عقوبة فيما يشبه الجريمة وليس بجريمة أصلاً كقتل الخطأ الذي لا يد فيه للقاتل، وكحيازة الأسلحة، بل ومن أعجب العجب أنها جعلته عقوبة لما أسمته بجرائم الرأي، وقد بالغت القوانين الوضعية في هذه العقوبة فحكمت بالسجن المؤبد مطلقاً حتى الموت بل والسجن مائة سنة ومائة ونيف، ومن المعلوم عادة أن الإنسان لا يعمر على هذا النحو^(٧٩)

رابعاً : أهداف ومميزات تطبيق الحدود

للعقوبة في الإسلام أهداف وحكم محددة هي: التطهير، والزجر ،
والقصاص، والتعويض ، و"السجن" كعقوبة لا يحقق شيئاً من هذه الحكم
ولا الأهداف، بل على العكس من ذلك فإنه يحقق من الفساد أضعاف ما قد
يوجد فيه من مصالح تافهة وإليك التفصيل في كل ذلك:

التطهير :

فرض الله سبحانه وتعالى الحدود في الإسلام (العقوبات الشرعية المنصوص
عليها) مطهرات للذنوب التي ارتكبتها أصحابها وعوقبوا عليها كما في حديث
عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: [بايعوني على أن لا تشركوا بالله
شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين
أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن
أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له] ^(٨٠) الحديث.

وهذه الكفارة مطلوبة عند المسلم الذي يخاف عقوبة الله في الآخرة وكذلك
هي ماحية للذنوب عند الله سبحانه في الآخرة حتى لو لم يرد (المحدود)
المعاقب في حد شرعي بالتطهير. وهذا في ذاته نفع لصاحبه. ومعلوم قطعاً
أن الذي ينفذ فيه حد غير شرعي كالسجن مثلاً فإن جانب التطهير منتف من
لأن الطهارة الشرعية من الذنب حق من حقوق الله تعالى إذ لا يغفر الذنوب
إلا هو سبحانه وتعالى، ولا يغفر الله الذنب إلا بالطرق التي شرعها لذلك.
ومعنى هذا أن الذين تطبق عليهم عقوبات وضعية فإنما نفتنهم ونعذبهم فقط
دون أن يعود عليهم مردود ديني وهذا في نفسه ظلم للعباد كما أنه جريمة
في حق الله سبحانه وتعالى لأننا بذلك نعذب العباد بما لا يرضاه الله وما لم
يشرعه. وهذا ظلم آخر.

٨٠ صحيح البخاري كتاب الإيمان رقم (١٨) وكتاب مناقب الأنصار باب وفود الأنصار إلى النبي رقم (٣٨٩٢)

الزجر :

الحكمة الثانية التي من أجلها شرع الله الحدود في الإسلام هي الزجر أعني ردع المجرم نفسه عن معاودة الجرم، وكذلك ردع غيره إذا رأى العقوبة وعابن جزاء الجرم، ولذلك فرض الله في عقوبة الزنا أن يشهدا طائفة من المؤمنين كما قال تعالى: {الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين} (النور: ٢) ، وهذه الشهادة من أقوى عوامل الردع والزجر عن المعصية. وقد أثبتت المشاهدات، والاستقراء على أن الحدود الشرعية ما طبقت في مكان ما إلا وقتلت الجريمة في مهدها وأمن الناس على أموالهم ودمانهم وأعراضهم. والعكس تماماً في "السجن" كعقوبة وضعية، فقد دلت الإحصائيات والمشاهدات والاستقراء أن غالبية المسجونين يعودون بعد خروجهم، إلى نفس الجرم الذي سجنوا من أجله، وأن هذه العقوبة لا تشكل أي زجر للناس لأنها تفعل في السر ونادراً ما يراها عامة الناس، بل من الناس من لا يعرف شيئاً عما يدار في السجون أصلاً. ولذلك فهي لا تشكل أي نوع من الزجر عن الجريمة، وهذه حكمة أخرى منتفية من هذه العقوبة الوضعية.

القصاص :

الحكمة الثالثة من العقوبات الشرعية هي القصاص ومعنى القصاص أن نأخذ من الجاني بقدر جنايته فالنفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والسن بالسن والقصاص عادل وجزاء مكافئ تماماً للجريمة فليست نفس الجاني ولا عينه بأعز وأعلى من نفس وعين المجني عليه.. والسجن إذا استبدل بالقصاص فإنه أولاً جزاء غير مكافئ للجريمة، وهذا في نفسه ظلم وتحيز من المجتمع أو المشرع للجاني، فكان الجاني هو أولى بحماية المجتمع من البريء المعتدى عليه، فإذا أضاف المجتمع تعهد السجون بالعناية والرفاهية فكأنه يقدم للمجرمين برهاناً جديداً على أنهم أولى في نظره من المظلومين البريئين المعتدى عليهم، وهذا غاية في الجهل والحماقة. والشرعية المطهرة بريئة من هذه الحماقات الوضعية في أبواب

الجرائم، ولذلك نسمع كل يوم بأنواع من الإجرام لم تكن معلومة، في السابق، كالجرائم "السادية" ومصاصي الدماء، والجرائم الجنسية المروعة وهذا بالفعل إفراز طبيعي لهذه القوانين التي تحمي المجرمين وترضى بوقوع الظلم على المسالمين.

التعويض :

والحكمة الرابعة من حكم العقوبات في الإسلام هي التعويض للمجني عليه كالدية، في جرائم القصاص،
وتغريم أثمان المتلفات وهذا في ذاته عدل لأن التعويض المالي للمعتدى عليه حق له إذا فقد نفسه فهو لورثته وإذا فقد عضواً منه، وكذلك إذا فقد شيئاً من ممتلكاته. وأما السجن للمجرم فهو لا يعوض المجني عليه شيئاً من ذلك، فماذا يستفيد المجني عليه من سجن الجاني سنة، أو سنتين فهذا لا يشفي صدره، ولا يعوضه شيئاً عن مظلّمته.

وهكذا يفقد السجن كعقوبة عمياء كل حكمة العقوبات الشرعية ويبقى التمسك به نوعاً من التمسك بالباطل واتباعاً لسبيل المجرمين الذين استبدلوا تشريع الله بتشريع أهل الأهواء والعمى من واضعي القوانين. فإذا أضفنا إلى هذا أيضاً مفاصد السجون فإن هذه العقوبة تصبح أماناً هي الجريمة بعينها. فضلاً عن الميزانية الضخمة التي تتطلبها تشييد وإدارة السجون والتي تشكل عبئاً إضافياً على المجني عليهم .

خامساً : أنواع الحدود ومقاصد الشريعة

جعلت الحدود لتحقيق مقاصد الشريعة التي جمعها رسول الله ﷺ في خطبة الوداع ، كما وردت في الحديث المتفق عليه ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَعْدَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ - أَوْ بِرَمَامِهِ - قَالَ: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا»، فَسَكَنَّا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سَيَّوَى اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا» فَسَكَنَّا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ

يَوْمَكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَيِّنَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ" (٨١)
وقد لخص العلماء الحدود فيما يلي:

حد القتل (القصاص) – لحفظ النفس

حد السرقة – لحفظ المال

حد الزنا – لحفظ النسل

حد القذف واللعان – لحفظ العرض

حد الردة – لحفظ الدين

حد الخمر – لحفظ العقل

حد الحرابة – لحفظ الأمن.

سادسا : الفرق بين الحدود والعقوبات التعزيرية

الحدود جمع حد ، والحد في الإصطلاح الفقهي هو عقوبة مقدرة شرعا في معصية معينة لمنع الوقوع في مثلها ، يغلب فيها حق الله ويطبقها الإمام (الحاكم) أو نائبه ، والعقوبات المقدرة هي حد الزنا والخمر والقصاص والديات والكفارات مثل كفارة اليمين والظهار وغيرها ، أما العقوبات الغير مقدرة هي العقوبات التعزيرية.

والعقوبات التعزيرية هي عقوبات يقدرها الحاكم ، وهي ليست حدا بالمعنى الإصطلاحي ولكنها تعتبر حدا بالمعنى الشرعي العام ، والمقصود شرعا أن يكون تقديرها من قبل الشارع إما بكتاب أو سنة أو إجماع ، وهذا القيد يبين أن العقوبة في الإسلام ولو كانت تعزيرية لا بد أن يكون لها أصل في

٨١ صحيح البخاري كتاب العلم ، باب رب مبلغ أوعى من سامع رقم ٦٧ ، [١٠٥ ، ١٦٥٤ ، ٣٠٢٥ ، ٤١٤٤ ، ٤٣٨٥ ، ٥٢٣٠ ،

٦٦٦٧ ، ٧٠٠٩ ، وصحيح مسلم رقم [١٦٧٩]

الشرع ، وأن تحقق مقصود الشارع من حفظ الدين والنفس والمال والعرض والنسل والأمن.

الفرق بين الحدود والعقوبات التعزيرية ما يلي : (٨٢)

(١) الأغلب في الحدود حق الله تعالى ، والأغلب في العقوبات التعزيرية حق الآدمي.

(٢) لا تجوز الشفاعة في الحدود مطلقاً بعد بلوغها الحاكم مطلقاً ، والعقوبات التعزيرية تجوز فيها الشفاعة .

(٣) لا يجوز العفو في الحدود لأنها حق الله ، بينما يجوز العفو في العقوبات التعزيرية.

(٤) لا يجوز المصالحة في الحدود ، وتجوز المصالحة في العقوبات التعزيرية .

(٥) الحدود لا تورث لأنها حق الله ، والعقوبات التعزيرية يورث لأنها حق الآدمي

(٦) في الحدود إذا تاب العبد قبل أمره للإمام يستر عليه وتقبل توبته بشرط تأدية حقوق المجني عليهم ، أما في الجنايات لا تبرأ ذمته إلا بالقصاص.

يشرع للحاكم درأ الحدود بالشبهات إذا سلم الفاعل نفسه للحاكم إختياراً وظهرت عليه بوادر التوبة ، ولا يشرع ذلك في الجنايات. فالقاضي والحاكم يجب أن يتثبت ويتيقن قبل أن يصدر الحكم على الجاني وعليه أن يدفع العقوبة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إذا وجد أن هناك احتمالاً يكذب الشهود، أو التعجل في الاعتراف، أو نقص الأدلة. وليس معنى هذا هو اللجوء إلى الشبهات لدرء مشروعية الحد من أساسه .

سابعا : شروط إقامة الحدود

لاتقام الحدود إلا بثلاثة شروط :

الشرط الأول العقل : فلا يقام الحد علي المجنون أو من لم يعقل لقول عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال " رفع القلم عن ثلاث ، عن النائم حتي

يستيقظ وعن الصبي حتي يحتلم وعن المجنون حتي يعقل " (٨٣)
الشرط الثاني الإلتزام : أن يكون الفاعل للمعصية ملزماً بأحكام المسلمين
مسلماً كان أو ذمياً بخلاف الحربي أو المستأمن
الشرط الثالث العلم بالتحريم : أي يكون الفاعل عالماً بتحريم المعصية وليس
بعقوبتها ، فمن علم بتحريم شيء ، ولم يعلم ما يترتب عليها لا يدرأ عنه
العقوبة .

وسورة النور تتضمن أهم الأحكام التي تحمي المجتمع من جريمة الزنا ،
وعلي رأس هذه الأحكام ، حد الزنا والقذف واللعان ، والأحكام التي تنظم
حركة المرأة في المجتمع بما فيها من زينة وإختلاط ، والآداب العامة كغض
البصر ، والإستئذان ، وإلقاء السلام ، والدخول علي النساء.
وقد وردت أحكام حدود الزنا والقذف واللعان في تسع آيات فقط من سورة
النور ، من الآية الثانية إلي الآية العاشرة ، ومع ذلك إستغرق شرحها وبيان
تفاصيلها صفحات مطولة من المفسرين والفقهاء ، وهذه سمة في كتاب الله
تعالى وهي ورود الأحكام في أقل عبارات وبأكمل المعاني.

الفصل الثاني

حد الزنا

تهيأة النفوس للحدود

بدأت سورة النور بقول الله تعالى { سُوْرَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (١)

إنفردت سورة النور بهذا المطلع القوي الذي يشد إنتباه القارئ والمستمع معلنا عن نزول أوامر هامة في هذه السورة يلزم الإنتباه لها ووجوب العمل بها ، فلم تأت سورة بمثل هذا المدخل الفريد إلا سورة النور.

ويأتي تفرد هذا المدخل من ثلاث كلمات ، الكلمة الأولى هي كلمة {سُوْرَةٌ} ، فالعرب لم يعتادوا بدء الكلام بنكرات لذلك فسر بعض المفسرون قوله { سُوْرَةٌ أَنْزَلْنَاهَا } ، هذه سورة أنزلناها كما قال الطبري في جامع البيان [قال أبو جعفر: يعني بقوله تعالى ذكره: (سُوْرَةٌ أَنْزَلْنَاهَا) وهذه السورة أنزلناها. وإنما قلنا معنى ذلك كذلك؛ لأن العرب لا تكاد تبتدئ بالنكرات قبل أخبارها إذا لم تكن جوابا، لأنها توصل كما يوصل الذي، ثم يخبر عنها بخبر سوى الصلة، فيستقبح الابتداء بها قبل الخبر إذا لم تكن موصولة، إذ كان يصير خبرها إذا ابتدئ بها كالصلة لها، ويصير السامع خبرها كالمتوقع خبرها، بعد إذ كان الخبر عنها بعدها، كالصلة لها، وإذا ابتدئ بالخبر عنها قبلها، لم يدخل الشك على سامع الكلام في مراد المتكلم..] (٨٤)

والكلمة الثانية هي كلمة { أَنْزَلْنَاهَا } ، حيث أنه من المعلوم أن الله تعالى أنزل سور القرآن كلها ، وعندما يختص سورة بعينها بالتقديم بهذا الفعل ، فيه تنويه بالإعتناء والإهتمام بها ولا ينفي ذلك عن ما عداها ، كأن يقول قائل إستقبلت الضيوف وإستقبلت زيدا ، فيفهم من ذلك أن زيد يستحق إهتماما خاصا .

وقوله { وَفَرَضْنَاهَا } الفرض هو ما يأمرك تاركه ويثاب فاعله ، والشئ المفروض هو ما يعني أن العمل به واجب أي وجوب العمل بالأحكام والتشريعات الواجبة في السورة ، وهذا التفسير لقراءة فرضناها بالتخفيف ، يقول الطبري [(وَفَرَضْنَاهَا) بتخفيف الراء، بمعنى: أوجبنا ما فيها من الأحكام عليكم، وألزمناكموه وبيننا ذلك لكم ، وأما قوله: (وَفَرَضْنَاهَا) فإن

القرآن اختلفت في قراءته، فقرأه بعض قرأء الحجاز والبصرة: "وَفَرَضْنَاهَا" ويتأولونه: وفصلناها ونزلنا فيها فرائض مختلفة. [(٨٥)]
قال القرطبي [وَفَرَضْنَاهَا] فُرِيَ بِتَخْفِيفِ الرَّاءِ، أَيْ فَرَضْنَا عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ مَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ. وَبِالتَّشْدِيدِ: أَيْ أَنْزَلْنَا فِيهَا فَرَائِضَ مُخْتَلِفَةً. وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: {وَفَرَضْنَاهَا} بِالتَّشْدِيدِ أَيْ قَطَعْنَاهَا فِي الْإِنْزَالِ نَجْمًا نَجْمًا. وَالْفَرَضُ الْقَطْعُ، وَمِنْهُ فَرَضَةُ الْقَوْسِ. وَفَرَائِضُ الْمِيرَاثِ وَفَرَضُ النَّفَقَةِ. وَعَنْهُ أَيْضًا: {فَرَضْنَاهَا} فَصَلْنَاهَا وَبَيَّنَّاهَا. وَقِيلَ: هُوَ عَلَى التَّكْثِيرِ، لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْفَرَائِضِ. [(٨٦)]

تفاصيل حد الزنا

بعد هذا التقديم المثير للسورة تأتي مباشرة آية حد الزنا بقوله تعالى { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) }

قال القرطبي [قَوْلُهُ تَعَالَى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي} كَانَ الزَّانِي فِي اللُّغَةِ مَعْرُوفًا قَبْلَ الشَّرْعِ، مِثْلُ اسْمِ السَّرْقَةِ وَالْقَتْلِ. وَهُوَ اسْمُ لَوْطِي الرَّجُلِ امْرَأَةً فِي فَرْجِهَا مِنْ غَيْرِ نِكَاحٍ وَلَا شُبْهَةِ نِكَاحٍ بِمُطَاوَعَتِهَا. وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: هُوَ إِدْخَالُ فَرْجٍ فِي فَرْجٍ مُشْتَبَهٍ طَبْعًا مُحَرَّمٌ شَرْعًا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ وَجَبَ الْحَدُّ. وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِي حَدِّ الزَّانِي وَحَقِيقَتِهِ وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ. وَهَذِهِ الْآيَةُ نَاسِخَةٌ لِآيَةِ الْحَبْسِ وَآيَةِ الْأَدَى اللَّتَيْنِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ بِاتِّفَاقٍ. [(٨٧)]

[ومعني الزنا في اللغة هو الوطأ من غير نكاح ولا ملك يمين ، كما يطلق في اللغة علي مقدمات الوطأ كالتقبيل واللمس والنظر وغير ذلك] (٨٨)

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّانَا، مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زَنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زَنَاهُمَا الْإِسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زَنَاها الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زَنَاها الْخَطَا،

٨٥ نفس المصدر السابق

٨٦ تفسير القرطبي ص ١٥٨ - سورة النور - المكتبة الشاملة الحديثة

٨٧ نفس المصدر السابق

٨٨ فقه الحدود - الدكتور يوسف الشبيلي - موقع صيد الفوائد

وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ^(٨٩)
[والزنا في الإصطلاح الشرعي : هو الوطأ في القبل من غير نكاح صحيح أو ملك يمين. وهذا التعريف يخرج اللواط من حد الزنا بسبب إشتراط (القبل) ، وهذا من مواضع الخلاف بين الفقهاء ، وسيأتي الكلام عن ذلك . وإشتراط النكاح الصحيح خرج به الوطء في النكاح فإنه مشروع ولا حرج فيه ، أما الوطء في النكاح الباطل فهو زنا ، كما لو عقد على امرأة وهي في العدة أو عقد على خامسة ، فالعقد باطل ، ولو وطئها فهما زانيان يقام عليهما الحد إذا لم يكونا جاهلين جهلاً يعذران فيه مثل أن يكونا حديثي عهد في الإسلام ونحو ذلك .
النكاح يكون على ثلاثة أنواع :

- نكاح صحيح : وهو ما توفرت شروطه من إيجاب وقبول ، ومهر ، وولي ، وشهود ، وإشهار والخلو من الموانع الشرعية ، كنكاح المحرمات وغيره.
- ونكاح فاسد : وهو ما اختل فيه شرط من الشروط المختلف فيها بين أهل العلم المعتبرين ، أو هو ما اختلف أهل العلم في فساده ، مثل النكاح بلا ولي ، أو بلا شهود ، والنكاح بنية الطلاق ، ونحو ذلك ، فالوطء في مثل هذا العقد لا يوجب الحد لوجود الشبهة ، ولكن للقاضي - إذا كان يرى فساد هذا العقد أن يعزرهما بما يراه مناسباً دون الحد
- ونكاح باطل : وهو ما اختل فيه شرط من الشروط المجمع عليها ، أو هو ما اتفق أهل العلم على بطلانه ، مثل نكاح المسلمة للكافر ، ونكاح المعتدة ، ونكاح المتعة ، ونكاح الخامسة ، ونكاح المحرمات كالعمة وزوجة الابن وأخته من الرضاعة ، والجمع بين الأختين ونحو ذلك ، فالوطء في مثل هذا العقد يوجب الحد لعدم وجود شبهة تدرؤه^(٩٠) .

٨٩ صحيح مسلم - باب قدر على ابن آدم حظاً من الزنا وغيره - رقم (٢٦٥٧) ، وصحيح البخاري رقم (٦٢٤٣)

٩٠ فقه الحدود - الدكتور يوسف الشبيلي - موقع صيد الفوائد (بتصرف بسيط)

يقول ابن كثير [ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ} هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا حُكْمُ الزَّانِي فِي الْحَدِّ، وَلِلْعُلَمَاءِ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَنِزَاعٌ؛ فَإِنَّ الزَّانِيَّ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ بَكْرًا، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَتَزَوَّجْ، أَوْ مُحْصَنًا، وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ، وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ. فَأَمَّا إِذَا كَانَ بَكْرًا لَمْ يَتَزَوَّجْ، فَإِنَّ حُدَّه مِائَةُ جَلْدَةٍ كَمَا فِي الْآيَةِ وَيَزَادُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُغْرَبَ عَامًا عَنْ بَلَدِهِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فَإِنَّ عِنْدَهُ أَنَّ التَّغْرِيبَ إِلَى رَأْيِ الْإِمَامِ، إِنْ شَاءَ غَرَبٌ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَغْرَبْ.] (٩١)

وهذا المقام لا يتسع لسبر أغوار الخلاف بين العلماء في حد الزنا لتعدد الآراء فيها ، وقد اختلف الفقهاء في جملة من الأحكام المتعلقة بجريمة الزنا، والحد المترتب على هذه الجريمة، وقد أحصى ابن رشد في بداية المجتهد المسائل التي اختلفوا فيها في هذا الباب فبلغت نحو عشرين مسألة (٩٢) يمكن الرجوع إليه.

وما يعيننا في هذا المقام هو السعي لإيقاظ وتنبيه القلوب الغافلة عن بشاعة جريمة الزنا ، وتحريك النفوس المؤمنة لرفضها ورفض مقدماتها التي تفشت في حياة المسلمين بشكل غير مسبوق ، ورغم أن الآيات التي بين أيدينا تتحدث عند حد الزنا ومواصفاته إلا أننا كنا نتمنى لو حرص المسلمون علي عدم الإقتراب من هذه الجريمة التي يعتبرها الإسلام فاحشة من كبائر الفواحش، وقد شدد القرآن الكريم في النهي عنه، وذلك في قوله تعالى {وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} (٣٢) وَقَدْ ذَكَرَ الزَّانِيَةُ عَلَى الزَّانِي لِلْإِهْتِمَامِ بِالْحُكْمِ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ الْبَاعِثُ عَلَى زَنِى الرَّجُلِ وَيُمْسَاعِفَتِهَا الرَّجُلُ يَحْصُلُ الزَّانِي وَلَوْ مَنْعَتِ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا مَا وَجَدَ الرَّجُلُ إِلَى الزَّانِي تَمْكِينًا، فَتَقْدِيمُ الْمَرْأَةِ فِي الذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَشَدُّ فِي تَحْذِيرِهَا. وَقَوْلُهُ: كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدُهُمَا بِأُولَى بِالْعُقُوبَةِ مِنَ الْآخَرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: {مِائَةَ جَلْدَةٍ} هَذَا حَدُّ الزَّانِي الْحُرِّ الْبَالِغِ الْبَكْرِ، وَكَذَلِكَ الزَّانِيَةُ الْبَالِغَةُ الْبَكْرُ الْحُرَّةُ. وَثَبَّتَ بِالسُّنَنِ تَغْرِيبُ عَامٍ، عَلَى الْخِلَافِ فِي ذَلِكَ. وَأَمَّا

٩١ تفسير ابن كثير ت سلامة - النور - ص ٥ المكتبة الشاملة الحديثة

٩٢ ابن رشد (الحفيد)، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد القرطبي الأندلسي، ت ٥٩٥ هـ ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ٩٠٢:٢٢٣٥/٤ تحقيق د. عبد الله

العيادي، دار السلام ، القاهرة، ط ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٥م

الْمَمْلُوكَاتُ فَالْوَجِبُ خَمْسُونَ جَلْدَةً، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ } [النساء: ٢٥] وَهَذَا فِي الْأَمَةِ، ثُمَّ الْعَبْدُ فِي مَعْنَاهَا. وَأَمَّا الْمُحْصَنُ مِنَ الْأَحْرَارِ فَعَلَيْهِ الرَّجْمُ دُونَ الْجَلْدِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَقُولُ: يُجْلَدُ مِائَةً ثُمَّ يُرْجَمُ.

قال القرطبي [لَا خِلَافَ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهَذَا الْأَمْرِ الْإِمَامُ وَمَنْ نَابَ نَابَ مَنَابِهِ. وَزَادَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ: السَّادَةُ فِي الْعَبِيدِ. قَالَ الشَّافِعِيُّ: فِي كُلِّ جَلْدٍ وَقْطَعٌ. وَقَالَ مَالِكٌ: فِي الْجَلْدِ دُونَ الْقُطْعِ. وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِلْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّ إِقَامَةَ مَرَاسِمِ الدِّينِ وَاجِبَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ الْإِمَامُ يَنْوِبُ عَنْهُمْ، إِذْ لَا يُمْكِنُهُمُ الْاجْتِمَاعُ عَلَى إِقَامَةِ الْحُدُودِ.] ثُمَّ قَالَ [وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَشَدِّ الْحُدُودِ ضَرْبًا، قَالَ مَالِكٌ وَأَصْحَابُهُ وَاللِّيتُ بْنُ سَعْدٍ: الضَّرْبُ فِي الْحُدُودِ كُلِّهَا سَوَاءً ضَرْبٌ غَيْرُ مَبْرَحٍ، ضَرْبٌ بَيْنَ ضَرْبَيْنِ. وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ: التَّعْزِيرُ أَشَدُّ الضَّرْبِ، وَضَرْبُ الزَّانِي أَشَدُّ مِنَ الضَّرْبِ فِي الْخَمْرِ، وَضَرْبُ الشَّارِبِ أَشَدُّ مِنَ ضَرْبِ الْقَذْفِ.]

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: ضَرْبُ الزَّانِي أَشَدُّ مِنَ ضَرْبِ الْقَذْفِ، وَضَرْبُ الْقَذْفِ أَشَدُّ مِنَ ضَرْبِ الْخَمْرِ. اِحْتَجَّ مَالِكٌ بِوُرُودِ التَّوْقِيفِ عَلَى عِدَدِ الْجَلَدَاتِ، وَلَمْ يَرِدْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا تَخْفِيفٌ وَلَا تَثْقِيلٌ عَمَّنْ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ. اِحْتَجَّ أَبُو حَنِيفَةَ بِفِعْلِ عَمْرٍ، فَإِنَّهُ ضَرْبٌ فِي التَّعْزِيرِ ضَرْبًا أَشَدَّ مِنْهُ فِي الزَّانِي.

احتج الثوري بأن الزنى لما كان أكثرَ عددًا في الجَلَدَاتِ اسْتَحَالَ أَنْ يَكُونَ الْقَذْفُ أَبْلَغَ فِي النِّكَايَةِ. وَكَذَلِكَ الْخَمْرُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتِ الْحُدُّ إِلَّا بِالِاجْتِهَادِ، وَسَبِيلُ مَسَائِلِ الْاجْتِهَادِ لَا يَقْوَى قُوَّةَ مَسَائِلِ التَّوْقِيفِ.] وَقَالَ أَيْضًا [الْحُدُّ الَّذِي أَوْجَبَ اللَّهُ فِي الزَّانِي وَالْخَمْرِ وَالْقَذْفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُقَامَ بَيْنَ أَيْدِي الْحُكَّامِ، وَلَا يُقِيمُهُ إِلَّا فُضَلَاءُ النَّاسِ وَخِيَارُهُمْ يَخْتَارُهُمُ الْإِمَامُ لِذَلِكَ.]

وَكَذَلِكَ كَانَتِ الصَّحَابَةُ تَفْعَلُ كُلَّمَا وَقَعَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ قِيَامٌ بِقَاعِدَةٍ شَرْعِيَّةٍ وَقُرْبَةٍ تَعْبُدِيَّةٍ، تَجِبُ الْمُحَافَظَةُ عَلَى فِعْلِهَا وَقُدْرَتِهَا وَمَحَلِّهَا وَحَالِهَا، بِحَيْثُ لَا يَتَعَدَّى شَيْءٌ مِنْ شُرُوطِهَا وَلَا أَحْكَامِهَا، فَإِنَّ دَمَ الْمُسْلِمِ وَحَرَمَتَهُ عَظِيمَةٌ، فَيَجِبُ مُرَاعَاتُهُ بِكُلِّ مَا أَمَكَنَ [٩٣]

يقول ابن كثير [وَقَوْلُهُ: {وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} أَي: فِي حُكْمِ اللَّهِ. لَا تَرْجُمُوهُمَا وَتَرَأَّفُوا بِهِمَا فِي شَرَعِ اللَّهِ، وَلَيْسَ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ الرَّأْفَةُ الطَّبِيعِيَّةُ إِلَّا تَكُونَ حَاصِلَةً عَلَى تَرْكِ الْحَدِّ، وَإِنَّمَا هِيَ الرَّأْفَةُ الَّتِي تَحْمِلُ الْحَاكِمَ عَلَى تَرْكِ الْحَدِّ فَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: {وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} قَالَ: إِقَامَةُ الْحُدُودِ إِذَا رُفِعَتْ إِلَى السُّلْطَانِ، فَتُقَامَ وَلَا تَعْطَلُ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "تَعَاَفُوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجِبَ". (٩٤)

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: "لَحَدٌّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ، خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا" (٩٥)

وَقِيلَ: الْمُرَادُ: {وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ} فَلَا تُقِيمُوا الْحَدَّ كَمَا يَنْبَغِي، مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبِ الرَّاجِعِ عَنِ الْمَأْثَمِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الضَّرْبُ الْمَبْرَحَ. [انتهى (٩٦)]

أي لا تلتينوا في تطبيق حكم الله وترق قلوبكم في إقامة الحد ، وقد علم الله مافي قلوب عباده من ضعف ولين فنهى أن أقل رحمة ممكنة بهؤلاء الزناة وهي الرأفة ، وهذا من دقة التعبير القرآني وهو إستعمال كلمة الرأفة بدلا من الرحمة لأن الرأفة أرق من الرحمة .

قال البقاعي في نظم الدرر [لأن من شأن كل من يجوز على نفسه الوقوع في مثل ذلك أن يرحمهما فقال: {وَلَا تَأْخُذْكُمْ} أي على حال من الأحوال {بهما رأفة} أي لين، ولعله عبر بها إعلاماً بأنه لم ينه عن مطلق الرحمة، لأن الرأفة أشد الرحمة أو أرقها وتكون عن أسباب من المروءف به، وكذا قوله: {فِي دِينِ اللَّهِ} أي الذي شرعه لكم الملك المحيط بصفات الكمال - إشارة إلى أن الممنوع منه رحمة تؤدي إلى ترك الحد أو شيء منه أو التهاون به أو الرضى عن منتهكه لا رقة القلب المطبوع عليها البشر كما يحكى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه بكى يوم فتحت قبرص وضربت

٩٤ رواه أبو داود في السنن برقم (٤٣٧٦) والنسائي في السنن (٧٠/٨) من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه،

٩٥ المسند (٣٦٢/٢) والنسائي في السنن (٧٥/٨) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

٩٦ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ١٠ - المكتبة الشاملة الحديثة

رقاب ناس من أسراها فقيّل له: هذا يوم سرور، فقال: هو كذلك، ولكني أبكي رحمة لهؤلاء العباد الذين عصوا الله فخذلهم وأمكن منهم. [٢٠] وقوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [النور: ٢] هذا كلام مُوجع، وإهاجة لجماعة المؤمنين، فهذا هو الحكم، وهذا هو الحدّ قد شرعه الله، فإن كنتم مؤمنين بالله وبالحساب والعقاب فطيقوا شرع الله، وإلّا فراجعوا إيمانكم بالله وباليوم الآخر لأننا نشكّ في صدق هذا الإيمان.

قوله تعالى: {وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} إتفق المفسرون والفقهاء في وجوب إقامة الحد علي مرأى طائفة من المؤمنين ، وإختلفوا في تعيين العدد الذي يجب حضوره ، قال القرطبي [قَالَ مُجَاهِدٌ: رَجُلٌ فَمَا فَوْقَهُ إِلَى أَلْفٍ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَا بُدَّ مِنْ حُضُورِ أَرْبَعَةٍ قِيَاسًا عَلَى الشَّهَادَةِ عَلَى الزَّنَى، وَأَنَّ هَذَا بَابٌ مِنْهُ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَاللَّيْثِ وَالشَّافِعِيِّ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ: لَا بُدَّ مِنْ اثْنَيْنِ، وَهَذَا مَشْهُورٌ قَوْلُ مَالِكٍ، فَرَأَاهَا مَوْضِعَ شَهَادَةٍ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: ثَلَاثَةٌ، لِأَنَّهُ أَقَلُّ الْجَمْعِ. الْحَسَنُ: وَاحِدٌ فَصَاعِدًا، وَعَنْهُ عَشْرَةٌ. الرَّبِيعُ: مَا زَادَ عَلَى الثَّلَاثَةِ. وَحُجَّةُ مُجَاهِدٍ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} [التوبة: ١٢٢] وقوله {وَإِنْ طَائِفَتَانِ} [الحجرات: ٩]، وَنَزَلَتْ فِي تَقَاتُلِ رَجُلَيْنِ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى {وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} وَالْوَاحِدُ يُسَمَّى طَائِفَةً إِلَى الْأَلْفِ] (٩٧)

وقال البقاعي [{وليشهد} أي يحضر حضوراً تاماً {عذابهما طائفة} أي جماعة يمكن إطاقتها أي تحلقها وحفوفها بكل منهما {من المؤمنين} العريقين إشهاراً لأمرهما نكالا لهما، وعن نصر بن علقمة أن ذلك ليدعى لهما بالتوبة والرحمة. وفي كل هذا إشارة ظاهرة إلى أن إقامة الحدود والغلظة فيها من رحمته سبحانه المشار إليها بقوله {وأنت خير الراحمين} [المؤمنون: ١١٨] (٩٨)

لذلك يقولون: الحدود زواجر وجوابر، زواجر لمن شاهدها أي: تزجره عن ارتكاب ما يستوجب هذا الحدّ، وجوابر لصاحب الحد تجبر ذنبه وتُسقط عنه عقوبة الآخرة، فلا يمكن أن يستوي مَنْ أقر وأقيم عليه الحد بمن لم يقر،

٩٧ تفسير القرطبي ص ١٥٨ - سورة النور - المكتبة الشاملة الحديثة
٩٨ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ص ٢٠٥ - المكتبة الشاملة الحديثة

ولأن الزنا لم يثبت بشهود أبدأ، وإنما بإقرار، وهذا دليل على أن الحكم صحيح في ذهنه، ويرى أن فضوح الدنيا وعذابها أهون من فضوح الآخرة وعذابها، وإلا لما أقر على نفسه.

آية الزاني لا ينكح إلا زانية

ثم يقول الله تعالى {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)}
ظاهر اللفظ في هذه الآية يحمل إشكالا في فهم المقصود منها ، فإذا كانت جريمة الزنا لا تثبت إلا بشهود أربعة وإن ثبتت فيجب إقامة الحد ، فإذا كان الأمر هكذا فكيف يمكن تطبيق الفهم الظاهري للآية بالألا تتزوج الزانية إلا زان والعكس ، فهل نبحت عن الزناة ليتناكحوا ؟!!!!

كل هذه التساؤلات وغيرها أجاب عنها العلماء بإجابات تشرح صدور وتبعث علي الإطمئنان في النفوس ، وقد قال القرطبي [اختلف العلماء في معنى هذه الآية على ستة أوجه من التأويل] ، فالمعنى الظاهري للآية أن هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة. أي: لا يطأه على مراده من الزنى إلا زانية عاصية أو مشركة، لا ترى حرمة ذلك، وكذلك: {الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ} لا يعتد تحريره.

أول تفسير معتبر للآية نقله الحافظ ابن كثير قال [قَالَ سَفِيَانُ النَّوْرِيُّ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً} قَالَ: لَيْسَ هَذَا بِالنِّكَاحِ، إِنَّمَا هُوَ الْجَمَاعُ، لَا يَزْنِي بِهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ.] أي أن النكاح المقصود في الآية هو الجماع بدون زواج وهذا أمر لا يقدم عليه إلا من إعتاد الزنا أو مشرك لا يقر بضوابط الإسلام في علاقة الرجل بالمرأة.

ولذلك قال في قوله تعالى: {وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} أي: تَعَاطِيهِ وَالتَّزْوِيجُ بِالْبَغَايَا، أَوْ تَزْوِيجُ الْعَفَافِ بِالْفَجَّارِ مِنَ الرِّجَالِ.

ثم قال [وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} [النِّسَاء: ٢٥] وَقَوْلُهُ {مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ} الْآيَةُ [الْمَائِدَة: ٥] وَمِنْ هَاهُنَا ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، إِلَى أَنَّهُ

لَا يَصِحُّ الْعَقْدُ مِنَ الرَّجُلِ الْعَفِيفِ عَلَى الْمَرْأَةِ الْبَغِيِّ مَا دَامَتْ كَذَلِكَ حَتَّى تُسْتَنْتَابَ، فَإِنْ تَابَتْ صَحَّ الْعَقْدُ عَلَيْهَا وَإِلَّا فَلَا وَكَذَلِكَ لَا يَصِحُّ تَزْوِيجُ الْمَرْأَةِ الْخُرَّةِ الْعَفِيفَةِ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ الْمُسَافِحِ، حَتَّى يَتُوبَ تَوْبَةً صَحِيحَةً؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [٩٩]

وقد وردت بعض الروايات الصحيحة تثبت نزول هذه الآية في مناسبة معينة تزيل الإشكال في فهمها ، وملخص هذه الروايات أن رجلاً يقال له مرثد ابن أبي مرثد كان يحمل الأساري من مكة إلى المدينة ، راودته امرأة بغية في مكة يقال لها "عناق" ، وفي رواية "أم مهزول" - راودته عن نفسه ليتزوجها ، ولكونه يعلم أنه بغية في مكة، أبي عليها حتي أتى رسول الله ﷺ وسأله ، فلم يجبه حتي نزلت هذه الآية

ونص الحديث عند الترمذي قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَخْسَسِ، أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ "مَرْتَدُ بْنُ أَبِي مَرْتَدٍ" وَكَانَ رَجُلًا يَحْمِلُ الْأَسَارَى مِنْ مَكَّةَ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمُ الْمَدِينَةَ. قَالَ: وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِي بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهَا "عَنَاقُ"، وَكَانَتْ صَدِيقَةً لَهُ، وَأَنَّهُ وَاعَدَ رَجُلًا مِنْ أَسَارَى مَكَّةَ يَحْمِلُهُ. قَالَ: فَجِئْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى ظِلِّ حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ مُقَمَّرَةٍ، قَالَ: فَجَاءَتْ "عَنَاقُ" فَأَبْصَرْتُ سَوَادَ ظِلِّي تَحْتَ الْحَائِطِ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَيْ عَرَفْتَنِي ، فَقَالَتْ: مَرْتَدُ؟ فَقُلْتُ: مَرْتَدُ فَقَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا هَلُمَّ فَبِئْتُ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ. قَالَ: فَقُلْتُ يَا عَنَاقُ، حَرَّمَ اللَّهُ الزَّانِيَ. فَقَالَتْ يَا أَهْلَ الْخِيَامِ، هَذَا الرَّجُلُ يَحْمِلُ أَسْرَاكُم. قَالَ: فَتَبِعَنِي ثَمَانِيَّةٌ وَدَخَلْتُ الْحَنْدَمَةَ فَأَنْتَهَيْتُ إِلَى غَارٍ -أَوْ كَهْفٍ فَدَخَلْتُ فِيهِ فَجَاءُوا حَتَّى قَامُوا عَلَى رَأْسِي فَبَالُوا، فَظَلَّ بَوْلُهُمْ عَلَى رَأْسِي، فَأَعْمَاهُمْ اللَّهُ عَنِّي -قَالَ: ثُمَّ رَجَعُوا، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَحَمَلْتُهُ، وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْإِنْخَرِ، فَفَكَّكْتُ عَنْهُ أَكْبَلَهُ، فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَيَعِينَنِي، حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْكَحُ عَنَاقًا؟ أَنْكَحُ عَنَاقًا؟ -مَرَّتَيْنِ- فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا، حَتَّى نَزَلْتُ {الزَّانِيَ} لَا يَنْكَحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكَحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا مَرْتَدُ، {الزَّانِيَ} لَا يَنْكَحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ

مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةَ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ} ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. (١٠٠)

وفي الرواية الأخرى قَالَ النَّسَائِيُّ: أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْحَضَرَمِيِّ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كَانَتْ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا: "أُمُّ مَهْزُولٍ" وَكَانَتْ تُسَافِحُ، فَأَرَادَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}. (١٠١)

وفي التحرير والتنوير بعد أن ذكر ابن عاشور رواية "مرثد" ، إستند إليها في نفي أن يكون المقصود من النكاح في الآية هو الجماع فقال [فَتَبَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ جَوَابًا عَنْ سُؤَالِ مَرْثَدِ بْنِ أَبِي مَرْثَدٍ هَلْ يَتَزَوَّجُ عَنَاقٍ. وَمَثَارُ مَا يَشْكُلُ وَيَفْضُلُ مِنْ مَعْنَاهَا: أَنَّ النِّكَاحَ هُنَا عَقْدُ التَّزْوُجِ كَمَا جَزَمَ بِهِ الْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِثْلَ الزَّجَّاجِ وَالزَّمْخَشَرِيِّ وَغَيْرِهِمَا. وَأَنَا أَرَى لَفْظَ النِّكَاحِ لَمْ يُوضَعْ وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ إِلَّا فِي عَقْدِ الزَّوْجِ وَمَا انْتَبَقَ زَعْمُ أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَى الْوَطْءِ إِلَّا مِنْ تَفْسِيرِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَتَخَيَّرَ زَوْجًا غَيْرَهُ} [البقرة: ٢٣٠] بِنَاءً عَلَى اتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ مُجَرَّدَ الْعَقْدِ عَلَى الْمَرْأَةِ بِزَوْجٍ لَا يُحِلُّهَا لِمَنْ بَتَّهَا إِلَّا إِذَا دَخَلَ بِهَا الزَّوْجُ الثَّانِي.

ثم قال : وَفِيهِ بَحْثٌ طَوِيلٌ، لَيْسَ هَذَا مَحَلُّهُ، وَأَنَّهُ لَا تَرَدُّدٌ فِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ تَحْرِيمِ الزَّانِي إِذْ كَانَ تَحْرِيمُ الزَّانِي مِنْ أَوَّلِ مَا شَرَعَ مِنَ الْأَحْكَامِ فِي الْإِسْلَامِ كَمَا فِي الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ النَّازِلَةِ بِمَكَّةَ، وَأَنَّهُ يَلُوحُ فِي بَادِيِ النَّظَرِ مِنْ ظَاهِرِ الْآيَةِ أَنَّ صَدْرَهَا إِلَى قَوْلِهِ أَوْ مُشْرِكٌ إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ تَزَوُّجِ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ وَأَنَّهُ لَيْسَ لِتَشْرِيعِ حُكْمِ النِّكَاحِ بَيْنَ الزَّانَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نِكَاحٍ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ. فَإِذَا كَانَ إِخْبَارًا لَمْ يَسْتَقِمْ مَعْنَى الْآيَةِ إِذْ الزَّانِي قَدْ يَنْكِحُ الْحَصِينَةَ وَالْمُشْرِكُ قَدْ يَنْكِحُ الْحَصِينَةَ وَهُوَ الْأَكْثَرُ فَلَا يَسْتَقِيمُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً مَعْنَى، وَأَيْضًا الزَّانِيَةُ قَدْ يَنْكِحُهَا الْمُسْلِمُ الْعَفِيفُ لِرَغْبَةٍ فِي جَمَالِهَا

١٠٠ سنن الترمذي برقم (٣١٧٧) وسنن أبي داود برقم (٢٠٥١) وسنن النسائي (٦٦/٦) .

١٠١ النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٥٩) .

أَوْ لِيُنْقِذَهَا مِنْ عَهْرِ الزَّانِي وَمَا هُوَ بِزَانٍ وَلَا مُشْرِكٍ فَلَا يَسْتَقِيمُ مَعْنَى لِقَوْلِهِ: وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَإِنَّا لَوْ تَنَزَّلْنَا وَقَبَّلْنَا أَنْ تَكُونَ لِنَشْرِيعِ حُكْمٍ فَأَلْشَكَّالْ أَقْوَى إِذْ لَا مَعْنَى لِنَشْرِيعِ حُكْمِ نِكَاحِ الزَّانِي وَالزَّانِيَةِ وَالْمُشْرِكِ وَالْمُشْرِكَةِ فَتَعَيَّنَ تَأْوِيلُ الْآيَةِ بِمَا يُفِيدُ مَعْنَى مُعْتَبَرًا.

ثم خُصَّ ابنُ عاشورِ إلي أن الآيةَ تهدفُ إلي تشريعِ حكمٍ جديدٍ فقال : وَالْوَجْهُ فِي تَأْوِيلِهَا: أَنَّ مَجْمُوعَ الْآيَةِ مَقْصُودٌ مِنْهُ التَّشْرِيعُ دُونَ الْإِخْبَارِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي آخِرِهَا وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَلِأَنَّهَا نَزَلَتْ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ مَرْتَدٍّ تَرْوِجُهُ عِنَاقٌ وَهِيَ زَانِيَةٌ وَمُشْرِكَةٌ وَمَرْتَدٌّ مُسْلِمٌ تَقِيٌّ. غَيْرَ أَنَّ صَدْرَ الْآيَةِ لَيْسَ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالنَّشْرِيعِ بَلْ هُوَ تَمْهِيدٌ لِآخِرِهَا مُشِيرٌ إِلَى تَعْلِيلِ مَا شُرِعَ فِي آخِرِهَا، وَفِيهِ مَا يُفَسِّرُ مَرْجِعَ اسْمِ الْإِشَارَةِ الْوَاقِعِ فِي قَوْلِهِ: وَحَرَّمَ ذَلِكَ. وَأَنَّ حُكْمَهَا عَامٌّ لِمَرْتَدٍّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِحَقِّ عُمُومِ لَفْظِ الْمُؤْمِنِينَ. وَيَبْنِي عَلَى هَذَا التَّأْصِيلِ أَنَّ قَوْلَهُ: الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً تَمْهِيدٌ لِلْحُكْمِ الْمَقْصُودِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّهُ مَسْئُوقٌ مَسَاقَ الْإِخْبَارِ دُونَ التَّشْرِيعِ فَيَتَعَيَّنُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ لَفْظِ الزَّانِي الْمَعْنَى الْإِسْمِيَّ لِاسْمِ الْفَاعِلِ وَهُوَ مَعْنَى التَّلْبِيسِ بِمَصْدَرِهِ دُونَ مَعْنَى الْحُدُوثِ إِذْ يَجِبُ أَنْ لَا يُعْقَلَ عَنْ كَوْنِ اسْمِ الْفَاعِلِ لَهُ شَانِبَتَانِ: شَانِبَةٌ كَوْنِهِ مُشْتَقًّا مِنَ الْمَصْدَرِ فَهُوَ بِذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ، فَضَارِبٌ بِشَبْهِ يَضْرِبُ فِي إِفَادَةِ حُصُولِ الْحَدَثِ مِنْ فَاعِلٍ، وَشَانِبَةٌ دَلَالَتِهِ عَلَى ذَاتِ مُتَلَبِّسَةٍ بِحَدَثٍ فَهُوَ بِتِلْكَ الشَّانِبَةِ يَقْوَى فِيهِ جَانِبُ الْأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى الدَّوَاتِ. وَحَمْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْمَعْنَى الْإِسْمِيَّةِ تَقْتَضِيهِ قَرِينَةُ السِّيَاقِ إِذْ لَا يُفْهَمُ أَنَّ يَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ الَّذِي يُحْدِثُ الزَّانِي لَا يَتَزَوَّجُ إِلَّا زَانِيَةً لِانْتِفَاءِ جَدْوَى تَشْرِيعِ مَنْعِ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ النِّكَاحِ عَنِ الَّذِي أَتَى زَنَى.

فَتَمَحَّضَ أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً الْخ: مَنْ كَانَ الزَّانِي دَابًّا لَهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَتَخَلَّقَ بِهِ ثُمَّ أَسْلَمَ وَأَرَادَ تَزَوُّجَ امْرَأَةٍ مُلَازِمَةٍ لِلزَّانِي مِثْلَ الْبُعَايَا وَمُتَخَذَاتِ الْأَخْدَانِ (وَلَا يَكُنْ إِلَّا غَيْرَ مُسْلِمَاتٍ لَا مُحَالَةَ) فَهِيَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ تَزَوُّجِ مِثْلِهَا بِقَوْلِهِ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَقَدْ قَدَّمَ لَهُ مَا يُفِيدُ تَشْوِيهِهَ بِأَنَّهُ لَا يُلَاحِظُ حَالَ الْمُسْلِمِ وَإِنَّمَا هُوَ شَأْنُ أَهْلِ الزَّانِي، أَيْ غَيْرُ

الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكُونُ الزَّانِيَ لَهُ دَابًّا، وَلَوْ صَدَرَ مِنْهُ لَكَانَ عَلَى سَبِيلِ الْفَلْتَةِ كَمَا وَقَعَ لِمَا عَزَّ بِنِ مَالِكٍ.

فَقَوْلُهُ: الزَّانِيَ لَا يَنْكُحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً تَمْهِيْدٌ وَلَيْسَ بِشَّرْعٍ، لِأَنَّ الزَّانِيَ- بِمَعْنَى مِنَ الزَّانِيَ لَهُ عَادَةٌ- لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا فَلَا تَشَرُّعٌ لَهُ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ.

وبعد كلام طويل من ابن عاشور لشرح توجيهه للآية ختم الكلام بقوله " وَجُمْلَةُ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ تَكْمِيلٌ لِلْمَقْصُودِ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ قَبْلَهَا، وَهُوَ تَصْرِيحٌ بِمَا أُريدُ مِنْ تَفْطِيحِ نِكَاحِ الزَّانِيَةِ وَبَيَانِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ فِي الْقَضِيَّةِ.] انتهى (١٠٢)

قال ابن عثيمين عليه رحمة الله [وخلاصة القول أن نكاح الزانية إما أن يكون عالما بحالها ومعتقدا بتحريم نكاحها فحينئذ يكون زانيا ، وإما أن يكون غير معتقد بالتحريم وغير ملتزم به ، ومنكرا له وحينئذ يكون مشركا لأنه يحل ما حرم الله ، ولهذا قال الله عز وجل { لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } فهو زان إذا التزم بالتحريم واعتقده ، أو مشرك إذا لم يعتقد بالتحريم ولم يلتزم به ، وهكذا نقول أيضا فيمن زوج ابنته رجلا زانيا .

ولكن هذا الحكم يزول بالتوبه ، فإذا تاب الزاني من زناه ، وتابت الزانية من زناها ، فإنه يزول عنهما هذا الوصف ، أي وصف الزاني والزانية ، كما يزول عن وصف الفسق عن الفاسق إن تاب إلي الله عز وجل وترك الفسق . فإذا تاب الزاني من زناه ، والزانية من زناها حل نكاحهما] انتهى (١٠٣)

وبذلك يكون الله تعالى قد بين حكم الزنا في الآيتين ، الثانية والثالثة من سورة النور.

خلاصة القول في حد الزنا

بصرف النظر عن الخلافات الفقهية في فروع الحكم ، كما يلي :

- أولا : الزنا كبيرة من الكبائر ، حرص الشرع علي منعها من المجتمع الإسلامي .

١٠٢ التحرير والتنوير - سورة النور آية ص ١٥٧ - المكتبة الشاملة الحديثة

١٠٣ ابن عثيمين - تفسير القرآن الكريم - ص ٢٣ - تفسير سورة النور

- ثانيا : فرق الله عز وجل بين عقوبة الزاني المحصن وغير المحصن ، فعقوبة الزاني المحصن الرجم حتي الموت ، وعقوبة الغير محصن الجلد مائة جلدة وتغريب عام (النفي) في أرض غير التي إقتترف فيها كبيرته ، وأضاف ابن عثيمين شرطا ألا يكون الزنا مباحا في مكان النفي .
- ثالثا : شرع عدم الميل إلي أدني درجات الرحمة لأي إعتبار في تنفيذ الحد بعد ثبوته ، سواء لكبر سن أو لضعف ، أو لمكانة المحدود .
- رابعا : أشتراط إقامة الحد بشهود طائفة من المؤمنين ، فلا يجوز إقامته في البيوت أو في الخفاء حفاظا علي السرية صيانة لسمعة أو خلفه ، ومن الأولي أن يكون الحضور من عامة الناس حتي تزول شبهة التواطؤ علي السرية .
- خامسا : تجاوزنا عن التفصيل في مواضع الخلاف ، لأن الخلاف فرع من الأصل ، وإذا كان الأصل مغيبا فليس من المعقول أن ننشغل بالفروع ، فما نرنبو إليه إعادة الأصل أولا ، وأصل الحكم ليس فيه خلاف.
- سادسا : إنحصر الخلاف في عدة مواضع منها : جمع الرجم والجلد علي المحصن ، وتغريب الغير محصن ، وتغريب الرجل دون المرأة ، وحد الأمة الغير متزوجة ، والعدد اللازم لحضور الحد لتحقيق الواجب ، وحكم من أتي بهيمة ، وحكم من فعل فعل قوم لوط ، وحكم زني المحارم ، وشدة الجلد ، وشكل السوط ونوعه ، ومهر المغتصبة . ومنشأ الخلاف كأى خلاف فقهي معتبر إما لغياب النص عن الفقيه ، أو لإختلاف فهم النصوص .
- سابعا : حد الزنا يطبق علي كل من إلتزم بحكم الإسلام في ديار الإسلام سواءا كان مسلما أو غير مسلم .
- ثامنا : يمكن التوبة من الزنا بين العبد وربيه قبل بلوغ المعصية للحاكم ، ويبقي حسابه علي الله ﷻ ، أما إذا بلغت المعصية للحاكم ، فلا توبة للفاعل إلا بإقامة الحد .
- تاسعا : ولمزيد من تضيق فرص تفشي الزنا ، حرم الله عز وجل النكاح بين المؤمنين إذا علم بينهم إقتراف الزنا ، وإذا حصل النكاح مع علم أحد الطرفين بحال الآخر من الزنا فهو بين أمرين إما زان أو زانية إذا

الفصل الثالث

حد القذف

لما نفر الله سبحانه وتعالى من نكاح من اتصف بالزنى من رجل أو امرأة، وبدأ بتنفيذ الإناث بما يوهم جواز إطلاق الزنى عليهن بمجرد نكاح من علم زناه، لأن نكاح المرأة للزاني فيه مظنة لزناها ، وذلك بعد أن ابتدأ في حد الزنى بالأنثى أيضاً لأن زناها أكبر شراً، وأعظم فضيحة وضرراً، عطف على ذلك تحريم القذف بما يوجب تعظيم الرغبة في الستر وصيانة الأعراض وإخفاء الفواحش، فقال ذاكرًا الجميع لأن الحكم بإقامة الحد عليه، فقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) {

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المَقْذُوف رجلاً فَكَذَلِكَ يُجْلَدُ قَاضِيَهُ أَيْضًا، لَيْسَ فِي هَذَا نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ. فَأَمَّا إِنْ أَقَامَ الْقَاضِي بَيِّنَةً عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ، رُدَّ عَنْهُ الْحَدُّ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ، فَأَوْجَبَ عَلَى الْقَاضِي إِذَا لَمْ يَقُمْ بَيِّنَةً عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ ثَلَاثَةَ أَحْكَامٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ جَلْدَةً

الثَّانِي: أَنَّهُ تَرُدُّ شَهَادَتُهُ دَائِمًا.

الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا لَيْسَ بِعَدْلٍ، لَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدَ النَّاسِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} قال ابن كثير [اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ: هَلْ يَعُودُ إِلَى الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ فَقَطْ فَتَرْفَعِ التَّوْبَةُ الْفُسْقَ فَقَطْ، وَيَبْقَى مَرْدُودُ الشَّهَادَةِ دَائِمًا وَإِنْ تَابَ، أَوْ يَعُودُ إِلَى الْجُمْلَتَيْنِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ؟ وَأَمَّا الْجَلْدُ فَقَدْ ذَهَبَ وَانْقَضَى، سِوَاءَ تَابَ أَوْ أَصْرَ، وَلَا حُكْمَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَا خِلَافٍ -فَذَهَبَ الْإِمَامُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ إِلَى أَنَّهُ إِذَا تَابَ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ، وَارْتَفَعَ عَنْهُ حُكْمُ الْفُسْقِ. وَنَصَّ عَلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ -سَيِّدُ التَّابِعِينَ- وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ أَيْضًا.] (١٠٤) إنتهي

قال القرطبي [هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْقَافِظِينَ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَ سَبَبُهَا مَا قِيلَ فِي عَانِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَقِيلَ: بَلْ نَزَلَتْ بِسَبَبِ الْقَذْفِ عَامًّا لَا فِي تِلْكَ النَّازِلَةِ. وَقَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: لَمْ نَجِدْ فِي أَخْبَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبْرًا يَدُلُّ عَلَى تَصْرِيحِ الْقَذْفِ، وَظَاهِرُ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مُسْتَعْنَى بِهِ دَالًّا عَلَى الْقَذْفِ الَّذِي يُوجِبُ الْحَدَّ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى ذَلِكَ مُجْمِعُونَ.] (١٠٥)

ومعنى الآية يقول تعالى ذكره: والذين يسبون العفيفات من حرائر المسلمين، فيرمونهن بالزنا، ثم لم يأتوا على ما رموهن به من ذلك بأربعة شهداء عدول يشهدون، عليهن أنهن رأوهن يفعلن ذلك، فاجلدوا الذين رموهن بذلك ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً، وأولئك هم الذين خالفوا أمر الله وخرجوا من طاعته ففسقوا عنها.

و(المحصنات) وردت في كتاب الله خمس مرات ، مرتان في سورة النساء ، ومرة في المائدة ، ومرتان في النور ، وورودها دائما للدلالة على المرأة الحرة العفيفة ، وكذلك المتزوجة ، وهذا يعني أن البغايا لا يشملهن هذا الحكم . قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ} يُرِيدُ يَسْبُونُ، وَاسْتُعِيرَ لَهُ اسْمُ الرَّمْيِ لِأَنَّهُ أَذَانُهُ بِالْقَوْلِ، وَجَرَحَ اللِّسَانَ كَجَرَحِ الْيَدِ ، وَيُسَمَّى قَذْفًا ، يَقُولُ الْقُرْطُبِيُّ [ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ النِّسَاءَ مِنْ حَيْثُ هُنَّ أَهْمٌ، وَرَمِيَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ أَشْنَعُ وَأَنْكَى لِلنَّفُوسِ].

ثم قال [وَقَذَفَ الرَّجَالُ دَاخِلًا فِي حُكْمِ الْآيَةِ بِالْمَعْنَى، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا نَحْوُ نَصِّهِ عَلَى تَحْرِيمِ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَدَخَلُ شَحْمِهِ وَغَضَارِيْفُهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ بِالْمَعْنَى وَالْإِجْمَاعِ. وَحَكَى الزَّهْرَاوِيُّ أَنَّ الْمَعْنَى: وَالْأَنْفُسُ الْمُحْصَنَاتُ، فَهِيَ بِلَفْظِهَا تَعْمُ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءَ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ} [النِّسَاءِ: ٢٤]. وَقَالَ قَوْمٌ: أَرَادَ بِالْمُحْصَنَاتِ الْفُرُوجَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} [الأنبياء: ٩١] فَيَدْخُلُ فِيهِ فُرُوجُ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ. وَقِيلَ: إِنَّمَا ذَكَرَ الْمَرْأَةَ الْأَجْنَبِيَّةَ إِذَا قُدِّمَتْ لِيُعْطِفَ عَلَيْهَا قَذْفُ الرَّجُلِ زَوْجَتَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَرَأَ الْجُمُهورُ: { الْمُحْصَنَاتُ } بَفَتْحِ الصَّادِ، وَكَسْرِهَا يَحْيَى بُنْ وَثَّابٍ. وَالْمُحْصَنَاتُ الْعَقَائِفُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ. وَقَدْ مَضَى فِي "النِّسَاءِ" ذِكْرُ الْإِحْصَانِ وَمَرَاتِبِهِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

شروط وقوع حد القذف

ثم قال في شروط القذف [لِلْقَذْفِ شُرُوطٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ تِسْعَةٌ: شَرْطَانِ فِي الْقَاذِبِ، وَهُمَا الْعَقْلُ وَالْبُلُوغُ، لِأَنَّهُمَا أَصْلَا التَّكْلِيفِ، إِذِ التَّكْلِيفُ سَاقِطٌ دُونَهُمَا. وَشَرْطَانِ فِي الشَّيْءِ الْمَقْدُوفِ بِهِ، وَهُوَ أَنْ يَقْذِفَ بَوْطِيءَ يُلْزِمُهُ فِيهِ الْحَدُّ، وَهُوَ الزَّنى وَاللِّوَاطُ أَوْ بِنْفِيهِ مِنْ أَبِيهِ دُونَ سَائِرِ الْمَعَاصِي. وَخَمْسَةٌ فِي الْمَقْدُوفِ، وَهِيَ الْعَقْلُ وَالْبُلُوغُ وَالْإِسْلَامُ وَالْحُرِّيَّةُ وَالْعَقَّةُ عَنِ الْفَاحِشَةِ الَّتِي رُمِيَ بِهَا، كَانَ عَفِيفًا مِنْ غَيْرِهَا أَمْ لَا. وَإِنَّمَا شَرْطُنَا فِي الْمَقْدُوفِ الْعَقْلُ وَالْبُلُوغُ كَمَا شَرْطُنَا هُمَا فِي الْقَاذِبِ وَإِنْ لَمْ يَكُونَا مِنْ مَعَانِي الْإِحْصَانِ لِأَجْلِ أَنَّ الْحَدَّ إِنَّمَا وُضِعَ لِلزَّجْرِ عَنِ الْإِذْيَةِ بِالْمَضَرَّةِ الدَّاخِلَةِ عَلَى الْمَقْدُوفِ، وَلَا مَضَرَّةَ عَلَى مَنْ عَدِمَ الْعَقْلَ وَالْبُلُوغَ، إِذْ لَا يُوصَفُ اللَّوَاطُ فِيهِمَا وَلَا مِنْهُمَا بِأَنَّهُ زَنَى.

اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا صَرَحَ بِالزَّنى كَانَ قَذْفًا وَرَمِيًا مُوجِبًا لِلْحَدِّ، فَإِنْ عَرَضَ وَلَمْ يُصَرِّحْ فَقَالَ مَالِكٌ: هُوَ قَذْفٌ. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ: لَا يَكُونُ قَذْفًا حَتَّى يَقُولَ أَرَدْتُ بِهِ الْقَذْفَ. وَالِدَلِيلِ لِمَا قَالَهُ مَالِكٌ هُوَ أَنَّ مَوْضُوعَ الْحَدِّ فِي الْقَذْفِ إِنَّمَا هُوَ لِإِزَالَةِ الْمَعْرِةِ الَّتِي أَوْقَعَهَا الْقَاذِفُ بِالْمَقْدُوفِ، فَإِذَا حَصَلَتِ الْمَعْرِةُ بِالتَّعْرِيضِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ قَذْفًا كَالْتَّصْرِيحِ، وَالْمَعْوَلُ عَلَى الْفَهْمِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ شُعَيْبٍ: { إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [هود: ٨٧] أَيْ السَّفِيهِ الضَّالِّ، فَعَرَضُوا لَهُ بِالسَّبِّ بِكَلَامٍ ظَاهِرِ الْمَدْحِ فِي أَحَدِ التَّأْوِيلَاتِ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ فِي هُودٍ. وَقَالَ تَعَالَى فِي أَبِي جَهْلٍ { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } [الدخان: ٤٩]. وَقَالَ حِكَايَةُ عَنْ مَرْيَمَ: { يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا } [مريم: ٢٨]، فَمَدَحُوا أَبَاهَا وَنَفَوْا عَنْ أُمِّهَا الْبَغَاءَ أَيْ الزَّنى، وَعَرَضُوا لِمَرْيَمَ بِذَلِكَ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: { وَبُكَرْهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا } [النساء: ١٥٦]، وَكُفِّرْهُمْ مَعْرُوفٌ، وَالْبُهْتَانُ الْعَظِيمُ هُوَ التَّعْرِيضُ لَهَا، أَيْ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا، أَيْ أَنْتَ بِخِلَافِهِمَا وَقَدْ أَتَيْتَ بِهِذَا الْوَلَدِ. وَقَالَ تَعَالَى: { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {سبأ: ٢٤}،
فَهَذَا اللَّفْظُ قَدْ فَهِمَ مِنْهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَنَّ الْكُفَّارَ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ
وَرَسُولُهُ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، فَفُهِمَ مِنْ هَذَا التَّعْرِيزِ مَا يُفْهِمُ مَنْ صَرِيحِهِ. وَقَدْ
حَبَسَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْحُطَيْنَةَ لَمَّا قَالَ:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَزَحَلْ لِبُعَيْتِهَا ... وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
لِأَنَّهُ شَبَّهَهُ بِالنِّسَاءِ فِي أَنَّهُنَّ يُطْعَمْنَ وَيُسْقَيْنَ وَيُكْسَوْنَ. [إنتهي كلام
القرطبي (١٠٦)]

ولأن من شروط حد القذف أن يكون المقدوف محصناً ، فلو قذف غير
محصن فلا يحد وإنما فيه التعزير، لذا يلزم تعريف المحصن .
المحصن في حد الزنا هو المتزوج ، بينما المحصن في القذف يختلف حيث
له عدة شروط ، فالمحصن في باب القذف هو : الحر ، المسلم ، العاقل ،
العفيف ، الذي يجمع مثله ، وبيان ذلك كما يلي :

مسئلاً : فلا حد على من رمى غير المسلم لقوله تعالى : { إن الذين يرمون
المحصنات الغافلات المؤمنات } حرّاً : فلا حد على من رمى عبداً .

عاقلاً : فلو قذف مجنوناً فلا حد لأنه لا يلحقه عار بذلك .

عفيفاً : أي من الزنا في الظاهر ، ولو ثانياً منه ، فلو رمى فاجراً فلا حد ،
لقوله تعالى في الآية السابقة { الغافلات } أي عن الزنا .

يجمع مثله : وهو يختلف بحسب حال المقدوف ، ولذا كان أو بنت ،
وضبطه الحنابلة بابن عشر سنين ، وبنت تسع ، والأولى عدم التحديد لأن
هذا يختلف بحسب حال المقدوف وجسمه . فلو قذف من لا يجمع مثله ، كابن
خمس سنين فلا حد لأنه لا يلحقه العار بذلك .

يقول يوسف الشيبلي في فقه الحدود [اختلف أهل العلم فيما إذا كان حد
القذف حق لله أم حق للآدمي فذهب الأحناف إلى أن الأغلب هو حق
الله. وذهب الجمهور إلى أن الأغلب أنه حق للآدمي .

ويترتب على هذا الخلاف مسالتان ، وهما:

1- هل يشترط لإقامة الحد مطالبة المقدوف ؟

2- وهل يسقط الحد بعفوه ؟

فمن غلب حق الآدمي وهم الجمهور قالوا : يشترط لإقامة الحد مطالبة المقذوف ، كما قالوا : يسقط الحد بعفوه ، كالقصاص. أما الأحناف فقالوا : يجب إقامة الحد ولو لم يطلب المقذوف ، ولا يسقط بعفوه لأنه حق الله ، فلا يسقط بالعفو كسائر الحدود.

وسبب الخلاف في هذه المسألة : أن حد القذف فيه شبهه بالقصاص ، كما أن فيه شبهاً بالحدود ، فهو من جهة يشبه القصاص لأنه مشروع جزاءً لاعتداء القاذف على عرض المقذوف ، كما أن القصاص مشروع جزاءً لاعتداء الجاني على نفس المجني عليه ، ومن جهة أخرى فإن قاعدة الشريعة في الجوابر والتعويضات أن تكون بالمثل ، ولكن في هذه الحال تتعذر المعاقبة بالمثل ، فشرع الحد جلدًا فمن هذه الجهة أشبه الحدود والأقرب والله أعلم هو قول الجمهور ، فالأغلب فيه هو حق الآدمي فلا يستوفى إلا بطلب المقذوف ، ويسقط بعفوه ، والله أعلم^(١٠٧)

أنواع ألفاظ القذف وحكمها

1. صريح القذف: هو اللفظ الذي لا يحتمل غير القذف. مثل : يازاني ، يالوطي ، أو قد زنيت ومن قال : يابن الزانية فهو قذف لأمه. ومن صريح القذف كذلك : نفي نسبه ، مثل أن يقول : لست ولد فلان ، فهذا قذف قذف لأمه أي المقول له ، وكذا لو نفاه عن قبيلته لحديث الأشعث بن قيس مرفوعاً : " لا أوتى برجل يقول : إن كنانة ليست من قريش إلا جلدته " ، ولأنه لا يكون لغير أبيه إلا بزنى أمه. فمثل هذه الألفاظ يحد قائلها مطلقاً سواء ادعى أنه لم يقصد القذف أم لم يدع ذلك ، وسواء كان هناك قرينة ظاهرة على أنه قصد القذف أم لم يكن.

2. وكناية القذف: هو اللفظ الذي يحتمل القذف وغيره. مثل : يا قحبة ، يافجرة ، يا خبيث ، يا خبيثة ، فضحت زوجك ، نكست رأسه ، جعلت له قروناً ، زنت يدك ، ونحو ذلك.

فهذا ينظر فيه إلى ظاهر الحال : فإن كان ظاهر الحال يدل على أنه قصد القذف فإنه يحد به ، حتى ولو ادعى أنه لم يقصد القذف ، أما إن كان ظاهر

الحال لا يدل على أنه قصد القذف ، وفسره هو بغير القذف فيقبل تفسيره ولايحد ، بل يعزر ، كأن أراد بالمخنت المتطبع بطباع التأنيث ، وبالقحبة المتعرضة للزنى وإن لم تفعله ، وبالفاجرة الكاذبة ونحو ذلك.

3. والتعريض بالقذف: مثل أن يقول لمن يخاصمه ما أنت بزان ، ما يعرفك الناس بالزنا ، يا حلال ابن الحلال ، أو يقول: ما أنا بزان ولا أُمي بزانية وأن يقصد بذلك التعريض بالآخر .فاختلف أهل العلم في ذلك إذا كان هناك قرينة تدل على قصده القذف ، فذهب بعضهم إلى أنه ليس بقذف ولو وجدت قرينة ، لما يلي:

١. لما في الصحيحين (عن أبي هريرة أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن امرأتي ولدت غلاما أسود (يعرض بنفيه) ، وإني أنكرته فقال رسول الله هل لك من إبل ؟ قال نعم ، قال فما ألوانها؟ ، قال حمراً ، قال هل فيها من أورك (الأورق : الأسمر) ، قال إن فيها لورقا ، قال فإني تري ذلك جاءها ؟ قال يارسول الله عرق نزعها ، قال ولعل هذا عرق نزعه ، ولم يرخص له في الإنتفاء منه) (١٠٨) فلم يلزمه بذلك حد .

٢. ولأن الله فرق بين التعريض بالخطبة والتصريح بها فأباح التعريض في الخطبة وحرّم التصريح فكذلك في القذف

وقال بعضهم : عليه الحد ، لمايلي:

١. لأن عمر حين شاورهم في الذي قال لصاحبه ما أنا بزان ولا أُمي بزانية فقالوا قد مدح أباه وأمه فقال عمر :قد عرض بصاحبه ، فجلده الحد.

٢. وروى أن عثمان جلد رجلا قال لآخر يا ابن شامة الوزر يعرض له بزنا أمه والوزر قدر اللحم يعرض له بكرالرجال

٣. ولأن الكناية مع القرينة الصارفة إلى أحد محتملاتها كالصريح الذي لا يحتمل إلا ذلك المعنى ولذلك وقع الطلاق بالكناية.

٤. ولأن هذه الألفاظ يراد بها القذف عرفا فجرت مجرى الصريح.

وهذا القول هو الصحيح ، وهو أن التعريض يعد قذفاً إذا وجدت قرينة تدل على أنه قصد القذف ، فإن لم يكن في حال الخصومة ولا وجدت قرينة تصرف إلى القذف فالأقرب أنه ليس بقذف.

وأما الجواب عن الحديث الذي استدل به أصحاب القول الأول فنقول : إن الرجل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم مستفتياً ، ولم يقصد القذف. ولذا يتبين أن حكم التعريض بالقذف كحكم الكناية.

فائدة هامة : المرجع في تحديد ألفاظ القذف وكونها صريحة أم كناية أم تعريضاً إلى العرف ، فما عده الناس صريحاً في القذف أو كناية فيه أو تعريضاً به فهو كذلك ، وما لا يعتبره العرف قذفاً فلا.

شروط إقامة حد القذف :

أولاً : ثبوت القذف بالإقرار أو بشاهدين عدلين علي أنه نطق به .
ثانياً : مطالبة المقدوف وهذه المسألة محل خلاف بين أهل العلم ، وتبين أن القول الصحيح أن حد القذف لا يقام إلا بطلب من المقدوف. ولو مات المقدوف ولم يطالب به سقط. ومن قذف ميتاً فلوارثه المطالبة بإقامة الحد عليه ، قال أهل العلم : من قذف نبياً كفر ، وقتل ، ولو تاب .^(١٠٩)

خلاصة القول أن القذف من كبائر الذنوب ، وقد جاء الوعيد الشديد عليه في الكتاب والسنة ، ففي كتاب الله تعالى قوله تعالى في سورة النور بعد ذكر قصة حادثة الإفك { إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ } (٢٥)

وأما السنة فقد جعله رسول الله من السبع الموبقات أي من أكبر الكبائر ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا وما هن يا رسول الله ﷺ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)^(١١٠) متفق عليه.

١٠٩ فقه الحدود - الدكتور يوسف الشبيلي - موقع صيد الفوائد (بتصرف بسيط)
١١٠ صحيح البخاري رقم (٢٧٦٦) كتاب الوصايا ، صحيح مسلم رقم (٣٠١٩) كتاب التفسير

وما قيل في إختلاف الفقهاء في فروع حكم الزنا يقال هنا أيضا في فروع حد قذف المحصنات ، ولا يسمى القذف قذفا إلا بالرمي بالزنا وذلك للقرآن المذكورة في الآية ، ومنها ذكر المحصنات والمقصود بهن العفيفات ، فدل ذلك علي أن الرمي المقصود بما هو ضد العفاف وهو الزنا ، وكذلك إشتراط أربع شهود ، وهذا العدد من الشهود غير مشروط إلا في الزنا ، وكذلك أيضا إنعقاد الإجماع علي أن الحد بالجلد لا يكون إلا في الزنا فدل ذلك علي أن المقصود بالقذف هو الزنا .

وإذا قذف الرجل أي (رمي بالزنا) يحد قاذفه أيضا ، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني "وقد إنعقد الإجماع علي أن حكم قذف المحصن من الرجال هو حكم المحصن من النساء " (١١١)

وقد نقل الإجماع علي ذلك أيضا القرطبي في تفسيره ، والحافظ بن كثير ، والشنقيطي في أضواء البيان وغيرهم . وقد خص الله النساء بالذكر رغم أن الحكم يعم الرجال لأن قذفهن أشنع والعار بهن أعظم ، وقد سبق وبيننا بالنقل عن القرطبي أن البعض فسر المحصنات بالفروج لقول الله تعالى : {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} [الأنبياء: ٩١].

وقد نقل القرطبي عن جمهور العلماء أنه لا حد علي من قذف رجلا من أهل الكتاب أو امرأة منهم ، وإذا قذف النصراني المسلم الحر فعليه الحد أي الجلد ثمانين جلدة ، قال القرطبي (لا أعلم في ذلك خلافا)

وشهادة الشهود الأربعة في القذف ليست في إثبات سماع قذف القاذف قذف من عدمه ، وإنما الشهادة في إثبات زنا المقذوف به أو نفيه .

وذهب جمهور العلماء (١١٢) علي أن شهادة المرأة لا يعتد بها في الحدود ولا في القصاص ، فعلي ذلك لا يعول علي شهادتهن في القذف . (١١٣)

ويمكن حصر مواضع الخلاف بين العلماء في حد القذف ،

في قبول شهادة القاذف إذا تاب ،

وفي كيفية التوبة التي تقبل بها شهادة القاذف التائب ،

وحكم التعريض بالقذف ،

١١١ فتح الباري (١٨١/١٢)

١١٢ نقل الإجماع الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) (٢٦٦/٥)

١١٣ التسهيل لتأويل التنزيل - الشيخ مصطفى بن العدوي - تفسير سورة النور ص ٦٣

ولمن الحق في حد القذف .

وهكذا تظهر خطورة حد القذف ، والتي لا تقل خطورة عن حد الزنا ، وإن كنت أري أن ما عمت به البلوي في مجتمعاتنا من تساهل الشباب في التراشق بالأعراض والسباب والشتم بألفاظ الزنا علانية ، جهارا نهارا في الشوارع والأماكن العامة ، وكذلك التساهل في الحديث عن أعراض المسلمات الذي ساعدت وسائل الإعلام في سهولة وسرعة تداوله باسم حرية الإبداع والفن ، كل هذه الممارسات تجعلني أري أن هذا الحد ، أصبحنا في حاجة إلي تطبيقه بصورة أكثر إلحاحا من تطبيق حد الزنا لكي يمكن إعادة الأخلاق والإحترام في شوارع المسلمين قبل أن ينتقل الزنا من مرحلة السرية والتخفي في البيوت إلي مرحلة المجاهرة والإعلان في الطرقات والأماكن العامة ، والله المستعان .

الفصل الرابع

حد الملاعنة

تعريف الملاعة والحكمة من تشريعها

بعد أن إستقر كلا من حد الزنا وحد قذف المحصنات بضوابطهما ، ظهرت إشكالية كيفية إيجاد الشهود الأربعة لإثبات كلا الحدين بين الرجل وزوجته ، وكيف لرجل لديه الغيرة علي عرضه ، أن ينتظر تواجد الشهود الأربع لإثبات جريمة الزنا علي زوجته إذا علم أنها تمارس هذه الفاحشة .

فحد الملاعة شرعه الله تعالى لحل هذه المعضلة ، بما يعني أن حد الملاعة هو تخصيص لحد القذف لما بين الزوجين باعتبار الزوجات من المحصنات العفيفات. وفي هذا الحكم نزلت آيات سورة النور بقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعرس عليه إقامة البيّنة، أن يلاعنها، كما أمر الله عز وجل وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء، {إنه لمن الصادقين} أي: فيما رماها به من الزنى، {والخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين} فإذا قال ذلك، باتت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبداً، ويعطيها مهرها، ويتوجه عليها حد الزنى، ولا يذراً عنها العذاب إلا أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي: فيما رماها به، {والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين} ولهذا قال: {ويذراً عنها العذاب} يعني: الحد، {أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين} فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يمكن أن يسعى الي فضيحة أهله ورميها بالزنى إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها. والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه.

سبب نزول آية الملاءنة

وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِمُقْتَضَى الْعَمَلِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَذَكَرَ سَبَبُ نُزُولِهَا، وَفِيْمَنْ نَزَلَتْ فِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقِي الصَّحِيحِينَ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّ عُوَيْمِرًا، أَتَى عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي عَجْلَانَ، فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيْقَلْتُهُ فَتَقَتَّلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ سَأَلَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَى عَاصِمَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسَائِلَ، فَسَأَلَهُ عُوَيْمِرٌ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرِهَ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا، قَالَ عُوَيْمِرٌ: وَاللَّهِ لَا أَنْتَهِي حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَجَاءَ عُوَيْمِرٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا أَيْقَلْتُهُ فَتَقَتَّلُونَهُ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ)، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُلَاعَنَةِ بِمَا سَمَى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَلَاعَنَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ حَبَسْتُهَا فَقَدْ ظَلَمْتُهَا فَطَلَّقَهَا، فَكَانَتْ سَنَةً لِمَنْ كَانَ بَعْدَهُمَا فِي الْمُتَلَاعِنِينَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (انْظُرُوا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمُ، أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ، عَظِيمَ الْأَلْيَتَيْنِ، خَدَجَ السَّافَيْنِ، فَلَا أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ صَدَّقَ عَلَيْهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَحْيَمَرُ كَأَنَّهُ وَحَرَةٌ، فَلَا أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا) فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَصْدِيقِ عُوَيْمِرٍ، فَكَانَ بَعْدَ يُنسَبُ إِلَى أُمِّهِ. (١١٤)

والحديث الآخر في صحيح البخاري عن ابن عباس، أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ، قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (الْبَيْتَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيْتَةَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: (الْبَيْتَةُ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ) فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلْيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يَبْرِي ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} [النور: ٦] فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: {إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [النور: ٩] فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ

مِنْكُمْ تَائِبٌ) ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَفُوها، وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبَةٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّاتٌ وَنَكَصَتْ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أَبْصِرُوهَا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ، سَابِغُ الْأَلْيَتَيْنِ، خَذَلَجُ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ)، فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ) (١١٥)

وتعريف اللعان أو الملاعنة ، قال القرطبي : المباعدة هو معني اللعان في اللغة ، وإصطلاحاً هو حكم قذف المحصنات مخصص للزوج وزوجته ، وهو أن يشهد الزوج القاذف زوجته أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به ، ثم يشهد الخامسة أن لعنة الله عليه (وهذا هو أصل تسمية الحكم باللعان) إن كان من الكاذبين ، وجعل للمرأة أن تعارض دعوي زوجها وتتنبرأ من دعواه بأن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، ثم تشهد بأن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين فيما رماها به ، وإتفقوا علي أنه إن أكذب نفسه بعد قذفها ، وطالبت بإقامة الحد عليه ، فعليه حد القذف ، وعلي أنها إن أقرت بالزنا أربعاً أقيم عليها حد الزنا ولم يلزمه اللعان ، [وأختلفوا فيما يجب علي الزوجة إذا حلف الزوج أيمان اللعان ونكلت هي عن حلفها] (١١٦)

وأتفقوا علي التفريق بينهما بعد الملاعنة ، وذلك للحديث الذي في الصحيحين (عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سُلِّتُ عَنِ الْمُتَلَاعِنَيْنِ أَيْفَرَقُ بَيْنَهُمَا فِي إِمَارَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ؟ فَمَا دَرَيْتُ مَا أَقُولُ، فَقُمْتُ مِنْ مَكَانِي إِلَى مَنْزِلِ ابْنِ عُمَرَ فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، الْمُتَلَاعِنَانِ أَيْفَرَقُ بَيْنَهُمَا؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ فَلَانُ بْنُ فُلَانٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَرَى امْرَأَتَهُ عَلَى فَاحِشَةٍ فَإِنْ تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بِأَمْرِ عَظِيمٍ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ. فَسَكَتَ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَاهُ فَقَالَ: الَّذِي سَأَلْتُكَ عَنْهُ قَدْ ابْتُلِيتَ بِهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي سُورَةِ النُّورِ:

١١٥ صحيح البخاري رقم (٤٧٤٧)

١١٦ من بحث لرسالة ماجستير بعنوان (اختيارات الإمام ابن جرير الطبري في مسائل الحدود - دراسة فقهية مقارنة) للباحث عيسى خيرى عيسى الجعبري - جامعة القدس نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٠١٦ / ١١ / ٢م

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ} حَتَّى بَلَغَ: {أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ}. فَبَدَأَ بِالرَّجُلِ فَوَعَظَهُ وَذَكَرَهُ، وَأَخْبَرَهُ إِنْ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا كَذَبْتُكَ. ثُمَّ تَنَبَّأَ بِالْمَرْأَةِ فَوَعَظَهَا وَذَكَرَهَا، وَأَخْبَرَهَا أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنَّهُ لَكَاذِبٌ. قَالَ: فَبَدَأَ بِالرَّجُلِ، فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لِمِنَ الصَّادِقِينَ، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. ثُمَّ تَنَبَّأَ بِالْمَرْأَةِ فَشَهِدَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا^(١١٧)، وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في التفسير.

وقد استخرج الإمام القرطبي في تفسيره لآيات حكم اللعان ثلاثون مسألة استوفي فيها كل الآراء والمسائل التي اختلف فيها أهل العلم في الأحكام المتعلقة باللعان ، فمن أراد التوسع فيرجع إليه في تفسير " الجامع لأحكام القرآن " للإمام القرطبي - تفسير سورة النور - الآيات ٦ إلى ١٠ .

وقد ختم الله تعالى الآيات بما يبين الحكمة العظيمة من هذا الحكم ، بما حرم الله سبحانه تعالى بهذه الآيات الأعراض والأنساب، فصان بذلك الدماء والأموال، علم أن التقدير: فلولا أنه سبحانه خير الغافرين وخير الراحمين، لما فعل بكم ذلك، ولفضح المذنبين، وأظهر سرائر المستخفين، ففسد النظام، وأطبقت على التهاون بالأحكام، فعطف على هذا الذي علم تقديره قوله: {ولولا فضل الله} أي بما له من الكرم والجمال، والاتصاف بصفات الكمال {عليكم ورحمته} أي بكم {وأن الله} أي الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة {تواب} أي رجاء بالعصاة إليه {حكيم} يحكم الأمور فيمنعها من الفساد بما يعلم من عواقب الأمور، لفضح كل عاص، ولم يوجب أربعة شهوداً سترأ لكم، ولأمر بعقوبته بما توجبه معصيته، ففسد نظامكم، واختل نقضكم وإبرامكم، ونحو ذلك مما لا يبلغ وصفه، فتذهب النفس فيه كل مذهب، فهو كما قالوا: رب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به، ثم علل ما اقتضته {لولا} من نحو: ولكنه لم يفعل ذلك إفضالاً عليكم ورحمة لكم، بقوله على وجه

التأكيد لما عرف من حال كثير ممن غضب الله ولرسوله من إرادة العقوبة للآفكين بضرب الأعناق، منبهاً لهم على أن ذلك يجر إلى مفسدة كبيرة.

الفوائد المستفادة من تشريع حد الملاعنة :

❖ آيات الملاعنة هي من تمام النعمة بهذا الدين ، ونوع من رفع الحرج عن أمة محمد ﷺ لأنها جاءت بعد آيات حد الزنا ، وحد القذف ، وقد تقدم في شأن من رمي امرأة بالزنا عليه الإتيان بأربعة شهود ليثبت دعواه وإلا فعليه حد القذف بالجلد ثمانين جلدة إذا لم يأت بالشهود ، أما بالنسبة للزوج فيتعذر عليه أن يري زوجته في حالة الزنا ، ثم ينصرف عنها ليبحث عن الشهود حتي لا يقع تحت طائلة بالقذف ، عندئذ يكون الزاني الفاجر قد قضى حاجته وأنصرف ، ويعاقب الزوج بحد القذف ، فإن سكت - سكت مكرها عن غيظ وقد يلحق به مالميس له بولد ، وإن تكلم - تكلم بعظيم ، وهو القذف وتعرض للجلد والتفسيق ورد الشهادة ، فأوجد الله له الفرج في الملاعنة ، ثم التفريق بينه وبين زوجته ، ولا يلحق به ولد الزنا. فهذا هو وجه رفع الحرج من الله ﷻ بهذا الحكم والله أعلم .

❖ يشرع للقاضي أو الحاكم تذكير المتلاعنين بالله وبخطورة الشهادة وما يترتب عليها من لعنة الله علي الرجل (الزوج) إن كان كاذبا ، وغضب الله علي المرأة (الزوجة) إن كان زوجها صادقا .

❖ إختلف أهل العلم في صيغة اللعان ولكن الأولي الإلتزام بما ورد في القرآن الكريم بصرف النظر عن نية المتلاعنين فالله تعالى أعلم بالسرائر ، ولا يشترط التوسع في الوصف ، بل يكفي بأن يشهد أربع شهادات بالله بأنها زنت وفي الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان كاذبا في رميها بالزنا ، ثم تشهد الزوجة أربع شهادات بالله أنه كاذب في دعواه ، وتشهد في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

❖ إختلف أهل العلم في صيغة الملاعنة هل هي شهادة أم أيمان ، ونري أنها شهادة وأيمان في نفس الوقت لأنها شهادة مقرونة بيمين ، وذلك في قوله { أربع شهادات بالله }

- ❖ جمهور أهل العلم علي التفريق بين الزوجين بعد الملاعة تفريقاً أبدياً ، وإلحاق الولد بأمه بعد الملاعة.
- ❖ تثبت جريمة الزنا علي المرأة بواحدة من ثلاث ، بالشهود الأربعة ، أو بإقرارها ، أو بلعان الرجل مع تردها في الملاعة لتدراً عن نفسها الحد ، فإن أبت فعلها حد الزنا
- ❖ لا يسترد الرجل الصداق بعد الملاعة ، وذلك لما في الصحيحين عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ، عَنْ حَدِيثِ الْمُتَلَاعِنِينَ، فَقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِّلْمُتَلَاعِنِينَ: (حِسَابُكُمَا عَلَى اللَّهِ، أَحَدُكُمَا كَاذِبٌ، لَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهَا) قَالَ: مَالِي؟ قَالَ: (لَا مَالَ لَكَ، إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَذَاكَ أَبَعْدَ لَكَ) (١١٨)
- ❖ إذا قذف الرجل امرأته ولم يرفع أمرها للحاكم فهي إمرأته ، وإختلفوا في مدة إمهاله لملاعتها ، وإذا أمسك الرجل زوجته مع علمه بأنها زانية فالولد ينسب له لأن (الولد للفراش) (١١٩)
- ❖ إذا قال الرجل لأمراته (لست بعذراء) ولم يتهمها بالزني ، فليس بقذف لأن العذرية يمكن أن تزول بغير جماع .
- ❖ خص الرجل باللعة والمرأة بالغضب ، لأن كذب المرأة يكون عن علم فهي الأعلم بالحقيقة لذلك تبوء بغضب الله تعالى كاليهود ، أم لعنة الرجل فكذبه ، وسيطرده زوجته وينفي الولد ، فيطرده من رحمة الله وهي اللعنة . وإقتراف المرأة لجريمة الزنا إن كان الرجل صادقاً أشد من إقتراف الرجل لجريمة القذف إن كان كاذباً. وقد يكون اللعن أخف علي النساء لكثرة جريانه علي ألسنتهن ، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه (تكثرن اللعن ويكفرن العشير) (١٢٠)
- ❖ شرع الله اللعان في الزوجات دون الأجنبية ، لأن زني الزوجات يلحق العار بالرجل ويفسد النسب ، ولن يصبر عليه الرجل الغيور ، وإن سكت عليه الرجل لأصبح ديوثاً ، أما زنا الرجل في الأجنبية فوضعه مختلف

١١٨ صحيح البخاري رقم (٥٣١٢) كتاب الطلاق ، صحيح مسلم رقم (١٤٩٣) كتاب اللعان
 ١١٩ صحيح البخاري رقم (٦٧٤٩) كتاب الفرائض باب الولد للفراش ، صحيح مسلم رقم (١٤٥٧) كتاب الرضاع
 ١٢٠ صحيح البخاري رقم (٢٩) كتاب الإيمان باب كفران العشير .

من وجهين ، الأول عاره بالرجل أقل ويمكن ستره ، والوجه الثاني أنه جرت العادة علي إستحالة أن يتهم الرجل السوي زوجته بالزنا إلا إذا كانت زانية في الحقيقة .

❖ لو قذف الرجل أقرب الناس إليه كأمه وأخته يعتبر قذفا ، بخلاف الزوجة قذفها يعد لعانا وذلك لأن عار الزوجة أعظم ، وزناها يترتب عليه نفي الولد .

❖ لا ينبغي للزوج تحديد شخص معين لإتهامه بالزني بزوجه في الملاعة لعدم وجود الشهود ، حتي لا يدنس عرضه ، وإن عين فليس عليه حد القذف، إلا إذا طالب به المقذوف عند من يقول أن القذف حق للآدمي .

❖ شرع الله تعالى حكم اللعان عن إتهام الرجل لزوجته بالزنا ، ستر من الله تعالى علي عباده ، وفتحا لأبواب التوبة أمام الزوجين عند الإمام بالمعصية ، فيتترك إثبات ارتكاب الزوجة للفاحشة معلقا في أذهان الناس وغير ثابت ، وكذلك إثبات كذب الزوج ، وتنقطع السنة الناس عن الخوض في الأعراض ، وتوآد الجريمة في مهدها ويصان عرض أهل الزوجة ، ويغلق علي الرجل باب الشيطان دون ارتكاب ما هو أشد وأنكى من القتل وسفك الدماء والله أعلم .

الباب الرابع

حديث الإفك

الفصل الأول : قصة الحادثة في السنة

الفصل الثاني : قصة الحادثة في القرآن

الفصل الثالث : الدروس المستفادة من قصة الإفك

الفصل الأول

قصة الحادثة في السنة

مقدمة لقصة حديث الإفك

بعد البداية القوية من سورة النور والتي شرعت لحدود الزنا والقذف باعتبارهما من الجرائم التي تزلزل المجتمع المسلم ، وكما قدمنا أن القذف جريمة بشعة في حق المجتمع كله، تشيع فيه الفاحشة وتتقطع الأواصر، هذا إن كان للمحصنات البعيدات، وهو أعظم إن كان للزوجة، لكن ما بالك إن وقع مثل هذا القول على أم ليست أمًا لواحد، إنما هي أم لجميع المؤمنين، هي أم المؤمنين السيدة عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاهَا - فكانت مناسبة أن يذكر السياق ما كان من قَذْف السيدة عائشة، والذي سُمِّي بحادثة الإفك. الله تعالى يريد أن يُعطينا الأسوة في النبوة نفسها، ويريد أن يُسَلِّي عائشة صاحبة النسب العريق وأم المؤمنين، وقد قيل فيها ما قيل؛ لذلك ستظل السيدة عائشة أسوة لكل شريفة تُرْمَى في عِرْضِهَا، ويحاول أعداؤها تشويه صورتها، نقول لها لا عليك، فقد قالوا مثل هذا في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وآيات الإفك تقيم الأدلة على صدق رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البلاغ عن ربه، فذكر أنهم يرمون المحصنات، ويرمون زوجاتهم، والأفطع من ذلك أن يرموا زوجة النبي وأم المؤمنين، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾. هذه هي الآية الأولى من عشر آيات في سورة النور أنزلها الله تعالى في حديث الإفك ولتبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها من متعلقات هذا الإفك. هَذِهِ الْآيَاتُ الْعَشْرُ كُلُّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حِينَ رَمَاهَا أَهْلُ الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا قَالُوهُ مِنَ الْكُذْبِ الْبَحْتِ وَالْفِرْيَةِ الَّتِي غَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا وَلِنَبِيِّهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَرَاءَتَهَا صَيَانَةً لِعَرْضِ الرَّسُولِ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ: جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ، يَعْنِي: مَا هُوَ وَاحِدٌ وَلَا اثْنَانِ بَلْ جَمَاعَةٌ، فَكَانَ الْمَقْدَمُ فِي هَذِهِ اللَّعْنَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سُلُولٍ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، حَتَّى دَخَلَ ذَلِكَ فِي أَدْهَانِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ، فَتَكَلَّمُوا بِهِ، وَجَوَّزَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ

شهر، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ، وَسَيَاقُ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ.
والإفك هو أشد الكذب أو هو أسوأ الكذب لأنه يقلب الحقائق ويختلق واقعاً مضاداً لما لم يحدث عمداً عن قصد ، لذلك توعد الله تعالى الإفك بأشد الوعيد في سورة الجاثية بقوله تعالى {وَيَلْ لَّكَ أَفَّاكَ أَثِيمٌ} (٧) {يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا} فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) ، وقد بين الله تعالى هويته في سورة الشعراء بقوله { هَلْ أَتَيْنَكُمْ عَلَى مَن نَّتَزَّلُ الْشَّيَاطِينُ } (٢٢١) نَزَّلَ عَلَى كُلِّ أَفَّاكَ أَثِيمٍ (٢٢٢) يَلْفُونَ السَّمْعَ وَآكُثِرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) .

وقد وردت القصة بتمامها في الصحيحين وفي كتب السنة ، وسنعرض القصة من رواية البخاري ومسلم ، مع الشرح ، ونظرا لطول الحديث فقد قمت بتقسيمه إلى عدة مقاطع ليسهل شرحه والرجوع إليه .

المقطع الأول: من رواية حديث الإفك

ففي الصحيحين (١٢١) عن الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ، وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللَّهُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ حَدَّثَنِي بِطَائِفَةٍ مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ وَأَثَبَتْ افْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا:

ذَكَرُوا أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَفْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيُّتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَفْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا، فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، وَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أَحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ مَسِيرَنَا،

في هذا المقطع من الحديث تقول السيدة عائشة رضي الله عنها ، أنه كانت من عادة النبي ﷺ أن إذا خرج للغزو يصطحب معه إحدى نسائه بالإقتراع بينهن ، ومن تصيبها القرعة منهن خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوه ،

وكانت قد أصابتها القرعة في هذه الغزوة وهي غزوة المريسيع ويقال لها غزوة بني المصطلق بعد فرض الحجاب ، ومن المعروف أن الحجاب فرض بعد غزوة الأحزاب وبعد دخول النبي ﷺ بزَيْنَب بنت جحش رضي الله عنها ، كانت هذه الغزوة في نهاية السنة السادسة من الهجرة ، وكانت السيدة عائشة تحمل في المسير في هودجها ، والهودج هو خيمة تحمل علي ظهور الإبل تحتوي النساء الحرائر ، وينزل بهن عند كل منزل للجيش في مسيره للغزو والعودة منه .

المقطع الثاني:

- ثم قالت : حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوِهِ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، أَذِنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عَقْدٌ مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَأَلْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ.

في هذا المقطع نقول السيدة عائشة ، أنه بعد إنتهاء الغزوة وفي رحلة العودة ، وبعد إستراحة في مكان قريب من المدينة ، ولما أذن رسول الله ﷺ بالرحيل ، ذهبت تهيأ نفسها وتقضي حاجتها قبل حملها في الهودج للتحرك ، وبعد أن قضت حاجتها وعادت للقافلة إكتشفت إنقطاع العقد وسقوطه من صدرها ، ويبدو أنه هذا العقد ثمين لقولها من جزع ظفار ، وقيل أنه كان عارية من أختها أسماء رضي الله عنها ، وكعادة كل النساء من تعلقهن بمثل هذه الأشياء عادت لتبحث عنه فتأخرت عن الركب.

المقطع الثالث :

- ثم قالت : وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ بِي فَحَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ قَالَتْ: وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خَافَا لَمْ يُهْلَبُنَّ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ. فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ ثِقَلَ الْهُودَجِ حِينَ رَحَلُوهُ وَرَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا

مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ.

في هذا المقطع تقول أنها لما وجدت عقدها وعادت إلى المكان الذي فيه هودجها إذا بالقوم المكلفين بحملها في الهودج قد حملوه دون أن يدركوا أنها غير موجودة فيه ، وذلك لخفة وزنها بسبب صغر سنها ، بالإضافة إلى إشارة لطيفة منها بخفة وزن نساء ذلك الزمان بصفة عامة لأنهن كن يأكلن القليل من الطعام ، ومن الطبيعي ألا يدرك حملة الهودج عدم وجودها لأنهم جماعة لا تقل عن أربعة لحمل الهودج مرابعة ، ولا يمكنهم تمييز خفته بفقد هذا الوزن الصغير ، وعندما عادت ووجدت الركب قد تحرك ولن تستطيع اللحاق به ، تصرفت بفتنة وكياسة ببقائها في مكانها حتي يدركوا فقدها فيعودون إليها ، وهذا يدل على ذكائها وشجاعتها ورباطة جأشها ، لأنها لو جزعت وتحركت من مكانها ، فلربما ضلت الطريق ولا يستطيعون العثور عليها لو عادوا إليها ولم يجدوها .

المقطع الرابع :

- ثم قالت: فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي، غَلَبَتْني عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعْطَلِ السَّلْمِيِّ ثُمَّ الذُّكْوَانِي قَدْ عَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَدْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَيْتِي. وَقَدْ كَانَ يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيَّ الْحِجَابُ، فَاسْتَيْقِظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَرْتُ وَجْهِي بِجُلْبَابِي، وَاللَّهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوُطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَأَنْطَلَقَ يَفُودُ بِي الرَّاحِلَةُ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ.

في هذا المقطع تقول أنها قد غلبها النوم في هذا المكان الذي قد خلا بعد رحيل الجيش من أي حركة ، ولم تستيقظ من نومها إلا علي صوت رجل يسترجع أي يقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، وكان هذا الرجل هو صفوان بن المعطل السلمي ، وهو ممن شهد غزوة الأحزاب ، ومعروف عنه أنه ثقيل النوم ، ويبدو أنه (عرس) أي ركن للراحة في آخر الليل فنام وطالت نومته ، ولما استيقظ (أدلج) أي تحرك متأخرا في الليل إلي وصل إلي مكان السيدة

عائشة فوجد سواد إنسان (أي شخصه) ، فعرفها لأنه قد رآها قبل الحجاب ، ومن الطبيعي أن تكون كاشفة وجهها وهي نائمة في هذا المكان الذي ليس فيه أحد ، فأسترجع لكي تسمع صوته فتستيقظ ، ولأنه أدرك أنها في محنة وأنه في ابتلاء لكيفية تصرفه ، وتقول أنها ماسمعت منه كلمة غير إسترجاعه ، لم يسألها ما شأنها أو مالذي حدث ، أو لا بأس عليك ، غير أنه فقط -أناخ لها راحلته ، وهياً لها قدم الراحلة الأمامية (يدها) لتتكأ عليها ثم قاد الراحلة حتي لحقوا بالجيش عند الظهيرة في مدخل المدينة ، وهذا تصرف النبلاء من الرجال ، ويدل علي عفوه وتعظيمه للنبي ﷺ ولمكانة زوجته أم المؤمنين .

المقطع الخامس :

- ثم قالت: فَهَلْكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنٍ سُلُولٍ. فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْنَا شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، وَلَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَسْلِمُ، ثُمَّ يَقُولُ: " كَيْفَ تَيْكُم؟ " فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالْشَرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَفِهْتُ وَخَرَجْتُ مَعِي أُمُّ مَسْطَحَ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ وَهُوَ مُتَبَرِّزْنَا وَلَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قِيلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنْفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمَرْنَا أَمْرَ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي التَّنَزُّهِ، وَكُنَّا نَتَنَادَى بِالْكُنْفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا فِي بُيُوتِنَا. فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مَسْطَحَ وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُحْمَ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا ابْنَةُ صَخْرَ بْنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ، وَابْنُهَا مَسْطَحُ بْنُ أَثَّانَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَابْنَةُ أَبِي رُحْمَ قَبْلَ بَيْتِي حِينَ فَرَعْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَرَّتْ أُمُّ مَسْطَحَ فِي مَرْطَها فَقَالَتْ: "تَعَسَ مَسْطَحٌ". فَقُلْتُ لَهَا: بِسْمَا قُلْتُ، تَسْبِيْن رَجُلًا قَدْ شَهِدَ بِدْرًا؟

قَالَتْ: أَيْ هُنَّاهُ، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قُلْتُ: وَمَاذَا قَالَ؟ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي.

في هذا المقطع تصف السيدة عائشة بداية علمها بحديث الإفك عنها الذي

تولاه كبير المنافقين في المدينة عبد الله بن أبي بن سلول ، فتقول أنها عندما عادت قدر الله لها أن تلزم الفراش لمرض ألم بها حوالي شهرا ، وهي لا تشعر بما يتحدث به الناس عنها في قول أهل الإفك ، غير أنها كانت تشعر ببعض التغير في رسول الله ﷺ نحوها ، وإفتقادها لملاطفته لها والمعتاده منه في وجعها ، فكانت لا تجد منه عند الدخول عليها إلا أن يسلم ويقول "كيف تيكم" ، وبعد أن خف وجعها قليلا ، وبعد النقاهة خرجت مع أم مسطح لقضاء حاجتها في الليل في مكان قضاء الحاجة ، وذلك قبل تجهيز البيوت بها ، وأم مسطح هي بنت خالة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وأبو بكر كان ينفق عليها وعلي ابنها ، ومع ذلك كان مسطح من الذين خاضوا مع الخائضين في حديث الإفك ، وبعد فراغهن من قضاء حاجتهن وأثناء عودتهن تعثرت أم مسطح في ثيابها فقالت : تعس مسطح ، فقالت لها عائشة بصفاء سريرتها وجهلها بما يقال عنها ، كيف تسبين رجلا شهد بدرا ، فقالت لها أم مسطح " يا هنتاه " وهذا لفظ نداء بمعنى يا هذه ، للتعبير عن إندهاشها لعدم معرفتها ، ألم تسمعي ما قال ؟؟ ثم أخبرتها بحديث الإفك ، فأزدادت مرضا علي مرضها .

المقطع السادس :

- ثم قالت : فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: "كَيْفَ تَيْكُم؟" قُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأَنَا حِينِيذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَيَقِّنَ الْخَبَرَ مِنْ قَبْلِهِمَا فَاذَنْ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ، مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: أَيُّ بُنْيَةٍ هَوْنِي عَلَيْكَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً، عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا. قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهِذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ، لَا يَرْقَأُ (لَا يَنْقُطُ) لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بَنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

عندما علمت السيدة عائشة بما يقوله الناس من أم مسطح عادت إلي بيتها ، فأستأذنت رسول الله ﷺ في الذهاب إلي بيت أبيها للتأكد من الأخبار التي سمعتها فأذن لها ، وعندما سألت أمها ، أكدت لها ما سمعته وواستها بأن

هذا أمر لا تسلم منه أكرم النساء عن رجل يحبها ، خاصة لو كان لها ضرائر لا يحبونها ، وبكت السيدة عائشة ليلتها بلا إنقطاع ولم تذق طعم النوم وكاد أن يصيبها الذهول من هذا الحديث .

المقطع السابع :

- ثم قالت : فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُ مِنَ الْوُدِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُمْ أَهْلُكَ، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: لَمْ يُضِيقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلِ الْجَارِيَةَ تَصَدِّقَكَ الْخَبَرَ. قَالَتْ : فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: "أَيُّ بَرِيرَةَ، (١٢٢) هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيْبُكَ مِنْ عَائِشَةَ؟" فَقَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتِ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطَّ أَغْمَصْتُهُ عَلَيْهَا، أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجَبِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنَ فَتَأْكُلُهُ،

في هذا المقطع نقول السيدة عائشة أن رسول الله ﷺ دعا ابن عمه علي ابن أبي طالب وزوج ابنته ليستشيريه في الأمر ، وكذلك دعا أسامة بن زيد ، وهذا يدل علي مكانتهما منه ، ويدل كذلك علي مدي تألم رسول الله ﷺ وضيقه من هذا الحديث ، فعائشة هي أحب النساء إليه ، وأبوها هو أحب الرجال إليه ، ووزيره ، ويدل كذلك علي مدي الإضطراب الذي يمكن أن يسببه المنافقون والمرجفون في المجتمع ، فخفف عنه علي رضي الله عنه بأن أشار عليه بسؤال الجارية ، وأستكر أسامة ابن زيد هذا الكلام وأكد علي براءة عائشة ، وعمل رسول الله ﷺ بمشورة علي ودعا الجارية

١٢٢ ومما وقع في حديث الإفك أن في بعض طرقه أن عليا قال للنبي ﷺ لما استشاره سل الجارية تصدقك فدعا بريرة فسألها فقالت ما علمت عليها إلا ما يعلم الصانع على التبر أو كما قالت وقد استشكل هذا فان بريرة إنما كانت عتقت بعد هذا بمدة طويلة وكان العباس عم رسول الله ﷺ إذ ذاك في المدينة والعباس إنما قدم المدينة بعد الفتح ولهذا قال له النبي ﷺ وقد شفع إلى بريرة : أن تراجع زوجها فأبت . أن تراجعها يا عباس " ألا تعجب من بغض بريرة مغيثا وحبها لها ، ففي قصة الإفك لم تكن بريرة عند عائشة وهذا الذي ذكره إن كان لازما فيكون الوهم من تسميته الجارية بريرة ولم يقل له علي سل بريرة وإنما قال فسل الجارية تصدقك فظن بعض الرواة أنها بريرة فسمها بذلك وإن لم يلزم بأن يكون طلب مغيث لها استمر إلى بعد الفتح ولم يباس منها زال الإشكال والله أعلم .

وسألها عما إذا كانت رأت علي عائشة ما يريبها ، فأقسمت الجارية أنها لم تر منها سوءاً قط ، غير أنها صغيرة السن يمكن أن تنام عن عجين أهلها فيأكله الدجاج.

المقطع الثامن :

- ثم قالت : فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَعْدَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنٍ سَلُولَ. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ: (يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِيَ) فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ ^(١٢٣) فَقَالَ: أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرْبًا غَنَقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ، أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ. قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ احْتَمَلْتَهُ الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ: لَعُمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلْهُ وَلَا تَقْدِرْ عَلَى قَتْلِهِ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ: كَذَبْتَ! لَعُمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ. فَتَنَاورَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمَنْبَرِ. فَلَمَّ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي

١٢٣ هكذا وقع في «الصحيحين»: أن المقاول لسعد بن عبادة هو سعد بن معاذ، وهذا من المشكلات التي أشكلت على كثير من أهل العلم بالمغازي؛ فإن سعد بن معاذ لا يختلف أحد منهم أنه مات إثر قريظة، وقد كانت عقب الخندق، وهي سنة خمس على الصحيح. ثم حديث الإفك لا يشك أنه في غزوة بني المصطلق هذه، وهي غزوة المريسيع-وقال الزهري: في غزوة المريسيع-، وقد اختلف الناس في الجواب عن هذا: فقال موسى بن عقبة -فيما حكاه البخاري عنه-: إن غزوة المريسيع كانت في سنة أربع، وهذا خلاف الجمهور. ثم في الحديث ما ينفي ما قال؛ لأنها قالت: وذلك بعد ما أنزل الحجاب، ولا خلاف أنه نزل صبيحة دخوله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش، وقد سأل ﷺ زَيْنَب بنت جحش عن عائشة في ذلك؟ فقالت: أحمي سمعي وبصري. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ. وقد ذكر أهل التواريخ: أن تزويجه بها كان في ذي القعدة، في سنة خمس؛ فيلزم ما قال، ولم ينجل الإشكال. وأما الإمام محمد بن إسحاق بن يسار؛ فقال: إن غزوة بني المصطلق كانت في سنة ست، وذكر فيها حديث الإفك؛ إلا أنه قال: عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة... فذكر الحديث. قال: فقام أسيد بن الحضير، فقال: أنا أعذرُكَ منه. و لم يذكر سعد بن معاذ. قال ابن حزم: «و هذا الصحيح الذي لاشك فيه، وذلك عندنا وهم...» وبسط الكلام في ذلك، مع اعترافه بأن ذكر سعد جاء من طرق صحاح. وقد وقع من هذا النمط في الحديث مما لا يغير حكماً أحاديث ذوات عدد، وقد نبه الناس على أكثرها، وقد حاول بعضهم أجوبة لها؛ فتعسف، والله - سبحانه وتعالى - أعلم

هذا المقطع تقول السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعد أن إستشار عليا ، وأسامة بن زيد رضي الله عنهما ، ولم يجد لديهم ما يخفف عنه الهم والضيق وقف في الناس خطيبا علي المنبر ، فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول ، أي طلب العذر من الناس في أي فعل يفعله فيه جزاء ما آذاه به من الإفك في عرض أهل بيته ، وذكره لرجل وهو صفوان بن المعطل لا يعلم عنها إلا خيرا ، وليس محلا لأي ريبة . فعندما قال ذلك قام سيد الأوس وقال لو كان من الأوس لضربنا عنقه ، وإن كان من الخزرج لو أمرتنا لضربنا عنقه ، وكأنه يعرض بسكوت الخزرج علي ابن سلول وهو حليفهم ، فقام سعد ابن عباد رضي الله عنه وقد أخذته الحمية قائلا : والله لا تقتله ولا تقدر علي قتله ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ سيد الأوس وقال : والله لنقتله ، وأتهم سعد بن عباد بالإنفاق لأنه يدافع عن ابن سلول كبير المنافقين ، وهم القوم أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ علي المنبر ، فأخذ يهدأهم ويخفف من أصواتهم حتي سكتوا وسكت رسول الله ﷺ .

المقطع التاسع :

قَالَتْ: وَبَكَيْتُ يَوْمَ ذَلِكَ، لَا يَرَقًا لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، وَأَبْوَائِي يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَيْدِي. قَالَتْ: فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، اسْتَأْذَنْتِ عَلَيَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ لِي مَا قِيلَ، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسَيَرِّثُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتَ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ ثُمَّ تُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ

لِلرَّسُولِ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لَا أَحْفَظُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ -: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ بِهِذَا، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَقْتُمْ بِهِ، وَلَنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئةٌ وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ. وَلَنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرِ وَاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئةٌ تُصَدِّقُونِي ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ: {فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يُوسُف: ١٨] .

في هذا المقطع تصف السيدة عائشة رضي الله عنها أول مواجهة لها مع رسول الله ﷺ منذ بداية الحديث عنها فقالت : بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من خطبته علي المنبر ومحدث من تشاحن بين سيدي الأوس والخزرج ، إزداد بكأؤها ، وإنقطع نومها ، حتي خشي عليها أبويها من الهلاك من كثرة البكاء ، وأستأذنت عليها امرأة من الأنصار لتواسيها فأذنت لها وشاركتها البكاء ، وبينما هم علي هذا الحال دخل عليهم رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ، تقول ولم يجلس عندها منذ قيل ما قيل . ولم ينزل عليه وحيا في شأنها قرابة الشهر ، وبعد أن سلم قال لها (يا عائشة إن كنت برينة فسيبرئك الله ، وإن كنت قد ألممت بذنب فاستغفري الله ، ثم توبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه) ، وهكذا يكون رسول الله ﷺ قد وصل إلي أقصى درجات الحكمة في معالجة هذه الأزمة الكبيرة ، فبعد أن إستشار أقرب الناس إليه ولم ينفعوه بمشورتهم ، وبعد أن طرح الأمر علي الناس وكادوا أن يقتتلوا في المسجد ، لم يبق إلا مواجهة صاحبة الشأن ، ومحاولة إستخراج الحقيقة منها بفتح باب التوبة لها إن كانت قد ألمت بذنب ، والله تعالي في ذلك حكم عظيمة لتعليم المسلمين كيفية التصرف في مثل هذه المواقف ، فالله ﷻ قادر علي أن يكشف لرسوله الحقيقة من أول يوم ، إلا أنه سبحانه وجلت مشيئته أن يكون الأمر كما كان لتكتمل لنا في رسول الله ﷺ الأسوة في كل المواقف . عظمة رسول الله كانت في كونه لم يعنفها رسول الله ﷺ ولم يوجه لها إساءة مباشرة ، ولكنه ذكرها بالله وقدم إحتمالية براءتها التي يقدر الله وحده علي إظهارها - قدمها علي إتهامها بذنب ، وعندما ذكر الذنب فتح لها باب التوبة والإستغفار .

تقول السيدة عائشة ، بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من موعظته ، قلص دمعها ، أي إنقطعت دموعها وارتفعت من هول ما تسمع ، فلم تكن تتوقع أن يكون لدي رسول الله ﷺ أية ريبة في شأنها ، ولكنها لما سمعت منها ما سمعت ، تصرفت تصرف البريء الشريف العفيف الذي لم يتوقع سوء ظن ممن يحبه ، عندئذ لا معني للبكاء ، ولا قيمة للدموع ، ولا مكان للضعف ، فلا بد الآن أن تدافع عن نفسها بنفسها ، ولكن أدبها العالي لم يسمح لها بالرد علي رسول الله ﷺ في حضرة أبيها وأمها ، فقالت لكل منهما أجيئوا عني رسول الله ، وكان الرد واحد ، لا يعرفون كيف يجيبون رسول الله ، وهو الذي لا ينطق عن الهوي ، عندئذ تكلمت بكلام في منتهي العقل ، لا يصدر عن من هم في مثل سنها في مثل هذا الموقف العصيب ، قالت عرفت انكم أستمقر في نفوسكم بعد ما سمعتموه أني غير بريئة ، فإن قلت أني بريئة فلن تصدقوني ، وإن اعترفت لكم بذنب ، يعلم الله أني بريئة منه تصدقوني ، ثم إستعانت بمقولة يعقوب عليه السلام عند فقد ولده ، وغاب عنه إسمه فقالت لا أجد ما أقول إلا كما قال أبو يوسف {فصبر جميل والله المستعان علي ماتصفون }

المقطع العاشر :

ثم قالت: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ: وَأَنَا وَاللَّهِ جِينِدُ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بَرَاءَتِي، وَلَكِنَّ اللَّهَ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى، وَلِشَأْنِي كَانَ أَحَقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِي بَأْمَرٍ يُتْلَى. وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَلَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبَرْحَاءِ عِنْدَ الْوَحْيِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَنْحَدِرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي الْيَوْمِ الشَّاتِي، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ. قَالَتْ: فَلَمَّا سَرَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ، كَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنَّ قَالَ: "أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّكَ . فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ الَّذِي

أَنْزَلَ بَرَاءَتِي وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} عَشْرَ آيَاتٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي بَرَاءَتِي.

هذا هو المقطع الأخير في القصة ، بعد هذه المواجهة بين رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها ، قالت ذهبت إلي فراشها فنامت ، وكأنها قد أزيح عنها ما كان يمنع منها النوم بعد أن فضفضت بما في نفسها وهي علي يقين من براءتها وأن الله تعالى سيكشف براءتها ، وهذا من حسن الظن بالله تعالى ، ومن حسن التوكل عليه واللجوء إليه ، ولم تكن تظن أن ينزل في برائتها قرآن يتلي علي المنابر وف المحارب إلي يوم القيامة ، وكان أقصى ما ترجوه من الله تعالى أن يري رسول الله ﷺ رؤيا يبرئها الله فيها ، وذلك من شدة تواضعها وتصغيرها من شأن نفسها وهذا دأب الصالحين ، لهذا كله كانت مكافاتها عظيمة ، علي قدر صبرها ، وحسن ظنها وبقينها في الله تعالى ، ولم يطل صبرها بعد هذا الحوار ، وكان الله إستجاب لدعائها بعد أن إستنفذت الأسباب ، فما خرج أحد من أهل البيت ، وما غادر رسول الله ﷺ مجلسه هذا حتي نزل عليه الوحي بأعراضه المألوفة لهم من الثقل والعرق المتحدر ، إلي أن سري عنه فبشرها وهو يضحك بنزول الآيات العشرة من سورة النور ببراءتها ، فقالت لها أمها قومي إلي رسول الله ﷺ فأحمديه فقالت بكبرياء المجروح الذي يدل علي شخصيتها القوية ، والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله تعالى فهو الذي أنزل براءتي.

إلي هنا إنتهي حديث الإفك ببراءة عائشة رضي الله عنها مما رميت به ، إلا أنه كان للقصة توابع منها ما ذكرته عائشة رضي الله عنها في شأن مسطح ، عندما منعه أبوها أبو بكر رضي الله عنه - النفقة.

المقطع الحادي عشر :

- قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ -: وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ} إِلَى قَوْلِهِ {أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} [النُّور: ٢٢] فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ. وَقَالَ: لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا.

في هذا المقطع تقول السيدة عائشة رضي الله عنها ، بعد أن برأها عز وجل عزم أبو بكر رضي الله عنه أن يمنع نفقته عن مسطح ابن أثاة التي كان ينفقها عليه لقرابته منه وفقره - عقابا له لأنه كان أحد المتكلمين في عرض عائشة مع حسان بن ثابت ، بزعمه عبد الله بن أبي بن سلول فنزل قول الله تعالى {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ} ناهيا أبي بكر عن الحلف بمنع النفقة عن مسطح ، إلي قوله {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} فقال أبو بكر والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فأعاد إلي مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه ، وهذا درس وتعليم من الله تعالى في العفو ، وتقديم فتح باب التوبة للمذنبين وإصلاحهم بدلا من الانتقام منهم ، وهذا من موجبات مغفرة الله عز وجل .

المقطع الثاني عشر :

- قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَنْ أَمْرِي: يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتُ، أَوْ مَا رَأَيْتِ أَوْ مَا بَلَغَكَ ؟ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِنِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَرَعِ. وَطَفَفْتُ أُخْتُهَا حَمْنَةَ بِنْتُ جَحْشٍ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ.

في هذا المقطع تذكر السيدة عائشة رضي الله عنها الفضل لأهل الفضل وهو موقف السيدة زينب بنت جحش أم المؤمنين ، والتي كانت آخر من تزوجها النبي ﷺ من نسله بعد غزوة الأحزاب وقبل حديث الإفك ، وهي ابنة عمه رسول الله ﷺ وكانت زوجة لمتبناه زيد ابن حارثة قبل أن يطلقها ويزوجها الله تعالى لرسوله ﷺ وكانت جميلة وضيئه وهي التي " تسامي " أي تفاخر وتباهي عائشة رضي الله عنها بجمالها ووضائتها ، وبتزويج الله تعالى لها من نبيه ﷺ ، ورغم هذه المنافسة التي تشبه منافسة الضرائر ، رغم ذلك عندما سألتها رسول الله ﷺ عن أمر عائشة ، قالت أحمي سمعي وبصري - تقصد عن الكلام بما لا تعلم - ثم قالت ما علمت عنها إلا خيرا ، وهذا درس آخر من آل بيت النبي ، بيت الطهر والعفاف ، والترفع عن كل ما يغضب الله تعالى ، رغم أنها فرصة للضرة أن تقع في ضررتها وتظهرها بما يباعد بينها وبين زوجها لتحل محلها في القرب ، وهي تعلم مكانة عائشة من قلب

رسول الله ﷺ ، في نفس الوقت الذي كانت أختها حمنة بنت جحش من الذين هلكوا فيمن هلك بحديث الإفك وكانت ممن أقيم عليهم حد القذف .
 قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَهَذَا مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا، مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ الزُّهْرِيِّ كَذَلِكَ، قَالَ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ. وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ الْأَنْصَارِيُّ، عَنْ عَمْرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ بِنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .
 وقد روي الإمام البخاري قصة الإفك في حديث آخر^(١٢٤) مُعْلَقًا بِصِغَةِ الْجَزْمِ عَنْ أَبِي أُسَامَةَ حَمَادِ بْنِ أُسَامَةَ أَحَدِ الْأَيْمَةِ الثَّقَاتِ. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ وَكَيْعٍ، عَنْ أَبِي أُسَامَةَ بِهِ مُطَوَّلًا مِثْلَهُ أَوْ نَحْوَهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْأَشْجِجِ، عَنْ أَبِي أُسَامَةَ، بِبَعْضِهِ.
 وقد رويت القصة من طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ، عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فِي الْمَسَانِيدِ وَالصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَغَيْرِهَا^(١٢٥) ، تدور كلها في فلك رواية الإمام البخاري المتفق عليها ، والتي تعد أكثر الروايات تفصيلا للقصة ، وهي ما قمنا بعرضها وشرحها بفضل الله تعالى .
 ومن المناسب في نهاية القصة ، إلقاء الضوء علي الرجل الذي إتهمت به السيدة عائشة رضي الله عنها بالإفك والبهتان.

من هو صفوان بن المعطل !!!!

[هو صفوان بن المعطل بن بن رخصة بن المؤمل . أبو عمرو السلمي ، ثم الذكواني ، المذكور بالبراءة من الإفك . يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين حتى يأتيهم به ولذلك تخلف في هذا الحديث الذي قال فيه أهل الإفك ما قالوا، وقد روي في تخلفه سبب آخر وهو أنه كان ثقیل النوم لا يستيقظ حتى يرتحل الناس. كان صفوان صاحب رسول الله، ومن صالحی أصحابه، وقد روي له حديثان . وقد أثنى عليه الرسول في حادثة الإفك، فقد قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد: "أيها الناس ما بال رجال يؤذونني

١٢٤ صحيح البخاري رقم (٤٥٥٧)

١٢٥ المسند (٣٥/٦) وسنن أبي داود برقم (٤٤٧٤) وسنن الترمذي برقم (٣١٨١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٣٥١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥٦٧) .

في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيرا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا، ولا يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي" يعني صفوان بن المعطل. حدث عنه : سعيد بن المسيب ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وسعيد المقبري ، وسلام أبو عيسى . وروايتهم عنه مرسله ، لم يلحقوه فيما أرى ، إن كان مات سنة تسع عشرة . قال ابن سعد : أسلم صفوان بن المعطل قبل المريسيع . وكان على ساقفة النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن قال : مات بسميساط في آخر خلافة معاوية حدثني بذلك محمد بن عمر . وقال خليفة : مات بناحية سميساط من الجزيرة ، وقبره هناك [(١٢٦)]

الفصل الثاني

قصة الحادثة في القرآن

عرضنا تفاصيل قصة الإفك كما وردت في دواوين السنة من خلال رواية السيدة عائشة رضي الله عنها و نقلتها عنها الكتب الصحاح من طرق عديده ، وعندما نزلت الآيات ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها تضمنت الكثير من الدروس والعبر ، وهذا ما نسعي لبيانه من خلال كتب التفسير .

وقد نزل التعقيب الإلهي علي الحادثة في عشر آيات من سورة النور في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنَنِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) 》

وسبب نزول هذه الآيات ، ماسبق بيانه من حديث الإفك ، الذي نال من عرض أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، وبدأت الآيات المتعلقة بالحادثة بقول الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) ،

في هذه الآية إثبات لتسمية الحديث بالإفك ، وأن هذه التسمية وهذا الوصف من الله تعالى ، والإفك هو أشد الكذب أو هو أسوأ الكذب لأنه يقلب الحقائق

ويختلف واقعاً مضاداً لما لم يحدث عمداً عن قصد ، وبين الله تعالى أن الذين جاءوا بالإفك هم عصابة ، والعصابة هي الجماعة التي ترتبط حركتها لتحقيق غاية متحدة، حتي ولو كانت هذه الحركة التي ربطت بينهم ، تمت بلا إتفاق ، أي أنهم جماعة اتفقت سرانهم علي تنفيذ حداث لغاية واحدة، ومنه قوله تعالى في سورة يوسف: {وَنَحْنُ عُصْبَةٌ} [يوسف: ١٤] ، وما دام أهل الإفك عصابة فلا بد أن لهم غاية واحدة في التشويه والتبشيع، وكان رئيسهم عبد الله بن أبي بن سلول، وهو شيخ المنافقين. وبما أن الله سبحانه وتعالى سمى هذه الحادثة في حق أم المؤمنين عائشة إفكاً فلا بد أنهم قلبوا الحقائق وقالوا ما يناقض الواقع.

أوجه الخير في قصة الإفك

ثم يقول سبحانه: {لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [النور: ١١] قد يقول قائل ، وما الخير في هذا الكلام وفي إذاعته؟ هذا السؤال يدل علي قصر نظر السائل ، لأن هذا الحادث رغم ماسببه من أذي وضيق وكدر لرسول الله ، ولزوجه عائشة ، وأبيها أقرب الصحابة إليه -أبو بكر الصديق رضي الله عنه - إلا أن الخير الذي أنعم الله به عليهم بنزول هذه الآيات ، لم يقتصر عليه فقط بل فاض علي عامة المسلمين . قالوا: لأنه حين تثهم عائشة وتنزل براءتها من فوق سبع سموات في قرآن ينثلي ويتعبد به إلى يوم القيامة، وحين يفضح قوم على لسان القرآن، لا بد أن يعتبر الآخرون، ويخافوا إن فعلوا مخالفة أن يفتضح أمرهم؛ لذلك جاء هذا الموقف درساً عملياً لمجتمع الإيمان.

قال القرطبي [وَالْخَيْرُ حَقِيقَتُهُ: مَا زَادَ نَفْعُهُ عَلَى ضَرِّهِ. وَالشَّرُّ: مَا زَادَ ضَرُّهُ عَلَى نَفْعِهِ. وَإِنْ خَيْرًا لَا شَرَّ فِيهِ هُوَ الْجَنَّةُ، وَشَرًّا لَا خَيْرَ فِيهِ هُوَ جَهَنَّمُ. فَأَمَّا الْبَلَاءُ النَّازِلُ عَلَى الْأَوَّلِيَاءِ فَهُوَ خَيْرٌ، لِأَنَّ ضَرَرَهُ مِنَ الْأَلَمِ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا، وَخَيْرُهُ هُوَ النَّوَابُ الْكَثِيرُ فِي الْآخِرَةِ. فَتَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَائِشَةَ وَأَهْلَهَا وَصَفَوْنَ، إِذِ الْخَطَابُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ: "لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ"، لِرُجْحَانِ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ عَلَى جَانِبِ الشَّرِّ.] (١٢٧)

والخير في هذه الحادثة متعدد الأوجه ، منه ما يتعلق برسول الله ﷺ ، ومنه ما يتعلق بالسيدة عائشة رضي الله عنها ، ومنه ما يتعلق بأبي بكر رضي الله عنه ، ومنه ما يتعلق بعامة المؤمنين ، أما بالنسبة للخير الذي يتعلق برسول الله ﷺ ، ففي نهاية المحنة ، يثبت تأييد الله عز وجل لرسوله ﷺ ، فبعد أن عجز أعداء الإسلام عن إيقاف دعوة رسول الله ﷺ بالقتال ، وبالقوة المادية ، أو بالإقناع ، وتزايد أتباع النبي ﷺ مع مرور الأيام ، فهاهم يعجزون مرة أخرى ويفشلون في النيل من الدعوة بالطريقة الجديدة - طريقة إشاعة الأراجيف والطعن في الأعراض- وهي طريقة المنافقين ، وفي هذا خير للمؤمنين من وجه آخر ، وهو أن حدوث هذا الحادث في حياة رسول الله ﷺ ، ولأهل بيته الأطهار ، كان سببا في نزول الوحي بما يلزم عمله ، وتعليم المؤمنين كيفية التصرف في مثل هذه المواقف .

والخير للسيدة عائشة رضي الله عنها ، في إظهار برائتها وعفرتها وفضلها بآيات تتلى على المنابر وفي الصلوات ، وفي تلاوات المسلمين إلي يوم القيامة ، جزاء صبرها وصدق لجونها إلي الله تعالى .

والخير للمؤمنين أن في المحنة تمحيص وتمييز للمحب من المبغض ، وللعُدو من الصديق ، وفي نهاية المطاف ظهر أن الخير في أمة المسلمين هو الأغلب ، فنسبة من هلك في المحنة لا تكاد تذكر من قتلها بالقياس إلي من ثبت في المحنة وظن الخير في المؤمنين .

ومن الخير أيضا ، الأجر العظيم الذي ترتب علي ما أصاب المؤمنين من أذى ومشقة وجهد ، خاصة مع إنقطاع الوحي لما يقرب من شهر ليزداد تعلق المؤمنين بالله سبحانه وتعالى لتفريج الكرب .

ومن الخير أيضا ، ما ناله صفوان بن المعطل ، الذي بقي ذكره متداولاً في التاريخ الإسلامي ، وذلك بثبوت عفته وبرأته ، بنزول الوحي ببراءة السيدة رضي الله عنها ، وربما لولا إصابته بهذا الإبتلاء ، لما كان له ذكر في كتب السيرة وذلك لعدم وجود دور متميز له في كتب السيرة.

هذه جملة من أوجه الخير التي يشير إليها قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وربما كان هناك المزيد من أوجه الخير التي لا يعلمها إلا الله تعالى .

وكل هذا الخير الملتبس في هذه الحادثة التي ظاهرها الشر تؤدي المعنى المقصود في قول الله تعالى في سورة البقرة {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ} وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {٢١٦}

وقوله: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ} أي: لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بشيء من الفاحشة، نصيب عظيم من العذاب.

قال القرطبي [يعني ممن تكلم بالإفك. ولم يسم من أهل الإفك. إلا حسان ومسطح وحمنة وعبد الله وجهل الغير، قاله عروة بن الزبير، وقد سألته عن ذلك عبد الملك بن مروان، وقال: إلا أنهم كانوا عصابة، كما قال الله تعالى. وفي مصحف حفصة: "عصابة أربعة"]

قوله تعالى: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ} قيل: أي ابتداء به. وقيل: الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه، {له عذاب عظيم} أي: على ذلك. قال ابن كثير [ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي بن سلول -فبحه الله ولعنه- وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد. وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن محاسنه أنه كان يدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هاجهم وجبريل معك"، وقال الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: كنت عند عائشة، رضي الله عنها، فدخل حسان بن ثابت، فأمرت فآلتي له وسادة، فلما خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بهذا؟ يعني: يدخل عليك -وفي رواية قيل لها: أتأذنين لهذا يدخل عليك، وقد قال الله: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ}؟ قالت: وأي عذاب أشد من العemy -وكان قد ذهب بصره -لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم. ثم قالت: إنه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.] (١٢٨) تولى كبر

الشيء: يعني قام به وله حظ وافر فيه، أو نقول: هو ضالع فيه، وترويجها {لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} أي: يناسب هذه الجريمة.

الواجب على المسلمين تجاه الشائعات

قوله تعالى: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)}

هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَضِيَّةٍ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حِينَ أَفَاضَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، وَمَا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِ الْإِفْكِ، فَقَالَ: {لَوْلَا} بِمَعْنَى: هَلَا {إِذْ سَمِعْتُمُوهُ} أَي: ذَلِكَ الْكَلَامَ، أَي: الَّذِي رُمِيَ بِهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} أَي: قَاسُوا ذَلِكَ الْكَلَامَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ كَانَ لَا يَلِيقُ بِهِمْ فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أُولَى بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى.

وهنا يُوجِّهنا الحق - تبارك وتعالى - إلى ما ينبغي أن يكون في مثل هذه الفتنة من ثقة المؤمنين بأنفسهم بإيمانهم، وأن يظنوا بأنفسهم خيراً وينأوا بأنفسهم عن مثل هذه الاتهامات التي لا تليق بمجتمع المؤمنين، فكان على أول أذن سمعت هذا الكلام عن أول لسان نطق به أن يرفضه؛ لأن الله تعالى ما كان ليدلس على رسوله وصفوته من خلقه، فيجعل زوجته محل شك واتهام فضلاً عن رميها بهذه الجريمة البشعة.

و {لَوْلَا} أداة للخص والحث، وقال: {المؤمنون والمؤمنات} لأنه جال في هذه الفتنة رجال ونساء، والقرآن لا يحثهم على ظن الخير برسول الله أو زوجته، وإنما ظن الخير بأنفسهم هم؛ لأن هذه المسألة لا تليق بالمؤمنين، فما بالك بزوجة نبي الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

{وَقَالُوا} أي: قبل أن ينزل القرآن ببراءتها {هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ} يعني: كذب متعمد واضح بين لأنه في حق من؟ في حق أم المؤمنين التي طهرها الله واختارها زوجة لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا عتاب من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا.

قال الطبري في تفسيره [وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي أَيُّوبَ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ وَامْرَأَتِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ بَعْضِ رِجَالِ بَنِي النَّجَّارِ؛ أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ خَالِدَ بْنَ زَيْدٍ قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ أُمُّ أَيُّوبَ: يَا أَبَا أَيُّوبَ، أَمَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ الْكُذْبُ. أَكُنْتَ فَاعِلَةً ذَلِكَ يَا أُمُّ أَيُّوبَ؟ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَهُ. قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْكَ. قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ ذَكَرَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، مَنْ قَالَ فِي الْفَاحِشَةِ مَا قَالَ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ} [النور: ١١] وَذَلِكَ حَسَنٌ وَأَصْحَابُهُ، الَّذِينَ قَالُوا مَا قَالُوا، ثُمَّ قَالَ: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ} الْآيَةَ، أَيُّ: كَمَا قَالَ أَبُو أَيُّوبَ وَصَاحِبَتُهُ [١٢٩]

وقد تعددت الآيات في كتاب الله تعالى ، التي تحمل وصية الله تعالى للمؤمنين بأنفسهم خيرا ، كقوله تعالى في سورة البقرة { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ } {٨٤} وقوله تعالى في سورة النساء { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ } وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } {٢٩} وقوله تعالى في سورة النور { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } {٦١} وقوله تعالى في سورة الحجرات { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ } وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ } وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } {١١} وقوله تعالى في سورة التحريم { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } {٦}

كل هذا الوصايا لعلمه تعالى بخلقه ، وبنزوع النفس البشرية إلى فعل السوء إلا من رحم كما في قوله تعالى علي لسان امرأة العزيز في سورة يوسف { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي } إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } {٥٣}

وَقَوْلُهُ: {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} أَي: هَلَا ظَنُّوا الْخَيْرَ، فَإِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَهُ وَأَوَّلَى بِهِ، هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَاطِنِ، {وَقَالُوا} أَي: بِأَلْسِنَتِهِمْ {هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} أَي: كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ رِيبَةً، وَذَلِكَ أَنَّ مَجِيءَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَاكِبَةً جَهْرَةً عَلَى رَاكِبَةٍ صَفْوَانِ بْنِ الْمُعْتَمَلِ فِي وَفْتِ الظَّهِيرَةِ، وَالْجَيْشُ بِكَمَالِهِ يَشَاهِدُونَ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، لَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِيهِ رِيبَةٌ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا جَهْرَةً، وَلَا كَانَا يُقَدِّمَانِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، بَلْ كَانَ يَكُونُ هَذَا سَلَوَ قُدْرٍ -خُفْيَةً مَسْتَوْرًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ مِمَّا رَمَوْا بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْتُ، وَالْقَوْلُ الزُّورُ، وَالرَّعُونَةُ الْفَاحِشَةُ الْفَاجِرَةُ وَالصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ.

يقول القرطبي [قُلْتُ: وَلَاجِلِ هَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الْآيَةَ أَصْلًا فِي أَنَّ دَرَجَةَ الْإِيمَانِ الَّتِي حَازَهَا الْإِنْسَانُ، وَمَنْزِلَةُ الصَّلَاحِ الَّتِي حَلَّهَا الْمُؤْمِنُ، وَلُبْسَةُ الْعُقَابِ الَّتِي يَسْتَتِرُ بِهَا الْمُسْلِمُ لَا يَزِيلُهَا عَنْهُ خَبَرٌ مُحْتَمَلٌ وَإِنْ شَاعَ، إِذَا كَانَ أَصْلُهُ فَاسِدًا أَوْ مَجْهُولًا]. (١٣٠)

قوله تعالى {لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} (١٣)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَوْلَا} أَي: هَلَا {جَاءُوا عَلَيْهِ} أَي: عَلَى مَا قَالُوهُ {بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ} يَشْهَدُونَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ {فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} أَي: فِي حُكْمِ اللَّهِ كَذَبَةُ فَاجِرُونَ.

وَهَذَا تَوْبِيخٌ لِأَهْلِ الْإِفْكِ، أَي: هَلَا جَاءُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ عَلَى مَا زَعَمُوا مِنَ الْإِفْتِرَاءِ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْحُكْمِ الْأَوَّلِ، وَإِحَالَةٌ عَلَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ فِي آيَةِ الْقَذْفِ. يَقُولُ الْقُرْطُبِيُّ [قَوْلُهُ تَعَالَى {فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} أَي: هُمْ فِي حُكْمِ اللَّهِ كَاذِبُونَ، وَقَدْ يَعْجُزُ الرَّجُلُ عَنْ إِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ وَهُوَ صَادِقٌ فِي قَذْفِهِ، وَلَكِنَّهُ فِي حُكْمِ الشَّرْعِ وَظَاهِرِ الْأَمْرِ كَاذِبٌ لَا فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا رَتَّبَ الْحُدُودَ عَلَى حُكْمِهِ الَّذِي شَرَعَهُ فِي الدُّنْيَا لَا عَلَى مُقْتَضَى عِلْمِهِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِالْإِنْسَانِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَإِنَّمَا يُبْنَى عَلَى ذَلِكَ حُكْمُ الْآخِرَةِ، قُلْتُ: وَمِمَّا يُقَوِّي هَذَا الْمَعْنَى وَيُعْصِدُهُ مَا خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ

(عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَاهُ وَقَرَّبَنَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا مِنْ سِرِّرَتِهِ شَيْءٌ يَحَاسِبُهُ فِي سِرِّرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نُؤْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ إِنَّ سِرِّرَتَهُ حَسَنَةٌ) (١٣١).

وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ أَحْكَامَ الدُّنْيَا عَلَى الظَّاهِرِ، وَأَنَّ السَّرَائِرَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. [وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ] قَالَ الْمَوْرِدِيُّ وَغَيْرُهُ: اخْتَلَفُوا هَلْ حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَ الْإِفْكِ، عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لَمْ يَحْدِثْ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لِأَنَّ الْحُدُودَ إِنَّمَا تُقَامُ بِإِفْرَارٍ أَوْ بَبَيْتَةٍ، وَلَمْ يَتَعَبَّدْهُ اللَّهُ أَنْ يُقِيمَهَا بِإِخْبَارِهِ عَنْهَا، كَمَا لَمْ يَتَعَبَّدْهُ بِقَتْلِ الْمُنَافِقِينَ، وَقَدْ أَخْبَرَهُ بِكُفْرِهِمْ. قُلْتُ: وَهَذَا فَاسِدٌ مُخَالِفٌ لِنَصِّ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ} أَيَّ عَلَى صَدَقِ قَوْلِهِمْ: {فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً} وَالْقَوْلُ الثَّانِي - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَدَّثَ أَهْلَ الْإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَمُسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ وَحَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ وَفِي ذَلِكَ قَالَ شَاعِرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ:

لَقَدْ دَاقَ حَسَنُ الَّذِي كَانَ أَهْلُهُ ... وَحَمْنَةُ إِذْ قَالُوا هَجِيرًا وَمُسْطَحُ
وَابْنُ سُلُولٍ دَاقَ فِي الْحَدِّ خَزِيَّةً ... كَمَا خَاضَ فِي إِفْكِ مِنَ الْقَوْلِ يُفْصِحُ
تَعَاظُوا بِرَجْمِ الْغَيْبِ زَوْجِ نَبِيِّهِمْ ... وَسَخْطَةَ ذِي الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فَابْرَحُوا
وَأَذُوا رَسُولَ اللَّهِ فِيهَا فَجَلِدُوا ... مَخَازِي تَبْقَى عُيُومَهَا وَفُضِّحُوا
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ مُحْصَدَاتُ كَانَتْهَا ... شَائِبِبِ قَطْرٍ مِنْ دُرَى الْمُزْنِ تَسْنِفُ
قُلْتُ: الْمَشْهُورُ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الَّذِي حَدَّثَ حَسَنًا وَمُسْطَحًا وَحَمْنَةَ، وَلَمْ يُسْمَعْ بِحَدِّ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي. رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ عَذْرِي قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ، وَتَلَا الْقُرْآنَ، فَلَمَّا نَزَلَ مِنَ الْمَنْبَرِ أَمَرَ بِالرَّجُلَيْنِ وَالْمَرْأَةِ فَضْرَبُوا حُدُومَهُمْ، وَسَمَّاهُمْ: حَسَنًا وَحَمْنَةَ وَابْنَ سُلُولٍ وَابْنَ جَحْشٍ. وَفِي كِتَابِ الطَّحَاوِيِّ: "ثَمَانِينَ ثَمَانِينَ"، قَالَ عَلَمَاؤُنَا وَإِنَّمَا لَمْ يَحْدِثْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا عَظِيمًا، فَلَوْ حَدَّثَ فِي الدُّنْيَا لَكَانَ ذَلِكَ نَقْصًا مِنْ عَذَابِهِ فِي الْآخِرَةِ وَتَخْفِيفًا عَنْهُ مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ شَهِدَ بِبِرَاءَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَبِكُذْبِ كُلِّ مَنْ رَمَاهَا، فَقَدْ حَصَلَتْ فَائِدَةُ الْحَدِّ، إِذْ مَقْصُودُهُ إِظْهَارُ كُذْبِ الْقَادِفِ

وَبَرَاءَةِ الْمُقْدُوفِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ"، وَإِنَّمَا حَدُّ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ لِيُكَفَّرَ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ الْقَذْفِ حَتَّى لَا يَبْقَى عَلَيْهِمْ تَبَعَةٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ فِي الْحُدُودِ (إِنَّهَا كَفَّارَةٌ لِمَنْ أُقِيمَتْ عَلَيْهِ)، كَمَا فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّمَا تُرِكَ حَدُّ ابْنِ أَبِي اسْتِنْلَافًا لِقَوْمِهِ وَاخْتِرَامًا لِابْنِهِ، وَإِطْفَاءً لِثَأْنَةِ الْفِتْنَةِ الْمُتَوَقَّعةِ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ ظَهَرَ مَبَادِئُهَا مِنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَمِنْ قَوْمِهِ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. [١٣٢]

قال تعالى {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنْتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) }

يقول ابن كثير [يقول الله: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} أَيُّهَا الْخَائِضُونَ فِي شَأْنِ عَانِشَةَ، بَأَنَّ قَبْلَ تَوْبَتِكُمْ وَإِنَابَتِكُمْ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَعَفَا عَنْكُمْ لِيَامَانِكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، {لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ}، مِنْ قَضِيَةِ الْإِفْكِ، {عَذَابٌ عَظِيمٌ}. وَهَذَا فَيَمَنْ عِنْدَهُ إِيْمَانٌ رَزَقَهُ اللَّهُ بِسَبَبِهِ النُّوْبَةَ إِلَيْهِ، كَمُسْطَحٍ، وَحَسَنَانَ، وَحَمْنَةَ بِنْتَ جَحْشٍ، أُخْتُ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ. فَأَمَّا مَنْ خَاضَ فِيهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ وَأَضْرَابِهِ، فَلَيْسَ أُولَئِكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يُعَادِلُ هَذَا وَلَا مَا يُعَارِضُهُ. وَهَكَذَا شَأْنُ مَا يَرُدُّ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى فِعْلٍ مُعَيَّنٍ، يَكُونُ مُطْلَقًا مَشْرُوطًا بِعَدَمِ النُّوْبَةِ، أَوْ مَا يُقَابِلُهُ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُوَازِنُهُ أَوْ يَرْجِحُ عَلَيْهِ. [١٣٣]

{أَفَضْتُمْ} أي إندفعتم اندفاعاً شديداً وتزديتم في الأمر، ومعنى الإندفاع أن يأخذ الحدث الكبير زمناً أقل مما يتصور له، كالمسافة تمشيها في دقيقتين، فتسرع لتقطعها في دقيقة واحدة، فكأنهم أسرعوا في هذا الكلام لما سمعوه، كما يقولون: خَبٌّ فيها ووضع.

وقد يقول قائل : لماذا تفضل الله عليهم ورحمهم، فلم يمسهم العذاب، ولم يجازهم على افتراءهم على أم المؤمنين؟ الجواب أن الله تبارك وتعالى أراد

١٣٢ تفسير القرطبي - سورة النور الآيات إلى ١٣ ص ٢٠٣ - المكتبة الشاملة الحديثة

١٣٣ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٢٥ - المكتبة الشاملة الحديثة

من هذه المسألة العبرة والعظة، وجعلها للمؤمنين وسيلة إيضاح، فليس المراد أن ينزل الله بهم العذاب، إنما أن يعلمهم ويعطيهم درساً في حفظ أعراض المؤمنين.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ} قَالَ مُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَيْ يَرَوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، يَقُولُ هَذَا سَمِعْتُهُ مِنْ فُلَانٍ، وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ كَذَا انظر إلى بلاغة الأداء القرآني في التعبير عن السرعة في إفشاء هذا الكلام وإذاعته دون وعي ودون تفكير، فمعلوم أن تلقي الأخبار يكون بالأذن لا بالالسنه، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكأنهم يتلقونه بالالسنه، كأن مرحلة السماع بالأذن قد أُلغيت، فبمجرد أن سمعوا قالوا.

وهو تصوير بديع ، إذ يصور ألسنة الأفاكين في إطلاق الكلام بمجرد تلقيه ، وكأنها مضارب لكرة اليد ، التي تضرب الكرة بمجرد تلقيها ، فلم تدع هذه الألسنة فرصة للكلام لكي يمر علي العقل ، فيزنه ، ويقدر خطورته ، ولكن بمجرد تلقي الكلام تطلقه الألسنة .

وَأَصْلُ تَلَقَّوْنَهُ تَتَلَقَّوْنَهُ بِتَاءٍ حُذِفَتْ إِحْدَاهُمَا. وَأَصْلُ التَّلَقِّي أَنَّهُ التَّكَلُّفُ لِلْقَاءِ الْغَيْرِ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} [البقرة: ٣٧] أَيْ عَلَّمَهَا وَلَقَّنَهَا، ثُمَّ يُطْلَقُ التَّلَقِّي عَلَى أَخْذِ شَيْءٍ بِالْيَدِ مِنْ يَدِ الْغَيْرِ ، فَفِي قَوْلِهِ: بِأَلْسِنَتِكُمْ تَشْبِيهُ الْخَبَرِ بِشَخْصٍ وَتَشْبِيهُ الرَّاوي لِلْخَبَرِ بِمَنْ يَنْتَهِيًا وَيَسْتَعِدُّ لِلْقَائِهِ اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً فَجُعِلَتِ الْأَلْسُنُ آلَةً لِلتَّلَقِّي عَلَى طَرِيقَةِ تَخْيِيلِيَّةٍ بِتَشْبِيهِهِ الْأَلْسُنِ فِي رَوَايَةِ الْخَبَرِ بِالْأَيْدِي فِي تَنَاوُلِ الشَّيْءِ. وَإِنَّمَا جُعِلَتِ الْأَلْسُنُ آلَةً لِلتَّلَقِّي مَعَ أَنَّ تَلَقِّي الْأَخْبَارِ بِالْأَسْمَاعِ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ هَذَا التَّلَقِّي غَايَتُهُ التَّحَدُّثُ بِالْخَبَرِ جُعِلَتِ الْأَلْسُنُ مَكَانَ الْأَسْمَاعِ مَجَازًا بِعَلَاقَةِ الْأَيْلُولَةِ. وَفِيهِ تَعْرِضٌ بِحَرِصِهِمْ عَلَى تَلَقِّي هَذَا الْخَبَرِ فَهُمْ حِينَ يَتَلَقَّوْنَهُ يُبَادِرُونَ بِالْإِخْبَارِ بِهِ بِلا تَرَوٍ وَلَا تَرِيثٍ. وَهَذَا تَعْرِضٌ بِالتَّوْبِيخِ أَيْضًا.

وقد قرئت { تلقونه } ثلاث قراءات ، الأولى بِضَمِّ التَّاءِ وَسُكُونِ اللَّامِ وَضَمِّ النِّقَافِ، مِنَ الْإِلْفَاءِ، وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ بَيِّنَةٌ ، والثانية : " إِذْ تَلَقَّوْنَهُ " مِنَ التَّلَقِّي، بِتَاءَيْنِ وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ ، والثالثة : قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ وَهِيَ بِحَرْفِ التَّاءِ الْوَاحِدَةِ وَإِظْهَارِ الدَّالِ دُونَ إِدْغَامِ، وَهَذَا أَيْضًا مِنَ التَّلَقِّي. وبلاغة الآية في جعل التلقي بالالسنه بصرف النظر عن اختلاف القراءات لـ {تلقونه}.

يقول الطبري [والقراءة التي لا أستجيز غيرها: (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ) على ما ذكرت من قراءة الأمصار، لإجماع الحجة من القراءة عليها.] (١٣٤)

وَقَوْلُهُ: {وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} أَي: تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: {وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ فَوْجَهُ ذِكْرٍ بِأَفْوَاهِكُمْ مَعَ أَنَّ الْقَوْلَ لَا يَكُونُ بِغَيْرِ الْأَفْوَاهِ} أَنَّهُ أُرِيدَ التَّمْهِيدُ لِقَوْلِهِ: مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، أَيِ هُوَ قَوْلٌ غَيْرُ مُوَافِقٍ لِمَا فِي الْعِلْمِ وَلَكِنَّهُ عَنِ مُجَرَّدِ تَصَوُّرٍ لِأَنَّ أَدْلَةَ الْعِلْمِ قَائِمَةٌ بِنَقِيضِ مَذْلُولِ هَذَا الْقَوْلِ فَصَارَ الْكَلَامُ مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ تَجْرِي عَلَى الْأَفْوَاهِ.

وَفِي هَذَا مِنَ الْأَدَبِ الْأَخْلَاقِيِّ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَقُولُ بِلِسَانِهِ إِلَّا مَا يَعْلَمُهُ وَيَتَحَقَّقُهُ وَإِلَّا فَهُوَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: أَفْنِ الرَّأْيِ يَقُولُ الشَّيْءَ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ الْأَمْرُ فَيُوشِكُ أَنْ يَقُولَ الْكُذْبَ فَيَحْسِبُهُ النَّاسُ كَذَابًا.

وفي الحديث الصحيح موقوفا عن عمر رضي الله عنه (بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ماسم) (١٣٥)

، أَوْ رَجُلٌ مَمُوءَةٌ مُرَاءٍ يَقُولُ مَا يَعْتَقِدُ خِلَافَهُ قَالَ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} [البقرة: ٢٠٤].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} أَي: تَقُولُونَ مَا تَقُولُونَ فِي شَأْنِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَحْسَبُونَ ذَلِكَ يَسِيرًا، سَهْلًا وَلَوْ لَمْ تَكُنْ زَوْجَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَا كَانَ هَيِّنًا، فَكَيْفَ وَهِيَ زَوْجَةُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، فَعَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يُقَالَ فِي زَوْجَةِ رَسُولِهِ مَا قِيلَ! اللَّهُ يَغَارُ لِهَذَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا يَقْدِرُ عَلَى زَوْجَةِ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ ذَلِكَ، حَاشَا وَكَلَّا وَلَمَّا - لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا فِي سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، وَزَوْجَةِ سَيِّدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟! وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: (إِنْ الرَّجُلُ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يَدْرِي مَا تَبْلُغُ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) وَفِي رِوَايَةٍ: (لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا) (١٣٦)

١٣٤ تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر - ص ١٣٢ - المكتبة الشاملة الحديثة

١٣٥ صحيح مسلم ، المقدمة - باب النهي عن الحديث بكل ماسم - حديث رقم (٥)

١٣٦ صحيح البخاري برقم (٦٤٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

وَرَادَ فِي تَوْبِيخِهِمْ بِقَوْلِهِ: وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ، أَيْ تَحْسَبُونَ الْحَدِيثَ بِالْقَذْفِ أَمْرًا هَيِّنًا. وَإِنَّمَا حَسِبُوهُ هَيِّنًا لِأَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا الْعِيبَةَ وَالطَّعْنَ فِي النَّاسِ اسْتِصْحَابًا لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي مَدَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَازِعٌ مِنَ الدِّينِ يَرَعُهُمْ فَلِذَلِكَ هُمْ يَحْذَرُونَ النَّاسَ فَلَا يَعْتَدُونَ عَلَيْهِمْ بِالْيَدِ وَبِالسَّبِّ خَشْيَةً مِنْهُمْ فَإِذَا خَلَوْا أَمِنُوا مِنْ ذَلِكَ. فَهَذَا سَبَبُ حُسْبَانِهِمُ الْحَدِيثَ فِي الْإِفْكِ شَيْئًا هَيِّنًا وَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِإِزَالَةِ مَسَاوِي الْجَاهِلِيَّةِ وَإِتْمَامِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

وقد يقول قائل: لماذا إستهانوا به مع أن تشريع حد القذف سابق لحديث الإفك ، يقول ابن عاشور [الحدّ ثابتٌ قبلُ نزولِ الآيةِ بحسبِ ظاهر ترتيبِ الآيِ في قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ [النور: ٤] الآيةِ لجوازِ أنّه لَمْ تَحْدُثْ قَضِيَّةٌ قَذْفٌ فِيهَا بَيْنَ نَزُولِ تِلْكَ الْآيَةِ وَنَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، أَوْ حَدَثَتْ قَضِيَّةٌ عُومِرَ الْعَجْلَانِي وَلَمْ يَعْلَمْ بِهَا أَصْحَابُ الْإِفْكِ، أَوْ حَسِبُوهُ هَيِّنًا لِعَفْلَتِهِمْ عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ حُكْمِ الْحَدِّ إِذْ كَانَ الْعَهْدُ بِهِ حَدِيثًا. وَفِيهِ مِنْ أَدَبِ الشَّرِيعَةِ أَنَّ اخْتِرَامَ الْقَوَانِينِ الشَّرْعِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ سَوَاءً فِي الْعِيبَةِ وَالْحَضَرَةِ وَالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ. (١٣٧)]

قال الله تعالى {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) }

هَذَا تَأْدِيبٌ آخَرُ بَعْدَ الْأَوَّلِ: الْأَمْرُ بِالظَّنِّ خَيْرٌ أَيْ: إِذَا ذُكِرَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْقَوْلِ فِي شَأْنِ الْخَيْرَةِ فَأُولَى يَنْبَغِي الظَّنُّ بِهِمْ خَيْرًا، وَالْأَيُّ شَعَرَ نَفْسَهُ سِوَى ذَلِكَ، ثُمَّ إِنْ عُلِقَ بِنَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ -وَسُوسَةٌ أَوْ خَيَالًا -فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (١٣٨)

وفي هذه الآيات عِتَابٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْ كَانَ يَنْبَغِي عَلَيْكُمْ أَنْ تُتَكْرَهُ وَلَا يَتَعَاطَاهُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ الْحِكَايَةِ وَالنَّقْلِ، وَأَنْ تُنَزَّهُوا اللَّهَ تَعَالَى عَنْ أَنْ يَقَعَ هَذَا مِنْ رُوحِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَأَنْ تَحْكُمُوا عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِأَنَّهَا بُهْتَانٌ، وَحَقِيقَةُ الْبُهْتَانِ أَنْ يُقَالَ فِي الْإِنْسَانِ مَا لَيْسَ فِيهِ،

١٣٧ التحرير والتنوير - سورة النور آية - ١٥ ص ١٧٩ المكتبة الشاملة الحديثة
١٣٨ صحيح البخاري برقم (٥٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٧) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

وَالْغَيْبَةُ أَنْ يُقَالَ فِي الْإِنْسَانِ مَا فِيهِ. وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. ثُمَّ وَعَظَهُمْ تَعَالَى فِي الْعُودَةِ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ. وقد استعمل في النفي {ما يكون لنا} ولم يقل "ليس لنا" لأن نفي الفعل بـ "ما يكون" من الأصل ، أبلغ من نفيه عنك بـ "ليس" والتي تفيد بإحتمالية وقوع الفعل ، كما جاء النفي علي لسان عيسى عليه السلام في سورة المائدة { قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ } { ١١٦ } ، قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) تَوْقِيفٌ وَتَوْكِيدٌ، كَمَا تَقُولُ: يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا إِنْ كُنْتَ رَجُلًا.

وَوَصَفَ الْبُهْتَانَ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَظِيمٌ فِي وَقُوعِهِ، أَيْ بَالِغٌ فِي كُنْهِ الْبُهْتَانِ مَبْلَغًا قَوِيًّا. وَإِنَّمَا كَانَ عَظِيمًا لِأَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى مُنْكَرَاتٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ: الْكُذْبُ، وَكَوْنُ الْكُذْبِ يَطْعَنُ فِي سَلَامَةِ الْعُرْضِ، وَكَوْنُهُ يُسَبِّبُ إِحْنًا عَظِيمَةً بَيْنَ الْمُفْتَرِينَ وَالْمُفْتَرَى عَلَيْهِمْ بِذُنُوبٍ عَذْرَ، وَكَوْنُ الْمُفْتَرَى عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرَةِ النَّاسِ وَانْتِمَانِهِمْ إِلَى آخِرِ النَّاسِ مِنْ أَزْوَاجِ وَأَبَاءٍ وَقُرَابَاتٍ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ اجْتِرَاءٌ عَلَى مَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ ومقام أم المؤمنين رضي الله عنها.

ومعني {هذا بهتان} أي كذب يبهت من يواجه به، ويحيره لشدة ما يفعل في القوى الباطنة، لأنه في غاية الغفلة عنه لكونه أبعد الناس منه.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا} أَيْ: يَنْهَاكُمُ اللَّهُ مَتَوَعِدًا أَنْ يَقَعَ مِنْكُمْ مَا يُشَبِّهُ هَذَا أَبَدًا، أَيْ: فِيمَا يَسْتَقْبِلُ. فَلِهَذَا قَالَ: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَشَرَعِهِ، وَتَعْظُمُونَ رَسُولَهُ ﷺ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُتَصِفًا بِالْكَفْرِ فَذَاكَ لَهُ حُكْمٌ آخَرُ.

يقول القرطبي [قَوْلُهُ تَعَالَى: " (يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا" يَعْنِي فِي عَائِشَةَ، لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا نَظِيرَ الْقَوْلِ فِي الْمَقُولِ عَنْهُ بِعَيْنِهِ، أَوْ فِيمَنْ كَانَ فِي مَرْتَبَتِهِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَذَانِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي عَرْضِهِ وَأَهْلِهِ، وَذَلِكَ كُفْرٌ مِنْ فَاعِلِهِ. قَالَ هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: مَنْ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ أَدَبٌ، وَمَنْ سَبَّ عَائِشَةَ قُتِلَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ { يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } فَمَنْ سَبَّ عَائِشَةَ فَقَدْ خَالَفَ الْقُرْآنَ، وَمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ قُتِلَ] (١٣٩)

وَقَوْلُهُ: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ تَهَيِّجْ وَالْهَابَ لَهُمْ يَبْعَثْ حِرْصَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَعُودُوا لِمِثْلِهِ لِأَنَّهُمْ حَرِيسُونَ عَلَى اثْبَاتِ إِيْمَانِهِمْ، فَالشَّرْطُ فِي مِثْلِ هَذَا لَا يَقْصِدُ بِالتَّغْلِيْقِ، إِذْ لَيْسَ الْمَعْنَى: إِنْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ فَعُودُوا لِمِثْلِهِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ أَحْتِمَالُ حُصُولِ مَفْهُومِ الشَّرْطِ مُجْتَنَبًا كَانَ فِي ذِكْرِ الشَّرْطِ بَعْثٌ عَلَى الْإِمْتِنَانِ، فَلَوْ تَكَلَّمَ أَحَدٌ فِي الْإِفْكِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مُعْتَقِدًا وَفُوعَهُ فَمُقْتَضَى الشَّرْطِ أَنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا.

ثُمَّ قَالَ: {وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ} أَي: يُوَضِّحُ لَكُمْ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْحَكَمَ الْقَدْرِيَّةَ، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أَي: عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ، حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ.

العذاب لمجرد حب إشاعة الفاحشة

{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩)}

وَهَذَا تَأْدِيبٌ ثَالِثٌ لِمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، فَقَامَ بِذَهْنِهِ مِنْهُ شَيْءٌ، وَتَكَلَّمَ بِهِ، فَلَا يَكْثُرُ مِنْهُ وَيُشِيعُهُ وَيُذِيعُهُ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا} أَي: يَخْتَارُونَ ظُهُورَ الْكَلَامِ عَنْهُمْ بِالْقَبِيحِ، {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا} أَي: بِالْحَدِّ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} أَي: فَرُدُّوا الْأُمُورَ إِلَيْهِ تَرَشَّدُوا.

بعد أن حذر الله تعالى المؤمنين من العودة إلي مثل ماخاضوا فيه من حديث الإفك ، ووعظهم بعدم العودة لمثله ، تأتي هذه الآية بالوعيد لمن يحبون شيوع الفاحشة في المؤمنين . [وَجَعَلَ الْوَعِيدَ عَلَى الْمَحَبَّةِ لِشُيُوعِ الْفَاحِشَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ مَحَبَّةَ ذَلِكَ تَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَى خُبْثِ النِّيَّةِ نَحْوَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمِنْ شَأْنِ تِلْكَ الطَّوْيَةِ أَنْ لَا يَلْبَثَ صَاحِبُهَا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَصْدَرَ عَنْهُ مَا هُوَ مُحِبٌّ لَهُ أَوْ يَسِرَّ بِصُدُورِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ، فَالْمَحَبَّةُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ التَّهَيُّؤِ لِإِبْرَازِ مَا يُحِبُّ وَفُوعَهُ. وَجِيءَ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ. وَأَصْلُ الْكِنَايَةِ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ الْمَعْنَى الصَّرِيحِ وَلاَزِمِهِ فَلَا جَرَمَ أَنْ يَنْشَأَ عَنْ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ عَذَابُ الدُّنْيَا وَهُوَ حَدُّ الْقَذْفِ وَعَذَابُ الْآخِرَةِ وَهُوَ أَظْهَرُ لِأَنَّهُ مِمَّا تَسْتَحِقُّهُ النَّوَايَا الْخَبِيثَةُ. وَتِلْكَ الْمَحَبَّةُ شَيْءٌ غَيْرُ الِهَمِّ بِالسَّيِّئَةِ وَغَيْرُ حَدِيثِ النَّفْسِ لِاتِّهَامَا خَاطِرَانِ يُمْكِنُ أَنْ

يَنْكَفَ عَنْهُمَا صَاحِبُهُمَا، وَأَمَّا الْمَحَبَّةُ الْمُسْتَمِرَّةُ فَهِيَ رَغْبَةٌ فِي حُصُولِ الْمَحْبُوبِ. وَهَذَا نَظِيرُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ [الماعون: ٣] كِنَايَةً عَنِ انْتِفَاءِ وَقُوعِ طَعَامِ الْمِسْكِينِ. فَأَلَوْعِيدُ هُنَا عَلَى مَحَبَّةٍ وَقُوعِ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَمَا هُوَ مُفْتَضَى قَوْلِهِ: أَنْ تَشِيعَ لَأَنَّ (أَنْ) تَخْلُصَ الْمُضَارِعَ لِلْمُسْتَقْبَلِ. وَأَمَّا الْمَحَبَّةُ الْمَاضِيَةُ فَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [النور: ١٤]. (١٤٠)

{يُحِبُّونَ} الحب عمل قلبي، والكلام عمل لساني، وترجمة عملية لما في القلب، فالمعنى: الذين يحبون هذا ولو لم يتكلموا به؛ لأن لهذه المسألة مراحل تبدأ بالحب وهو عمل القلب، ثم التحدث، ثم السماع دون إنكار. ولفظة هذه الجريمة ذكر الحق سبحانه المرحلة الأولى منها، وهي مجرد عمل القلب الذي لم يتحول إلى نزوع وعمل وكلام إذن: المسألة خطيرة. والبعض يظن أن إشاعة الفاحشة فضيحة للمتهم وحده، نعم هي للمتهم، لكن قد تنتهي بحياته، وقد تنتهي ببراءته، لكن المصيبة أنها ستكون أسوة سيئة في المجتمع.

وهذا توجيه من الحق - سبحانه وتعالى - إلى قضية عامة وقاعدة يجب أن نُرَاعِيَ، وهي: حين تسمع خبراً يחדش الحياء أو يتناول الأعراض أو يחדش حكماً من أحكام الله، فإياك أن تشيعه في الناس؛ لأن الإشاعة إيجاد أسوة سلوكية عند السامع لمن يريد أن يفعل، فيقول في نفسه: فلان فعل كذا، وفلان فعل كذا، ويتجرأ هو أيضاً على مثل هذا الفعل، لذلك توعده الله تعالى مَنْ يَشِيعِ الْفَاحِشَةَ وَيُنْشَرُهَا وَيُذِيعُهَا بَيْنَ النَّاسِ {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ [النور: ١٩].

والله تبارك وتعالى لم يعصم أحداً من المعصية وعمل السيئة، لكن الأسوء من السيئة إشاعتها بين الناس، وقد تكون الإشاعة في حق رجل محترم مُهَابٍ فِي مَجْتَمَعِهِ مَسْمُوعِ الْكَلِمَةِ وَلَهُ مَكَاتَةٌ، فَإِنْ سَمِعْتَ فِي حَقِّهِ مَا لَا يَلِيقُ فَلَرَبِّمَا زَهْدُكَ مَا سَمِعْتَ فِي هَذَا الشَّخْصِ، وَزَهْدُكَ فِي حَسَنَاتِهِ وَإِيجَابِيَّاتِهِ فَكَأَنَّكَ حَرَمْتَ الْمَجْتَمَعَ مِنْ حَسَنَاتِ هَذَا الرَّجُلِ.

١٤٠ التحرير والتنوير - سورة النور آية ١٩ - ص ١٨٤ المكتبة الشاملة الحديثة

وهذه المسألة هي التعليل الذي يستر الله به غيب الخلق عن الخلق، إن: ستر غيب الناس عن الناس نعمة كبيرة ثري الخير في المجتمع وتشميه، ويجعلك تتعامل مع الآخرين، وتنتفع بهم على علائهم، وصدق الشاعر الذي قال:

فُحْذُ بِعَلْمِي وَلَا تَرْكُنْ إِلَى عَمَلِي ... وَاجْنِ الثَمَارَ وَخَلِّ الْعُودَ لِلنَّارِ
وَمَنْ أَدَبَ هَذِهِ الْآيَةَ أَنَّ شَأْنَ الْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يُحِبَّ لِإِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، فَكَمَا أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَشِيعَ عَنْ نَفْسِهِ خَبْرٌ سَوْءٌ كَذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُحِبَّ إِشَاعَةَ السَّوِّءِ عَنْ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِشُيُوعِ أَخْبَارِ الْفَوَاحِشِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّدَقِ أَوْ بِالْكَذِبِ مَفْسَدَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ فَإِنَّ مِمَّا يَزْعُ النَّاسُ عَنِ الْمَفَاسِدِ تَهْيِيبُهُمْ وَقُوعُهَا وَتَجَهُّهُمْ وَكَرَاهَتُهُمْ سَوْءَ سَمْعَتِهَا وَذَلِكَ مِمَّا يَصْرِفُ تَفْكِيرَهُمْ عَنْ تَذَكُّرِهَا بَلَّهَ الْإِفْكَامُ عَلَيْهَا رُويًا رُويًا حَتَّى تُنْسَى وَتَنْمَحِيَ صُورُهَا مِنَ النُّفُوسِ، فَإِذَا انْتَشَرَ بَيْنَ الْأُمَّةِ الْحَدِيثُ بِوُقُوعِ شَيْءٍ مِنَ الْفَوَاحِشِ

تَذَكَّرَتْهَا الْخَوَاطِرُ وَخَفَّ وَفَعَّ خَبَرُهَا عَلَى الْأَسْمَاعِ فَدَبَّ بِذَلِكَ إِلَى النُّفُوسِ التَّهَافُوتُ بِوُقُوعِهَا وَخَفَّهَ وَقَعِهَا عَلَى الْأَسْمَاعِ فَلَا تَلْبُثُ النُّفُوسُ الْخَبِيرَةُ أَنْ تُقَدِّمَ عَلَى اقْتِرَافِهَا وَبِمَقْدَارِ تَكَرُّرِ وَقُوعِهَا وَتَكَرُّرِ الْحَدِيثِ عَنْهَا تُصِيرُ مُتَدَاوِلَةً. هَذَا إِلَى مَا فِي إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ مِنْ لِحَاقِ الْأَذَى وَالضَّرِّ بِالنَّاسِ ضَرًّا مُتَقَاوِتِ الْمَقْدَارِ عَلَى تَقَاوُتِ الْأَخْبَارِ فِي الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ.

وَلِهَذَا ذِيلُ هَذَا الْأَدَبِ الْجَلِيلِ بِقَوْلِهِ: وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَيُّ يَعْلَمُ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَفَاسِدِ فَيَعِظُكُمْ لِيَتَجَنَّبُوا وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَتَحْسِبُونَ التَّحَدُّثَ بِذَلِكَ لَا يَنْتَرِبُ عَلَيْهِ ضَرٌّ وَهَذَا كَقَوْلِهِ {وَتَحْسِبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}

يَقُولُ تَعَالَى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ} أَيُّ: لَوْلَا هَذَا لَكَانَ أَمْرٌ آخَرُ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى رُؤُوفٌ بِعِبَادِهِ، رَحِيمٌ بِهِمْ. فَتَابَ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَطَهَّرَ مَنْ طَهَّرَ مِنْهُمْ بِالْحَدِّ الَّذِي أَقِيمَ عَلَيْهِ.

هَذِهِ ثَالِثُ مَرَّةٍ كَرَّرَ فِيهَا وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَحَذَفَ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّالِثِ جَوَابَ (لَوْلَا) لِنُدْهَابِ النَّفْسِ كُلِّ مَذْهَبٍ مُمَكِّنٍ فِي تَقْدِيرِهِ بِحَسَبِ الْمَقَامِ.

وَقَدْ ذَكَرَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى وَصَفَ اللَّهُ بِأَنَّهُ تَوَّابٌ حَكِيمٌ لِلْمُنَاسَبَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَذَكَرَ هُنَا بِأَنَّهُ رَوْفٌ رَحِيمٌ، لِأَنَّ هَذَا التَّنْبِيهَ الَّذِي تَضَمَّنَهُ التَّذْيِيلُ فِيهِ انْتِشَالٌ لِلْأُمَّةِ مِنْ اضْطِرَابٍ عَظِيمٍ فِي أَخْلَاقِهَا وَآدَابِهَا وَانْفِصَامٍ عَرَى وَحْدَتِهَا فَأَنْقَذَهَا مِنْ ذَلِكَ رَأْفَةً وَرَحْمَةً لِأَحَادِهَا وَجَمَاعَتِهَا وَحِفْظًا لِأَوَاصِرِهَا.

وَذَكَرَ وَصَفَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ هُنَا لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ إِنْقَاذُهُ إِيَّاهُمْ مِنْ سُوءٍ مَحَبَّةً أَنَّ تَشْيِيعَ الْفَاحِشَةِ فِي الَّذِينَ آمَنُوا تِلْكَ الْمَحَبَّةُ الَّتِي انْطَوَتْ عَلَيْهَا ضَمَائِرُ الْمُنَافِقِينَ كَانَ إِنْقَاذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ التَّخَلُّقِ بِهَا رَأْفَةً بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَرَحْمَةً لَهُمْ بِثَوَابِ الْمَتَابِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ مُنْتَهَى الْآيَاتِ الْعَشْرِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الْإِفْكِ عَلَى عَانِشَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، نَزَلَتْ مُتَتَابِعَةً عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَتَلَاهَا حِينَ نَزُولِهَا وَهُوَ فِي بَيْتِهِ.

وَالْفَحْشَاءُ: كُلُّ فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ قَبِيحٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ} فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [١٦٩] وَالْمُنْكَرُ: مَا تُنْكِرُهُ الشَّرِيعَةُ وَيُنْكِرُهُ أَهْلُ الْخَيْرِ. وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ [١٠٤]. (١٤١)

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا} أَيُّ: لَوْلَا هُوَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ التَّوْبَةَ وَالرَّجُوعَ إِلَيْهِ، وَيُزَكِّي النُّفُوسَ مِنْ شَرْكَهَا وَفُجُورِهَا وَدَسِّهَا وَمَا فِيهَا مِنْ أَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ، كُلٌّ بِحَسْبِهِ، لَمَّا حَصَلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ زَكَاةٌ وَلَا خَيْرًا {وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} أَيُّ: مَنْ خَلَقَهُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُرِيدُهُ فِي مَهَالِكِ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ.

وَقَوْلُهُ: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ} أَيُّ: سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ {عَلِيمٌ} بِهِمْ، مَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ الْهُدَى وَالضَّلَالَ.

يقول تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)}
هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بَعْدَ الْعَشْرِ الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَالْجُمْلَةُ اسْتِنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ، وَوُقُوعُهُ عَقِبَ الْآيَاتِ الْعَشْرِ الَّتِي فِي قَضِيَّةِ الْإِفْكِ مُشِيرٌ إِلَى أَنَّ مَا تَضَمَّنَتْهُ تِلْكَ الْآيَاتِ مِنَ الْمَنَاهِي وَظُنُونِ السُّوءِ وَمَحَبَّةِ شَيْعِ الْفَاحِشَةِ كُلُّهُ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، فَشَبَّهَ حَالَهَا بِحَالِهَا فِي كَوْنِهِ مُتَلَبِّسًا بِوَسْوَاسَةِ الشَّيْطَانِ بِهَيْئَةِ الشَّيْطَانِ يَمْشِي وَالْعَامِلُ بِأَمْرِهِ يَتَّبِعْ خُطَى ذَلِكَ الشَّيْطَانِ. فَفِي قَوْلِهِ: لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ تَمَثِيلٌ مَبْنِيٌّ عَلَى تَشْبِيهِ حَالَةٍ مُحَسَّوسَةٍ بِحَالَةٍ مَعْقُولَةٍ إِذْ لَا يَعْرِفُ السَّامِعُونَ لِلشَّيْطَانِ خُطَوَاتِ حَتَّى يَنْهَوْا عَلَى اتِّبَاعِهَا. وَفِيهِ تَشْبِيهُ وَسْوَاسَةِ الشَّيْطَانِ فِي نَفُوسِ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ بِالْمُنْشَى.

وَجُمْلَةُ: فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَالرَّابِطُ هُوَ مَفْعُولٌ يَأْمُرُ الْمَحْذُوفُ لِقَصْدِ الْعُمُومِ فَإِنَّ عُمُومَهُ يَشْمَلُ فَاعِلُ فِعْلِ الشَّرْطِ فَبِذَلِكَ يَحْصُلُ الرِّبْطُ بَيْنَ جُمْلَةِ الشَّرْطِ وَجُمْلَةِ الْجَوَابِ. وَضَمِيرًا فَإِنَّهُ يَأْمُرُ عَانِدَانِ إِلَى الشَّيْطَانِ. وَالْمَعْنَى: وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ يَفْعَلِ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَرَ لِأَنَّ الشَّيْطَانِ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، أَيْ بِفَعْلِهِمَا: فَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ يَقَعْ فِي الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لِأَنَّهُ مِنْ أَفْرَادِ الْعُمُومِ.

{لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ} فَإِنَّ وَسْوَاسَ لَكَ مِنْ جِهَةٍ، فَتَأَبَّيْتُ عَلَيْهِ وَوَجَدْتُ عِنْدَكَ صَلَابَةً فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ وَجَّهَكَ إِلَى نَاحِيَةِ أُخْرَى، وَزَيْنَ لَكَ مِنْ بَابِ آخَرٍ، وَهَكَذَا يَظَلُّ بِكَ عَدُوُّكَ إِلَى أَنْ يُوقِعَكَ، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَقْطَةً ضَعْفٌ فِي تَكْوِينِهِ، فَيَظَلُّ يَحَاوِرُهُ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذِهِ النَّقْطَةِ.

وَطَرِيقَةُ الشَّيْطَانِ فِي غَوَايَةِ بَنِي آدَمَ هِيَ الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَعْصِيَةِ مِنْ قَبْلِ النَّفْسِ وَالْمَعْصِيَةِ مِنْ قَبْلِ الشَّيْطَانِ، فَالنَّفْسُ تُلْحِقُ عَلَيْكَ فِي مَعْصِيَةٍ بَعِيْنَهَا لَا تَتَعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِهَا، أَمَّا الشَّيْطَانُ فَإِنَّهُ يَرِيدُكَ عَاصِيًا عَلَى أَيْ: وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، فَإِنْ امْتَنَعْتَ عَلَيْهِ فِي مَعْصِيَةٍ جَرَّكَ إِلَى مَعْصِيَةٍ أُخْرَى أَيْ كَانَتْ. وَقَدْ أَوْضَحَ الشَّيْطَانُ نَفْسَهُ هَذِهِ الْخُطَوَاتِ وَأَعْلَنَهَا، وَبَيَّنَّ طَرَفَهُ فِي الْإِغْوَاءِ، أَلَمْ يَقُلْ: {لَا تُفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [الأعراف: ١٦] فَلَا حَاجَةَ لِلشَّيْطَانِ

بأصحاب الصراط المعوج لأنهم أتباعه، فالشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً، إنما يذهب إلى المسجد ليفسد على المصلين صلاتهم، لذلك البعض ينزعج من الوسائوس التي تنتابه في صلاته، وهي في الحقيقة ظاهرة صحية في الإيمان، ولولا أنك في طاعة وعبادة ما وسوس لك.

وخطوات الشيطان تحتاج إلي بحث مستقل لبيان طرقها وحيله لجذب الإنسان إليها ، لا يتسع المقام للألمام بها ، وسنكتفي بهذا التحذير الصريح من رب العزة بعدم إتباعها .

فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه

يقول الله تعالى {وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) }

يَقُولُ تَعَالَى: {وَلَا يَأْتِلْ} مِنَ الْآلِيَةِ، وَهِيَ: الْحَلْفُ أَي: لَا يَحْلِفُ {أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ} أَي: الطُّول وَالصَّدَقَةُ وَالْإِحْسَانُ {وَالسَّعَةِ} أَي: الْجَدَّةُ {أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أَي: لَا تَحْلِفُوا إِلَّا تَصَلُّوا قَرَابَاتِكُمُ الْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ. وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي غَايَةِ التَّرَفُّقِ وَالْعُطْفِ عَلَىٰ صِلَةِ الْأَرْحَامِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا} أَي: عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَذَى، وَهَذَا مِنْ حِلْمِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظَلَمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ.

يقول ابن كثير [وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الصَّدِيقِ، حِينَ حَلَفَ إِلَّا يَنْفَعُ مِسْطَحَ بْنِ أَثَاثَةَ بِنَافِعَةَ بَعْدَمَا قَالَ فِي عَائِشَةَ مَا قَالَ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ. فَلَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِرَأْدَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، وَطَابَتِ النُّفُوسُ الْمُؤْمِنَةُ وَاسْتَقَرَّتْ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَى مَنْ كَانَ تَكَلَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ، وَأَقِيمَ الْحَدُّ عَلَى مَنْ أَقِيمَ عَلَيْهِ شَرَعُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَهُ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ، يَعُطِفُ الصَّدِيقُ عَلَى قَرِيبِهِ وَنَسِيبِهِ، وَهُوَ مِسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ، فَإِنَّهُ كَانَ ابْنُ خَالَةِ الصَّدِيقِ، وَكَانَ مِسْكِينًا لَا مَالَ لَهُ إِلَّا مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَقَدْ وَلَّى وَلَفَةً (كُذِبَ) تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهَا، وَضُرِبَ الْحَدُّ عَلَيْهَا. وَكَانَ الصَّدِيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَعْرُوفًا بِالْمَعْرُوفِ، لَهُ الْفَضْلُ وَالْإِيَادِي عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ: {إِلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ

لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} أَي: فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا تَغْفِرُ عَنِ الْمُذْنِبِ إِلَيْكَ تَغْفِرُ لَكَ، وَكَمَا تَصْفَحُ نَصْفَحُ عَنْكَ. فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الصَّدِيقُ: بَلَى، وَاللَّهِ إِنَّا نُحِبُّ -يَا رَبَّنَا- أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مِسْطَحَ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنَ النَّفَقَةِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزَعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، فِي مُقَابَلَةٍ مَا كَانَ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْفَعُهُ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا، فَلِهَذَا كَانَ الصَّدِيقُ هُوَ الصَّدِيقُ "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ بَنْتِهِ" [١٤٢]

التأكيد علي جريمة قذف المحصنات

قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) }

هَذَا وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ -خُرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ- الْمُؤْمِنَاتِ. فَأُمَمَاتُ الْمُؤْمِنِينَ أُولَى بِالدُّخُولِ فِي هَذَا مِنْ كُلِّ مُحْصَنَةٍ، وَلَا سِيَمَا الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ النُّزُولِ، وَهِيَ عَائِشَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يقول ابن كثير [وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، قَاطِبَةً عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّهَا بَعْدَ هَذَا وَرَمَاهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ [بَعْدَ هَذَا الَّذِي ذُكِرَ] فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مُعَانِدٌ لِلْقُرْآنِ. وَفِي بَقِيَّةِ أُمَمَاتِ الْمُؤْمِنِينَ قَوْلَانِ: أَصَحُّهُمَا أَنَّهُنَّ كَهَيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (٢٤)]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} كَقَوْلِهِ: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} [الْأَحْزَابُ: ٥٧].

إِتْفَقَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَيَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَعْدَ حَادِثَةِ الْإِفْكَ ، وَأُخْتَلِفُوا فِي حُكْمِهَا ، وَقَدْ جَمَعَ الْقُرْطُبِيُّ أَقْوَالَهُمْ ، فَقَالَ [وَأُخْتَلِفَ فِيمَنْ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هِيَ فِي رُمَاةٍ عَائِشَةَ رَضَوْنَ اللَّهَ عَلَيْهَا خَاصَّةً. وَقَالَ قَوْمٌ: هِيَ فِي عَائِشَةَ وَسَائِرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمَا. وَلَا تَنْفَعُ النَّوْبَةُ.

وَمَنْ قَذَفَ غَيْرَهُنَّ مِنَ الْمُحْصَنَاتِ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ تَوْبَةً، لِأَنَّهُ قَالَ: {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءِ} إِلَى قَوْلِهِ {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا} {فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ تَوْبَةً، وَلَمْ يَجْعَلْ لَأُولَئِكَ تَوْبَةً، قَالَهُ الضَّحَّاكُ. وَقِيلَ: هَذَا الْوَعِيدُ لِمَنْ أَصَرَ عَلَى الْقَذْفِ وَلَمْ يَتُبْ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ، إِلَّا أَنَّهُ يُرَادُ بِهَا كُلُّ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ عَامٌّ لِجَمِيعِ النَّاسِ الْقَذْفَةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْأَنْفُسَ الْمُحْصَنَاتِ، فَدَخَلَ فِي هَذَا الْمَذْكَرُ وَالْمُؤَنَّثُ، وَاخْتَارَهُ النَّحَّاسُ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلْمَرْأَةِ إِذَا هَاجَرَتْ إِنَّمَا خَرَجَتْ لِتَفْجُرَ. الثَّانِيَةُ: (لَعَنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْقَذْفَةِ فَالْمُرَادُ بِاللَّعْنَةِ الْإِبْعَادُ وَضَرْبُ الْحَذِّ وَاسْتِيْحَاشُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ وَهَجْرُهُمْ لَهُمْ، وَزَوَالُهُمْ عَنْ رُتْبَةِ الْعَدَالَةِ وَالْبُعْدُ عَنِ الثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ. وَعَلَى قَوْلٍ مَنْ قَالَ: هِيَ خَاصَّةٌ لِعَائِشَةَ تَتَرْتَّبُ هَذِهِ الشَّدَائِدُ فِي جَانِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَشْبَاهِهِ. وَعَلَى قَوْلٍ مَنْ قَالَ: نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ فَلَا كَلَامَ، فَاتَّهَمُ مُبْعَدُونَ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، وَمَنْ أَسْلَمَ فَلِإِسْلَامِهِ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ: مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ إِنَّهُ عَامٌّ لِجَمِيعِ النَّاسِ الْقَذْفَةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْأَنْفُسَ الْمُحْصَنَاتِ، فَدَخَلَ فِي هَذَا الْمَذْكَرُ وَالْمُؤَنَّثُ، وَكَذَا فِي الَّذِينَ يَزْمُونَ، إِلَّا أَنَّهُ غَلَبَ الْمَذْكَرُ عَلَى الْمُؤَنَّثِ. [١٤٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٢٤) {قَالُوا: فِي الدُّنْيَا يَتَكَلَّمُ اللِّسَانُ وَيَنْطِقُ، لَكِنِ الْمَتَكَلِّمُ فِي الْحَقِيقَةِ أَنْتَ؛ لِأَنَّهُ مَا تَحَرَّكَ إِلَّا بِمَرَادِكَ لَهُ، فَاللسان آلة خاضعة لإرادتك، إذن: فهو مجرد آلة، أَمَا فِي الْآخِرَةِ فَسَوْفَ يَنْطِقُ اللِّسَانُ عَلَى غَيْرِ مَرَادِ صَاحِبِهِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ لَيْسَ لَهُ مَرَادٌ الْآنَ. وَلِتَقْرِيبِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَلَا تَرَى كَيْفَ يَخْرُسُ الرَّجُلُ اللَّيِّبُ الْمَتَكَلِّمُ، وَيُمَسِّكُ لِسَانَهُ بَعْدَ طَلَاقَتِهِ، بِسَبَبِ مَرَضٍ أَوْ نَحْوِهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ بَعْدَهَا الْكَلَامَ، وَهُوَ مَا يَزَالُ فِي سَعَةِ الدُّنْيَا. فَمَا الَّذِي حَدَثَ؟ مَجْرَدُ أَنْ تَعَطَّلَتْ عِنْدَهُ آلَةُ الْكَلَامِ، فَهَكَذَا الْأَمْرُ فِي الْآخِرَةِ تَتَعَطَّلُ إِرَادَتُكَ وَسَيَطِرْتِكَ عَلَى جَوَارِحِكَ كُلِّهَا، فَتَنْطِقُ وَتَتَحَرَّكُ، لَا بِإِرَادَتِكَ، إِنَّمَا بِإِرَادَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ.

فالمعنى {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ.} أي: شهادة ونطقاً على مراد الله، لا على مراد أصحابها. ثم يقول سبحانه: {وَأَيُّدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وهذه جوارح لم يكن لها نطق في الدنيا، لكنها ستنطق اليوم. وشهادة الأعضاء على صاحبها من أحوال حساب الكفار. والأقرب للفهم من كتاب الله : إنها تنطق حقيقة، كما قال تعالى حكاية عن الجوارح: {وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ} [فصلت: ٢١].

ولو سألت هذه الجوارح: لم شهدت عليّ وأنت التي فعلت؟ ل قالت لك: فعلنا لأننا كنا على مرادك مقهورين لك، إنما يوم نحلّ عن إرادتك ونخرج عن قهرك، فلن نقول إلا الحق.

وتخصيص هذه الأعضاء بالذكر مع أنّ الشهادة تكون من جميع الجسد كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا} [فصلت: ٢١] لأن لهذه الأعضاء عملاً في رمي المحصنات فهم ينطقون بالقذف ويشيرون بالأيدي إلى المفدّوات ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف.

وقوله {يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} (٢٥) ، يقول الطبري في تفسير هذه الآية [يقول تعالى ذكره: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيُّدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) يوفيهم الله حسابهم وجزاءهم الحق على أعمالهم. والدين في هذا الموضع: الحساب والجزاء، وعن ابن عباس، في قوله: (يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ) يقول. حسابهم. واختلفت القراءة في قراءة قوله: (الْحَقَّ) فقرأته عامة قرّاء الأمصار. (دِينَهُمُ الْحَقَّ) نصبا على النعت للدين، كأنه قال: يوفيهم الله ثواب أعمالهم حقاً، ثم أدخل في الحق الألف واللام، فنصب بما نصب به الدين. وذكر عن مجاهد أنه قرأ ذلك: "يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ" برفع الحق على أنه من نعت الله. والصواب من القراءة في ذلك عندنا ما عليه قرّاء الأمصار، وهو نصب الحق على اتباعه إعراب الدين؛ لإجماع الحجة عليه. (١٤٤)

وقوله: {وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} أي: وعده ووعيدُهُ وحسابُهُ هُوَ الْعَدْلُ، الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ. يقول: ويعلمون يومئذ أن الله هو الحق الذي يبين

^{١٤٤} تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر - ص ١٤١ - المكتبة الشاملة الحديثة

لهم حقائق ما كان يعدهم في الدنيا من العذاب، ويزول حينئذ الشك فيه عن أهل النفاق، الذين كانوا فيما كان يعدهم في الدنيا يمترون.

تفسير آية الخبيثين للخبيثات

يقول الله تعالى {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (٢٦) {

يقول الطبري [اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول. وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء.]

وبعد أن نقل روايات القائلين بالقولين قال [وأولى هذه الأقوال في تأويل الآية قول من قال: عنى بالخبيثات: الخبيثات من القول، وذلك قبيحه وسيئه للخبيثين من الرجال والنساء، والخبيثون من الناس للخبيثات من القول، هم بها أولى؛ لأنهم أهلها. والطيبات من القول، وذلك حسنه وجميله للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول؛ لأنهم أهلها وأحق بها.] ثم قال [وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل الآية؛ لأن الآيات قبل ذلك إنما جاءت بتوبيخ الله للقائلين في عائشة الإفك، والرامين المحصنات الغافلات المؤمنات، وإخبارهم ما خصهم به على إفكهم، فكان ختم الخبر عن أولى الفريقين بالإفك من الرامي والمرمي به، أشبه من الخبر عن غيرهم.] إه (١٤٥)

وقوله: {أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ} يقول: الطيبون من الناس مبرءون من خبيثات القول، إن قالوها فإن الله يصفح لهم عنها، ويغفرها لهم، وإن قيلت فيهم؛ ضرت قائلها ولم تضرهم، كما لو قال الطيب من القول الخبيث من الناس لم ينفعه الله به، لأن الله لا يتقبله، ولو قيلت له لضرته؛ لأنه يلحقه عارها في الدنيا، وذلك في الآخرة. وَعَلَبَ ضَمِيرُ التَّذْكِيرِ فِي قَوْلِهِ: مُبَرَّءُونَ وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ كَلِيَّةٌ وَلِذَلِكَ حَقَّ لَهَا أَنْ تَجْرِيَ مَجْرَى الْمَثَلِ وَجُعِلَتْ فِي آخِرِ الْقِصَّةِ كَالْتَّذْيِيلِ.

وقد عدل عن ذكر الإفك في آخر الآية إلي قوله { مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ } وذلك للدلالة علي أنه في النهاية مجرد قول لا حقيقة له.

وقوله: (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) يقول لهؤلاء الطيبين من الناس مغفرة من الله لذنوبهم، والخبث من القول إن كان منهم (وَرَزَقَ كَرِيمًا) يقول: ولهم أيضا مع المغفرة عطية من الله كريمة، وذلك الجنة، وما أعد لهم فيها.

وبِهَذِهِ الْآيَاتِ انْتَهَتْ زَوَاجِرُ قِصَّةِ الْإِفْكِ. يقول البقاعي [وقد علم من هذه الآيات وما سبقها من أول السورة وما لحقها إلى آخرها أن الله تعالى ما غلظ في شيء من المعاصي ما غلظ في قصة الإفك، ولا تواعد في شيء ما تواعد فيها، وأكد وبشع، ووبخ وقرع، كل ذلك إظهاراً لشرف رسوله ﷺ وغضباً له وإعظاماً لحرمة وصوناً لحجابه.] (١٤٦)

ولما أنهى الله سبحانه وتعالى الأمر في براءة عائشة رضي الله عنها على هذا الوجه الذي كساها به من الشرف ما كساها، وحلاها برونقه من مزايا الفضل ما حلاها، وكأن أهل الإفك قد فتحوا بإفكهم هذا الباب الظنون السيئة عدواة من إبليس لأهل هذا الدين بعد أن كانوا في ذلك وفي كثير من سجاياهم - إذ قانعا منهم بداء الشرك - على الفطرة الأولى، أمر تعالى رداً لما أثار بوسواسه من الداء بالتنزه عن مواقع التهم والتلبس بما يحسم الفساد تأتي الآيات المتضمنة للتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع ، والتي سنتاولها في الباب الخامس بحول الله وقوته .

^{١٤٦} نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ص ٢٤٣ - المكتبة الشاملة الحديثة

الفصل الثالث

الدروس المستفادة من قصة الإفك

حادثة الإفك من أبرز الأحداث في التاريخ الإسلامي بشكل عام ، وفي سيرة النبي ﷺ بشكل خاص ، وذلك لأنها كانت تدشين لوسيلة جديدة من وسائل أعداء الإسلام من المنافقين وغيرهم للطعن في هذا الدين بالطعن في شرف بيت النبوة إلي مادون ذلك من وسائل التشغيب والإرجاف.

وبذلك كانت هذه الحادثة سببا في سن التشريعات اللازمة لحماية المجتمع من مثل هذه المطاعن ، كحد القذف وغيره من الحدود ، فضلا عن بيان مايجب علي المسلمين عمله في مثل هذه الحالات.

ومن أهم الفوائد المستنبطة من هذه الحادثة بيان فضل السيدة عائشة رضي الله عنها بنزول برائتها من السماء بقرآن يتلي إلي يوم القيامة ، وكذلك فضل أبيها أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وقد تم عرض القصة مفصلة من خلال الروايات الصحيحة عن السيدة عائشة رضي الله عنها في دواوين السنة ، ومجملة من خلال آيات سورة النور .

وفي ختام هذا الباب يجدر بنا إجمال الفوائد المستفادة من الآيات التي نزلت ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها وما تضمنته من دروس وعبر للمسلمين . ونستند في إستنباط هذه الفوائد إلي كتاب تفسير القرآن العظيم للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين عليه رحمة الله ، من تفسير سورة النور بتصريف يسير ، ثم من من الأحاديث الصحيحة كما وردت في شرح الإمام النووي لحديث الإفك من صحيح مسلم .

أولا : الدروس والعبر من آيات قصة الإفك مايلي :

الأولي : قال الله تعالى { الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم } أي من المؤمنين ، رغم أن علي رأسهم ابن سلول كبير المنافقين عليه لعنة الله ، وهذا دليل علي أن المنافقين مؤمنون باعتبار الظاهر ، وجه ذلك أن النبي ﷺ كان يعاملهم بحسب ظاهر حالهم علي أنهم مسلمين ، ولم يفرق بينهم وبين نساءهم المسلمات ، ولم يقتلهم ، ولم يأخذ منهم الجزية. فهؤلاء خرجوا من الإيمان رغم أن ظاهرهم مسلمون.

الثانية : أن الإنسان محاسب علي ظنه الذي يجزم به لقوله تعالى { لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } وقوله { لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا {

الثالثة : أن الخير قد يكون فيما يتوقع الإنسان منه الشر .

الرابعة : أن القران لها اعتبار في الحكم علي الأمور { لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا } ، فقرينة الإيمان لدي المؤمنين كان يجب أن تبعث علي الظن الحسن .

الخامسة :كمال غيرة الله ﷻ علي رسوله ﷺ وآل بيته ، لدفاعه عنهم وتنزيل برائتهم بآيات تتلي .

السادسة : الأولي التصفية والتنقية قبل جلب الصفات المحموده عملا بقاعدة التخلية قبل التحلية.

السابعة : كمال عدل الله ﷻ ، وذلك من قوله تعالى { لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ }.

الثامنة : مصلحة الجماعة مقدمة علي مصلحة الفرد ، وذلك من صبر النبي ﷺ علي الأذي وعدم إندفاعه في قتل ابن سلول بحسب رأي من أشار عليه بذلك من الأوس ، حفاظا علي وحدة الأمة.

التاسعة: المؤمنون يجزون ويطهرون من الإثم في الدنيا بإقامة الحدود ،أما المنافقون فحسابهم في الآخرة ولا يقام عليهم الحد وذلك لقوله تعالى { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ }.

العاشرة : زعماء الشر وفاتحيه ، عقابهم أكبر من مقلديهم وذلك لتخصيص عبد الله ابن أبي ابن سلول بقوله { وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } .
الحادية عشرة : توجيه الخطاب بأسلوب العتاب والحض ، هو من المودة والرحمة

الثانية عشرة : لا يكفي إنكار الإشاعات والأكاذيب بالقلب والسكوت علي ذلك ، ولكن لابد أن يقابل القول الكاذب بقول الحقيقة . وذلك من قوله تعالى { وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } .
الثالثة عشرة : الإنكار يكون بالقلب واللسان لقوله { لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ } والظن محله القلب.

الثالثة عشرة : أن الإيمان مدعاة لظن الخير ، ومصدر للثقة في المؤمنين .
الرابعة عشرة : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كأنهم نفس واحدة لا يظن فيها إلا الخير.

الخامسة عشرة : ظن السوء بمن يستحقه لا ينافي الإيمان ، لأنه خص المؤمنين بوجوب الظن الحسن ، إذن فغير المؤمنين يجوز فيهم الظن السيئ إذا دلت القران علي ذلك كالفاسق.

السادسة عشرة : وجوب إنزال الناس منازلهم ، فمن كان محلا لحسن الظن ، يجب له ذلك .

السابعة عشرة : وجوب إحترام أعراض المؤمنين وعدم تعريضها لما يسيئ إليها بما يחדش حياء المجتمع الإسلامي .

الثامنة عشرة : بيان كيد المنافقين للإسلام ، وأساليبهم في أذي المسلمين وكيفية التحرز منهم.

التاسعة عشرة : حماية الأعراض بجعل الشهود في حد القذف أربعة رجال كحد الزنا .

العشرون : القاضي يحكم بالظاهر إذا ظهرت البينة ، ولا بد من إستيفاء شروط الشهادة .

الحادية والعشرون : لا تقبل شهادة النساء في الحدود .

الثانية والعشرون : الشاهد ليس بقاذف لأن الشاهد يشهد أمام القاضي ، والقاضي يقدر عواقب الشهادة علي الأعراض ، أما القاذف فينشر كذبه بين الناس بلا ضوابط أو مراعاة للأعراض.

الثالثة والعشرون : تعظيم جريمة الزنا في أذهان المسلمين ، بالتشنيع علي القاذفين ، وذلك من قول الله تعالى في القاذفين { فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهُدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ }.

الرابعة والعشرون : قد يهيا الله من الموانع ما يعطل بها تأثير الأسباب وذلك من قوله تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفْضَنْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } .

الخامسة والعشرون : الفضل والرحمة من صفات الله ﷻ لمنع العذاب عن المؤمنين .

السادسة والعشرون : إثبات أن الأسباب الشرعية مؤثرة بذاتها ، خلافا لمن أنكر ذلك كالاشاعرة.

السابعة والعشرون : شيوع المعصية بين الناس سبب للعقوبة العامة ، وذلك من قوله تعالى { لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفْضَنْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }.

الثامنة والعشرون : إثبات أنجزاء مقابل العمل وذلك من قوله {فيما أفضتم} فالفاء سببيه .

التاسعة والعشرون : تعاظم العقوبات مع تعاظم الأعمال .

الثلاثون : حديث الإفك كله مجرد أقوال بالألسنة لا تفرقه القلوب ، وذلك من قوله {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ}

الحادية والثلاثون : تحريم القول بلا علم ، وذلك من قوله {وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ} . سواء في الفتوي أو الشهادة .

الثانية والثلاثون : التحذير من تصغير الذنوب ، وذلك من قوله {وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} ولقول أنس رضي الله عنه في صحيح البخاري (إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كما نعدّها علي عهد النبي ﷺ من الموبقات) (١٤٧)

الثالثة والثلاثون : الإيمان منه أعمال ينتفي بإنتفائها ، لأن الله جعل هذه الأعمال منافية للإيمان .

الرابعة والثلاثون : المؤمن هو الذي ينتفع بالموعظة ، وغيره لا ينتفع بها .
الخامسة والثلاثون : الموعظة والنصيحة من الله للمؤمنين هي من فضله ورحمته .

السادسة والثلاثون : آيات الله الكونية يراها كل الناس ، وآيات الله الشرعية لا يراها إلا المؤمنون

السابعة والثلاثون : ما من شيء أوجده الله أو شرعه إلا لحكمة ، قد ندركها وقد لا ندركها ، وما لا ندركها منها لا يكون إلا بسبب قصور في أفهامنا .

الثامنة والثلاثون : محبة الخير للمسلمين ودفع الفواحش عنهم فيه ثواب ، طالما حب شيوع الفاحشة في المسلمين يتوجب العقاب .

التاسعة والثلاثون : التحذير من محبة شيوع الفاحشة في المسلمين ، فضلا عن إشاعتها .

الأربعون : وجوب سد ذرائع الفواحش

الحادية والأربعون : بيان فضل الله علي المؤمنين في حماية أعراضهم بالتحذير من محبة إشاعة الفاحشة .

^{١٤٧} صحيح البخاري رقم (٦٤٩٢) كتاب الرقاق ، باب مايتقي من محقرات الذنوب

- الثانية والأربعون : وجوب رد الأشياء وحكمها إلى الله عز وجل.
- الثالثة والأربعون : قصور علم المخلوقين بالقياس لعلم الله عز وجل لقوله { وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }.
- الرابعة والأربعون : بيان أن إثبات العقاب علي من أحب شيوع الفاحشة في المؤمنين هو رافة الله بهم ورحمته .
- الخامسة والأربعون : نداء الإيمان في القرآن الكريم بـ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } يراد به مطلق الإيمان وليس كماله .
- السادسة والأربعون : يشرع تحفيز المؤمنون بالمحفزات الإيمانية كنداء الإيمان في التوجيهات الشرعية .
- السابعة والأربعون : التحذير ، والتبيين لخطورة إتباع خطوات الشيطان .
- الثامنة والأربعون : من نعمة الله سبحانه وتعالى أن يبين لعباده مصادر الشر وأسبابه ولا يكلمهم لأنفسهم ، وهذا من فضله ورحمته .
- التاسعة والأربعون : من علامات خطوات الشيطان أن تجد في نفسك ميلا لله ففعل الفواحش .
- الخمسون : من النهي عن إتباع خطوات الشيطان ، النهي عن التشبه بأوليائه من الكفار.
- الحادية والخمسون : من فضل الله ورحمته إقتران الأحكام بعلمها ، كما في قوله تعالى { وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَاوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ }.
- الثانية والخمسون : بيان شدة عداوة الشيطان للإنسان لأنه لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر ، ولا يأمر بخير أبدا.
- الثالثة والخمسون : إثبات وجود الشيطان، وإثبات أنه يأمر عن بقصد الإضلال والصد عن سبيل الله.
- الرابعة والخمسون : من يتبع خطوات الشيطان ، ويطيع أوامره ، لابد أن يعمل عمله .
- الخامسة والخمسون : بيان فضل الله ورحمته علي عباده بتزكيتهم .
- السادسة والخمسون : تحريم الحلف علي ترك واجب ، كالنفقة علي المساكين أو إيتاء ذي القربي وإذا كان المتروك مستحبا يكون الحلف مكروها .
- السابعة والخمسون : حدوث الإساءة من شخص لا يوجب إسقاط حقوقه .

الثامنة والخمسون : وجوب التمسك بأسباب مغفرة الله تعالى وذلك إستجابة لقوله تعالى { أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }.

التاسعة والخمسون : العلم بفضيلة ابي بكر رضي الله عنه لقوله تعالى { وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ }.

الستون : فضل الهجرة لا يسقط بالمعصية وذلك لقوله تعالى في حق مسطح { أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }

الحادية والستون : كمال العفو لا يكون إلا بالصفح لقوله تعالى { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا }

الثانية والستون : قوله { أَلَا تُحِبُّونَ } إما انه عتاب رقيق لأبي بكر أو حث وحض له علي العفو .

الثالثة والستون : العفو والصفح عن المسيئين من أسباب مغفرة الله تعالى . إذا كان الظالم يقدر هذا العفو والصفح ويقلع عن ظلمه ، أما إذا زاده العفو والصفح ظلما وجورا ، لا بد من الأخذ علي يديه ومنعه من الظلم بالعقاب المناسب .

الرابعة والستون : طلب إظهار فضل الإنسان إذا كان في ذلك مصلحة .

الخامسة والستون : إثبات قدرة الله في الختم علي الأفواه وإنطاق بقية أعضاء الإنسان .

السادسة والستون : إثبات البعث ، وإثبات الجزاء .

السابعة والستون : الجزاء من جنس العمل وذلك في قوله تعالى { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }.

الثامنة والستون : إثبات الحكمة لأحكام الله الكونية والشرعية وذلك في قوله تعالى { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) }

التاسعة والستون : يجب التمييز بين الخبيث وبين الطيب وعدم الخلط بينهما السبعون : الآيات فيها دليل علي حرص الله تعالى علي تبرئة الطيبين من الخبث بقوله { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ }

الواحدة والسبعون : الله تعالى يغفر لمن أصيب بمصيبة قولية أو فعلية إذا صبر عليها .

الثانية والسبعون : من رحمة الله بالطيبين ضمان سلامة عرقهم بدفع الخبيثين عنهم وحمايتهم من الفتن ، والدفاع عنهم بالأحكام الشرعية كحد القذف . ويهيء له ما يحميه من الأمور القدرية .

الثالثة والسبعون : في الآيات دليل علي انه بصبر المظلومين وصدق لجوئهم إلي الله تبارك وتعالى ، يتولي الله تبرئتهم ، كما حدث مع السيدة عائشة رضي الله عنها ، وبرأ الله تعالى ، موسى عليه السلام من مما آذوه به { فبرأه الله مما قالوا } وتكرر مع نبي الله يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ومع إخوته ، والسيدة مريم عليها السلام عندما رموها بالزنا ، فأنطق الله تعالى عيسى عليه السلام في المهد لتبرئتها ، وزيد ابن أرقم رضي الله عنه لما نقل مقالات المنافقين إلي رسول الله ﷺ بما يسوءه ، وبالكيد للإسلام ، ولما واجههم رسول الله ﷺ أنكروا أنهم قالوا ذلك وصدقهم رسول ﷺ وكذب زيدا ، فأغتم زيد ابن أرقم إلي أن نزلت الآيات بتصديقه في سورة " إذا جاءك المنافقون " فدعاه النبي فقال (إن الله قد صدقك يا زيد) (١٤٨)

وأخيرا فهذه القصة دليل علي صدق نبوة رسول الله ﷺ وسالته ، لإنتظاره البراءة بالوحي رغم الكدر الذي عاشه حوالي شهر ، ولو كان غير ذلك لقال من عنده ما يبرأ عائشة من أول يوم .

هذا ماتيسر لنا حصره من الفوائد المستنبطة من الآيات ، وربما تركنا غيرها ، فالإنسان الذي أعطاه الله فهما في نصوص الكتاب والسنة ، يمكن أن يحصل من النصوص القليلة أحكاما كثيرة ، ولهذا تجد بعض العلماء يستعرض آية واحدة فيستخرج منها أحكاما كثيرة جدا وهي واحدة ، وعلي العكس من ذلك ، الإنسان الذي لم يعطه الله فهما ، تكون لديه النصوص الكثيرة ولا يتفطن لما فيها من الأحكام فيفوته غلم كثير ، لذا يجب علي طالب العلم تمرين نفسه علي كيفية أخذ الفوائد وإستنباط الأحكام من نصوص الكتاب والسنة ، كي لا يكون حظه من العلم مجرد حفظ النصوص كالوعاء الذي تحفظ فيه الأشياء .

^{١٤٨} صحيح البخاري رقم (٤٩٠٠) ، وصحيح مسلم رقم (٢٧٧٢)

واستنباط الفوائد هو الذي يميز بعض العلماء عن بعض ، والاستنباط يكون من خلال دلالات ثلاثة ، دلالة المطابقة ، ودلالة التضمن ، ودلالة اللزوم ، ولا يخلو أي نص من وجود هذه الدلالات الثلاثة أو واحدة منهم . فلو قلنا مثلا هذا كتاب مبارك ، فدلالة المطابقة تدل علي أنه كتاب الله تعالى ، ودلالة التضمن تدل علي مايتضمنه من آيات وأحكام ، ودلالة اللزوم أنه نزوله يلزم أن يكون عن طريق الوحي لرسول الله ﷺ ، وكلما إزداد علم الإنسان ، إزداد قدرة علي الإستدلال بهذه الدلالات الثلاثة . (١٤٩)

^{١٤٩} تفسير القرآن الكريم لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - تفسير سورة النور (بتصرف يسير)

ثانيا : الدروس والعبر من روايات حديث الإفك

أما الدروس والعبر المستفادة من رواية السيدة عائشة لقصة حديث الإفك فهي كثيرة ، عرضنا لبعضها أثناء شرح الحديث ، وقد أورد الأمام النووي طرفا من الفوائد في شرحه لصحيح مسلم ^(١٥٠) منها مايلي :

الأولي : جَوَازُ رِوَايَةِ الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ عَنْ جَمَاعَةٍ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ قِطْعَةً مُبْهَمَةً مِنْهُ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِعْلُ الزُّهْرِيِّ وَحْدَهُ فَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى قَبُولِهِ مِنْهُ وَالْإِجْتِاجُ بِهِ

الثَّانِيَةُ:صِحَّةُ الْقُرْعَةِ بَيْنَ النِّسَاءِ وَفِي الْعَتَقِ وَغَيْرِهِ . (القرعة جائزه في حالة مساواة الطالب والمطلوب)

الثَّالِثَةُ: وَجُوبُ الْإِقْرَاعِ بَيْنَ النِّسَاءِ عِنْدَ إِرَادَةِ السَّفَرِ بِيَعْضِهِنَّ (في حال التعدد)

الرَّابِعَةُ : أَنَّهُ لَا يَجِبُ قَضَاءُ مَدَّةِ السَّفَرِ لِلنِّسَاءِ الْمُقِيمَاتِ وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ السَّفَرُ طَوِيلًا وَحُكْمُ الْقَصِيرِ حُكْمُ الطَّوِيلِ عَلَى الْمَذْهَبِ الصَّحِيحِ وَخَالَفَ فِيهِ بَعْضُ أَصْحَابِنَا

الخَامِسَةُ : جَوَازُ سَفَرِ الرَّجُلِ بِزَوْجَتِهِ

السَّادِسَةُ : جَوَازُ غَزْوِهِنَّ (أي جواز مشاركتهن في الحروب)

السَّابِعَةُ : جَوَازُ رُكُوبِ النِّسَاءِ فِي الْهُوَادِجِ (بالقياس جواز ركوبهن وسائل المواصلات بشروط)

الثَّامِنَةُ : جَوَازُ خِدْمَةِ الرِّجَالِ لَهُنَّ فِي تِلْكَ الْأَسْفَارِ

التَّاسِعَةُ : أَنَّ ارْتِحَالَ الْعَسْكَرِ يَتَوَقَّفُ عَلَى أَمْرِ الْأَمِيرِ (قائد الجيش)

الْعَاشِرَةُ : جَوَازُ خُرُوجِ الْمَرْأَةِ لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ (الطبيعية) بِغَيْرِ إِذْنِ الزَّوْجِ وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَنْثَاةِ

الحادية عشر : جَوَازُ لُبْسِ النِّسَاءِ الْقَلَانِدِ (الحلي) فِي السَّفَرِ كَالْحَضَرِ

الثانية عشر : أَنَّ مَنْ يَرْكَبُ الْمَرْأَةَ عَلَى الْبُعِيرِ وَغَيْرِهِ لَا يَكْلِمُهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ مَحْرَمًا إِلَّا لِحَاجَةٍ لِأَنَّهُمْ حَمَلُوا الْهُودَجَ وَلَمْ يَكْلَمُوا مِنْ يَظُنُّونَهَا فِيهِ (عدم

^{١٥٠} كتاب شرح النووي على مسلم - باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ص ١١٨ : ١١٦ - المكتبة الشاملة

التباسط مع النساء في الكلام بلا داعي في وسائل المواصلات وغيرها)
الثالثة عشر : فضيلة الاقتصار في الأكل للنساء وغيرهن وأن لا يكثر منه
بِحَيْثُ يَهْبِلُهُ اللَّحْمُ (ثقل شحمه ولحمه أي زاد وزنه) لِأَنَّ هَذَا كَانَ حَالَهُنَّ فِي
زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا كَانَ فِي زَمَانِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ
الْكَامِلُ الْفَاضِلُ الْمُخْتَارُ.

الرابعة عشر : جَوَازُ تَأْخُرِ بَعْضِ الْجَيْشِ سَاعَةً وَنَحْوَهَا لِحَاجَةٍ تَعْرِضُ لَهُ
عَنِ الْجَيْشِ إِذَا لَمْ يَكُنْ ضَرُورَةٌ إِلَى الْاجْتِمَاعِ .

الخامسة عشر : إِعَانَةُ الْمُلْهُوفِ وَعَوْنُ الْمُنْقَطِعِ وَإِنْفَاقُ الضَّائِعِ وَإِكْرَامُ ذَوِي
الْأَقْدَارِ كَمَا فَعَلَ صَفْوَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذَا كُلِّهِ.

السادسة عشر : حسن الأدب مع الأجنيات لاسيما في الخلوة بهنَّ عِنْدَ
الضَّرُورَةِ فِي بَرِيَّةٍ أَوْ غَيْرِهَا كَمَا فَعَلَ صَفْوَانُ مِنْ إِبْرَاقِهِ الْجَمَلِ مِنْ غَيْرِ كَلَامٍ
وَلَا سَوَالٍ وَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَمْشِيَ قُدَّامَهَا لَا بِجَنْبِهَا وَلَا وِرَاءَهَا. السابعة عشر :
اسْتِحْبَابُ الْإِيْتَارِ بِالرُّكُوبِ وَنَحْوِهِ كَمَا فَعَلَ صَفْوَانُ .

الثامنة عشر : اسْتِحْبَابُ الاسْتِرْجَاعِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ سَوَاءً كَانَتْ فِي الدِّينِ أَوْ
الدُّنْيَا وَسَوَاءً كَانَتْ فِي نَفْسِهِ أَوْ مِنْ يَعْزُ عَلَيْهِ .

التاسعة عشر : تَغْطِيَةُ الْمَرْأَةِ وَجْهَهَا عَنْ نَظَرِ الْأَجْنَبِيِّ سَوَاءً كَانَ صَالِحًا أَوْ
غَيْرَهُ.

الْعِشْرُونَ : جَوَازُ الْحَلْفِ مِنْ غَيْرِ اسْتِخْلَافٍ.

الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ أَنْ يُسْتَرَ عَنِ الْإِنْسَانِ مَا يُقَالُ فِيهِ إِذَا لَمْ
يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ فَائِدَةٌ كَمَا كَتَمُوا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هَذَا الْأَمْرَ شَهْرًا
وَلَمْ تَسْمَعْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا بِعَارِضٍ عَرَضَ وَهُوَ قَوْلُ أُمِّ مِسْطَحٍ تَعَسَّ مِسْطَحٌ.

الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : اسْتِحْبَابُ مُلَاطَفَةِ الرَّجُلِ زَوْجَتَهُ وَحُسْنِ الْمَعَاشَرَةِ. (كما
ذكرت عائشة عن رسول الله)

الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ : أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ عَارِضٌ بِأَنْ سَمِعَ عَنْهَا شَيْئًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ
يُقَلِّلُ مِنَ اللَّطْفِ وَنَحْوِهِ لِنَقْطِنَ هِيَ أَنَّ ذَلِكَ لِعَارِضٍ فَتَسْأَلُ عَنْ سَبَبِهِ فَتُرِيْلُهُ.

الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : اسْتِحْبَابُ السُّوَالِ عَنِ الْمَرِيضِ.

الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ : أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْمَرْأَةِ إِذَا أَرَادَتْ الْخُرُوجَ لِحَاجَةٍ أَنْ تَكُونَ
مَعَهَا رَفِيقَةٌ تَسْتَأْنِسُ بِهَا وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهَا أَحَدٌ .

السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ : كَرَاهَةُ الْإِنْسَانِ صَاحِبَهُ وَقَرِيبَهُ إِذَا آذَى أَهْلَ الْفَضْلِ أَوْ
فَعَلَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْقَبَاحِ كَمَا فَعَلَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي دُعَائِهَا عَلَيْهِ .
(من باب إنكار المنكر بالقلب ، وهو أضعف الإيمان)
السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : فَضِيلَةُ أَهْلِ بَدْرِ وَالذَّبُّ عَنْهُمْ كَمَا فَعَلَتْ عَائِشَةُ فِي ذَبِّهَا
عَنْ مِسْطَحٍ .
الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ : أَنَّ الزَّوْجَةَ لَا تَذْهَبُ إِلَى بَيْتِ أَبَوَيْهَا إِلَّا بِإِذْنِ زَوْجِهَا .
التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : جَوَازُ التَّعَجُّبِ بِلَفْظِ التَّسْبِيحِ وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ
وغيره .
الثَّلَاثُونَ : اسْتِحْبَابُ مُشَاوَرَةِ الرَّجُلِ بَطَانَتِهِ وَأَهْلِهِ وَأَصْدِقَاءِهِ فِيمَا يَنْبُوهُ مِنْ
الْأُمُورِ .
الْحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ : جَوَازُ النَّبَحِ وَالسُّؤَالِ عَنِ الْأُمُورِ الْمَسْمُوعَةِ عَمَّنْ لَهُ
بِهِ تَعَلُّقٌ أَمَّا غَيْرُهُ فَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ وَهُوَ تَجَسُّسٌ وَفُضُولٌ .
الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ : خُطْبَةُ الْإِمَامِ النَّاسِ عِنْدَ نَزُولِ أَمْرِ مَهْمٍ .
الثَّلَاثَةُ وَالثَّلَاثُونَ : اسْتِكَاءُ وَلِيِّ الْأَمْرِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ بِأَدَى فِي
نَفْسِهِ أَوْ أَهْلِهِ أَوْ غَيْرِهِ وَاعْتَذَارُهُ فِيمَا يُرِيدُ أَنْ يُؤْذِيَهُ بِهِ .
الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : فَضَائِلُ ظَاهِرَةٍ لِصَفْوَانَ بْنِ الْمُعْطَلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
بِشَهَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ بِمَا شَهِدَ وَبِفِعْلِهِ الْجَمِيلِ فِي إِرْكَابِ
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَحُسْنِ أَدَبِهِ فِي جُمْلَةِ الْقَضِيَّةِ .
الخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ : فَضِيلَةُ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَأَسِيدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا .
السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ : الْمُبَادَرَةُ إِلَى قَطْعِ الْفِتَنِ وَالْخُصُومَاتِ وَالْمُنَازَعَاتِ
وَتَسْكِينِ الْعُصْبِ .
السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قَبُولُ النَّوْبَةِ وَالْحَثُّ عَلَيْهَا .
الثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ : تَقْوِيضُ الْكَلَامِ إِلَى الْكِبَارِ دُونَ الصِّغَارِ لِأَنَّهُمْ أَعْرَفُ . (كما
طلبت عائشة من أبيها وأُمها)
التَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : جَوَازُ الاسْتِشْهَادِ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ وَلَاخِلَافَ أَنَّهُ
جَائِزٌ .

الأَرْبَعُونَ : اسْتِحْبَابُ الْمُبَادَرَةِ بِتَنْبِشِيرِ مَنْ تَجَدَّدَتْ لَهُ نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ أَوْ انْدَفَعَتْ عَنْهُ بَلِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ .

الْحَادِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ : بَرَاءَةُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنَ الْإِفْكِ وَهِيَ بَرَاءَةٌ قَطْعِيَّةٌ بِنَصِّ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ فَلَوْ تَشَكَّكَ فِيهَا إِنْسَانٌ وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ صَارَ كَافِرًا مُرْتَدًّا بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ قَالَ بَن عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ لَمْ تَزِنْ امْرَأَةُ نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَهَذَا إِكْرَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ .

الثَّانِيَةُ وَالْأَرْبَعُونَ تَجْدِيدُ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ تَجَدُّدِ النِّعَمِ .
الثَّالِثَةُ وَالْأَرْبَعُونَ : فَضَائِلُ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلُ مِنْكُمْ الْآيَةُ . الرَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ : اسْتِحْبَابُ صَلَاةِ الْأَرْحَامِ وَإِنْ كَانُوا مُسِيئِينَ .

الْخَامِسَةُ وَالْأَرْبَعُونَ الْعَفْوُ وَالصَّفْحُ عَنِ الْمُسِيئَةِ .
السَّادِسَةُ وَالْأَرْبَعُونَ : اسْتِحْبَابُ الصَّدَقَةِ وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرَاتِ .
السَّابِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ : أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَرَأَى خَيْرًا مِنْهَا أَنْ يَأْتِيَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَيَكْفُرَ عَنْ يَمِينِهِ .

الثَّامِنَةُ وَالْأَرْبَعُونَ : فَضِيلَةُ زَيْنَبٍ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .
التَّاسِعَةُ وَالْأَرْبَعُونَ : التَّنْبِيهُ فِي الشَّهَادَةِ .

الْخَمْسُونَ : إِكْرَامُ الْمَحْبُوبِ بِمُرَاعَاةِ أَصْحَابِهِ وَمَنْ خَدَمَهُ أَوْ أَطَاعَهُ كَمَا فَعَلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِمُرَاعَاةِ حَسَّانَ وَإِكْرَامِهِ إِكْرَامًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . (لأنه كان يدافع عنه بشعره)

الباب الخامس

التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع المسلم

الفصل الأول : آداب الإستئذان

الفصل الثاني : غض البصر ، وحفظ الفرج

الفصل الثالث : تحصين المرأة المسلمة

الفصل الأول

آداب الإستئذان

بينت الآيات السابقة التي تناولت حادثة الإفك أن المنافقين فتحوا بإفكهم باب الظنون السيئة بين المسلمين ، فشرع الله للمجتمع الإسلامي جملة من الآداب والواجبات اللازمة لدفع هذه الظنون وسد ذرائعها ، وذلك بالنتزعه عن مواضع التهم ، وعدم التلبس بما يثير الريب والشكوك وسد كل طرائق الفساد ، فأصحاب الإفك لم يفوتوا فرصة خلوة غير مقصودة من السيدة عائشة رضي الله عنها - بالرغم من قيمتها وقامتها - مع أحد صحابة رسول ﷺ إلا وروجوا الباطل والبهتان عنها وعن صحابي لا يعلم عنه إلا الخير . من هنا جاءت الآيات التالية مناسبة لما قبلها بما أوجبه الله تعالى فيها من آداب لدخول البيوت لمنع الشكوك والريبة في النفوس ، وفرض ضوابط للخلوة بين الرجل والمرأة سدا لזرائع المعصية.

والغاية من هذه التشريعات وغيرها مما أوجبه الله تعالى من بعض الأمور هو الحيلولة من وقوع جريمة الزنا ، ومن هذه التشريعات مايلي :

➤ الترهيب من الزنا وبيان قبحه وشدة عقوبته في الآخرة في جملة آيات من كتاب الله ، وفي عدة أحاديث لرسول الله ﷺ ، وقد تقدم ذكر بعض منها .

➤ إقامة الحدود علي الزناة وشهود طائفة من المؤمنين علي إقامتها .

➤ تحريم الخلوة بالنساء الأجنيبات غير المحارم

➤ الحث علي غرض البصر عن النساء لغير علة شرعية ، وكذلك حث النساء علي غرض أبصارهن.

➤ تحريم مصافحة الأجنيبات

➤ منع سفر المرأة بدون محرم

➤ فرض الحجاب علي المؤمنات ، وفرض إحتجابهن عن الرجال الأجانب عنها .

➤ منع النساء من الخضوع بالقول أمام الرجال درءا للفتن .

➤ منع المرأة من إبداء زينتها أمام الرجال الأجانب عنها .

➤ منع إشاعة الفاحشة ونشر الرزيلة بين المؤمنين وإقامة الحد علي من يرمي المحصنات.

➤ حث الشباب والفتيات علي الزواج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج .

- فرض ضوابط لإستئذان الأبناء علي الآباء في البيوت .
 - الإستئذان عند دخول بيوت الآخرين ، والسلام علي أهلها .
- وقد تقدم عرض الآيات المتعلقة بحد الزنا والفساد واللعان ، والآيات التي بين أيدينا من سورة النور تتناول بعض هذه الأحكام ، المتعلقة بآداب الإستئذان ، وغض البصر ، والإختلاط ، وزينة المرأة.

حكم البيوت المسكونة – الحاضر سكانها

يقول الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) }

بما أن التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع المسلم هي المحور الرئيسي لسورة النور، فمن الأغراض الرئيسية لهذه التربية تنظيم أساليب المخالطة والمعاملات بين المسلمين ، وتبدأ هذه المعاملات من البيوت ، ولما أنهى الله سبحانه وتعالى الأمر في براءة عائشة رضي الله عنها على هذا الوجه الذي كساها به من الشرف ما كساها، وحلاها برونقه من مزايا الفضل ما حلاها، وكأن أهل الإفك قد فتحوا بإفكهم هذا الباب من الظنون السيئة عدواة من إبليس لأهل هذا الدين بعد أن كانوا في ذلك وفي كثير من سجايهم – إذ كان قانعاً منهم بداء الشرك - على الفطرة الأولى، أمر تعالى رداً لما أثار بوسواسه من الداء بالتنزه عن مواقع التهم والتلبس بما يحسم الفساد فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أي الذين ألزموا أنفسهم بهذا الدين {لا تدخلوا} أي واحد منكم، ولعله خاطب الجمع لأنهم في مظنة أن يطردوا الشيطان بتزيين بعضهم بحضرة بعض بلباس التقوى، فمن خان منهم منعه إخوانه، فلم يتمكن منه شيطانه، فهي الواحد من باب الأولى {بيوتاً غير بيوتكم} أي التي هي سكنكم {حتى تستأذنوا} أي تطلبوا بالاستئذان أن يأنس بكم من فيها وتأنسوا به.

وكلمة بيت: نفهم منها أنه ما أعِدَ للبيتوتة، حيث يأوي إليه الإنسان آخر النهار ليبيت ويرتاح فيه من عناء اليوم، ويُسمى أيضاً الدار؛ لأنها تدور

على مكان خاص بك؛ لذلك كانوا في الماضي لا يسكنون إلا في بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن، كما يقال : بيت من بابه. حيث لا يدخل ولا يخرج عليك أحد، وكان السَّكَن بهذه الطريقة عِصْمَةً من الرِّيبة؛ لأنه بيتك الخاص بأهلك وحدهم لا يشاركون فيه أحد ، ولا توجد أسباب للتنازع والتشاحن داخل البيوت .

لكن هناك أمور تقتضي أن يدخل الناس على بعضهم ؛ لذلك تكلم الحق - تبارك وتعالى - هنا عن آداب الاستئذان وعن المبادئ والنظم التي تنظم هذه المسألة؛ لأن ولوج البيوت بغير هذه الآداب، ودون مراعاة لهذه النظم يُسبِّب أموراً تدعو إلى الرِّيبة والشك؛ وما زالت الأرياف حتى الآن: إذا دخل شخصاً غريباً حارة لا علاقة له بها لا بُدَّ أن يسأل: لماذا دخل هنا؟ إذن: فشرع الله لا يمنع المجتمع من التلاقي، إنما يضع لهذا التلاقي حدوداً وآداباً تنفي الرِّيب والشبهة التي يمكن أن تأتي في مثل هذه المسائل.

آداب الاستئذان

يقول ابن عاشور [وَقَدْ كَانَ الْإِسْتِئْذَانُ مَعْرُوفًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدَرَ الْإِسْلَامُ، وَكَانَ يَخْتَلِفُ شَكْلُهُ بِاخْتِلَافِ حَالِ الْمُسْتَأْذِنِ عَلَيْهِ مِنْ مُلُوكٍ وَسُوقَةٍ فَكَانَ غَيْرَ مُتَمَاثِلٍ. وَقَدْ يَتْرُكُهُ أَوْ يَقْصِرُ فِيهِ مَنْ لَا يَهْمُهُ إِلَّا قَضَاءُ وَطَرِهِ وَتَعْجِيلُ حَاجَتِهِ، وَلَا يَبْعُدُ بِأَنْ يَكُونَ وَلُوجُهُ مُحَرِّجًا لِلْمَرْوَرِ أَوْ مُثْقَلًا عَلَيْهِ فَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ لِتَحْدِيدِ كَيْفِيَّتِهِ وَإِدْخَالِهِ فِي آدَابِ الدِّينِ حَتَّى لَا يُفْرِطَ النَّاسُ فِيهِ أَوْ فِي بَعْضِهِ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ فِي الْإِحْتِشَامِ وَالْأَنْفَةِ وَاخْتِلَافِ أَوْهَامِهِمْ فِي عَدَمِ الْمُوَاخَذَةِ أَوْ فِي شِدَّتِهَا.

وَشَرَعَ الْإِسْتِئْذَانُ لِمَنْ يَزُورُ أَحَدًا فِي بَيْتِهِ لِأَنَّ النَّاسَ اتَّخَذُوا الْبُيُوتَ لِلِاسْتِتَارِ مِمَّا يُؤْذِي الْأَبْدَانَ مِنْ حَرٍّ وَقَرٍّ وَمَطَرٍ وَقَتَامٍ، وَمِمَّا يُؤْذِي الْعُرْضَ وَالنَّفْسَ مِنْ انْكِشَافٍ مَا لَا يُحِبُّ السَّاكِنُ اِطْلَاعَ النَّاسِ عَلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ فِي بَيْتِهِ وَجَاءَهُ أَحَدٌ فَهُوَ لَا يَدْخُلُهُ حَتَّى يُصَلِّحَ مَا فِي بَيْتِهِ وَلَيْسَتْ مَا يُحِبُّ أَنْ يَسْتَرَهُ ثُمَّ بِأَنْزَنِ لَهُ أَوْ يَخْرُجَ لَهُ فَيَكَلِّمُهُ مِنْ خَارِجِ الْبَابِ.] (١٥١)

^{١٥١} التحرير والتنوير - سورة النور الآيات إلى ٢٨ - ص ١٩٦ - المكتبة الشاملة الحديثة

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَكُونُ فِي بَيْتِي عَلَى حَالٍ لَا أَحِبُّ أَنْ يَرَانِي عَلَيْهَا أَحَدٌ، لَا وَالِدٌ وَلَا وَلَدٌ فَيَأْتِي الْأَبُ فَيَدْخُلُ عَلَيَّ وَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَدْخُلُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي وَأَنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتِ الْخَانَاتِ وَالْمَسَاكِينَ فِي طُرُقِ الشَّامِ لَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ} [النور: ٢٩]

وقد إختص الله سبحانه ابنَ آدَمَ الَّذِي كَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ بِالْمَنَازِلِ وَسَرَّهُمْ فِيهَا عَنِ الْأَبْصَارِ، وَمَلَكَهُمْ الْإِسْتِمْتَاعَ بِهَا عَلَى الْإِنْفِرَادِ، وَحَجَرَ عَلَى الْخُلُقِ أَنْ يَطْلُعُوا عَلَى مَا فِيهَا مِنْ خَارِجٍ أَوْ يَلْجُوهَا مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ أَرْبَابِهَا، أَدَبَهُمْ بِمَا يَرْجِعُ إِلَى السِّرِّ عَلَيْهِمْ لِنَلَا يَطْلُعَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عَوْرَةٍ.

فَهَذِهِ آدَابُ شَرْعِيَّةٌ، أَدَبَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ فِي الْإِسْتِئْذَانِ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا، أَيُّ: يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدَّخُولِ وَيَسْلَمُوا بَعْدَهُ. وَهَذَا هُوَ الْحُكْمُ الْعَامُّ بِوُجُوبِ الْإِسْتِئْذَانِ لِمَا جَعَلَ لِبُيُوتِ بَنِي آدَمَ مِنْ حُرْمَةٍ، وَكَيْفِيَّةِ الْإِسْتِئْذَانِ وَرَدَّتْ فِي أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَأْذِنَ ثَلَاثًا، فَإِنْ أُذِنَ لَهُ، وَإِلَّا انْصَرَفَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ أَبَا مُوسَى حِينَ اسْتَأْذَنَ عَلَى عُمَرَ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، انْصَرَفَ. ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: أَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ يَسْتَأْذِنُ؟ انْذِنُوا لَهُ.

فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ قَدْ ذَهَبَ، فَلَمَّا جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: مَا رَجَعْتُ؟ قَالَ: إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِذَا اسْتَأْذَنْ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، فَلْيَنْصَرَفْ) فَقَالَ: لَتَأْتِيَنَّ عَلَى هَذَا بَيِّنَةٌ وَإِلَّا أَوْجَعْتُكَ ضَرْبًا. فَذَهَبَ إِلَى مَلَأٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَذَكَرَ لَهُمْ مَا قَالَ عُمَرُ، فَقَالُوا: لَا يَشْهَدُ لَكَ إِلَّا أَصْغَرُنَا. فَقَامَ مَعَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ فَأَخْبَرَ عُمَرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ. (١٥٢)

يقول الطبري [اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: تأويله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا. وقال آخرون: معنى ذلك:

١٥٢ صحيح البخاري برقم (٦٢٤٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٣).

حتى تؤنسوا أهل البيت بالتحنح والتحنم وما أشبهه، حتى يعلموا أنكم تريدون الدخول عليهم.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الاستئناس: الاستفعال من الأُنس، وهو أن يستأذن أهل البيت في الدخول عليهم، مخبرا بذلك من فيه، وهل فيه أحد؟ وليؤذنه أنه داخل عليهم، فليأنس إلى إذنه في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إياهم. فتأويل الكلام إذن إذا كان ذلك معناه: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تسلموا وتستأذنوا، وذلك أن يقول أحدهم: السلام عليكم، أدخل؟ وهو من المقدم الذي معناه التأخير، إنما هو حتى تسلموا وتستأذنوا، كما ذكرنا من الرواية، عن ابن عباس^(١٥٣)

وهذه الآية تتضمن امران : الأمر الأول الاستئذان والأمر الثاني هو السلام علي من في البيت ، ولكل من الأمرين آداب وردت بها الأحاديث الصحيحة . فمن آداب الاستئذان أن يكون ثلاثا ، فإن أذن له يدخل ، وإلا إنصرف ، وذلك للحديث الذي تقدم ذكره ورواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري .

ومن الآداب أيضا أن يكون الاستئذان بالصيغة التي وردت عن رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَص، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ رَبِيعٍ قَالَ: حَدَّثَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: أَلَيْجُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَادِمِهِ: (اخْرُجْ إِلَى هَذَا فَعَلِمَهُ الْإِسْتِئْذَانَ، فَقُلْ لَهُ: قُل: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟) فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَخَلَ^(١٥٤).

ومن آداب الاستئذان أيضا ، ألا يقف المستأذن في مواجهة الباب ، بل يكون عن اليمين أو الشمال وذلك لما رواه أبو داود: حَدَّثَنَا مُؤَمَّلُ بْنُ الْفَضْلِ الْحَرَّانِيُّ - فِي آخِرِينَ - قَالُوا: حَدَّثَنَا بَقِيَّةٌ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ، لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تَلَفَاءٍ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ أَوْ الْأَيْسَرِ، وَيَقُولُ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ". وَذَلِكَ أَنَّ الدَّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمِنِذٍ سُتُورٌ.

^{١٥٣} تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر ص ١٤٧ - المكتبة الشاملة الحديثة

^{١٥٤} سنن أبي داود برقم (٥١٧٧) .

تَقَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ (١٥٥) ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَخَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ، فَفَقَأَتْ عَيْنَهُ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ) (١٥٦)

ويستحب للمستأذن أن يعرف بنفسه وذلك للحديث في الصحيحين وأخرجه الجماعة من حديث شعبة، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دِينَ كَانَ عَلَى أَبِي، فَدَقَّقْتُ الْبَابَ، فَقَالَ: "مَنْ ذَا؟" قُلْتُ: أَنَا. قَالَ: "أَنَا، أَنَا" كَأَنَّهُ كَرِهَهُ (١٥٧)

ويحرم النظر في بيت بغير إذن صاحبه ، وقد ورد في هذا التحريم عدة أحاديث منها ماتقدم ذكره في الصحيحين ، وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَنْ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ مِنْ غَيْرِ إِذْنِهِمْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَنُوا عَيْنَهُ). (١٥٨)

ويستحب أن يستأذن الرجل علي أهله ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طُرُوقًا -وَفِي رِوَايَةٍ: لَيْلًا يَتَخَوَّنُهُمْ (١٥٩)

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَهَارًا، فَأَنَاحَ بِظَاهِرِهَا، وَقَالَ: (انْتَظَرُوا حَتَّى تَدْخُلَ عِشَاءٌ -يَعْنِي: آخِرَ النَّهَارِ- حَتَّى تَمْتَشِطَ الشَّعْثَةُ وَتَسْتَجِدَّ الْمُغِيبَةُ) (١٦٠)

وَقَالَ هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا أَشْعَثُ بْنُ سَوَّارٍ، عَنْ كُرْدُوسٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَأْذِنُوا عَلَى أُمَّهَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ. قَالَ أَشْعَثُ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ: إِنَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَكُونُ فِي مَنْزِلِي عَلَى الْحَالِ الَّتِي لَا أَحِبُّ أَنْ يَرَانِي أَحَدٌ عَلَيْهَا، وَالِدٌ وَلَا وَلَدٌ، وَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَدْخُلُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي، وَأَنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ؟ قَالَ: فَنَزَلْتُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ سَمِعْتُ

١٥٥ سنن أبي داود برقم (٥١٨٦) .

١٥٦ صحيح البخاري برقم (٦٩٠٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٨)

١٥٧ صحيح البخاري برقم (٦٢٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٥) وسنن أبي داود برقم (٥١٨٧) وسنن الترمذي برقم (٢٧١١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠١٦٠) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٠٩) .

١٥٨ صحيح مسلم برقم (٢١٥٨)

١٥٩ صحيح البخاري برقم (٥٢٤٣، ٥٢٤٤) وصحيح مسلم برقم (٧١٥) من حديث جابر، رضي الله

عنه

١٦٠ رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٢٤٧) من حديث جابر، رضي الله عنه.

عطاء بن أبي رباح يُخبر عن ابن عباس، رضي الله عنه، قال: ثلاث آيات جردها الناس قال الله تعالى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣] قال: ويقولون: إِنَّ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُهُمْ بَيْتًا. قال: والإذن كله قد جرده الناس. قال: قلت: استأذن على أخواتي أيتام في حجر، معي في بيت واحد؟ قال: نعم. فرددت ليرخص لي، فأبى. قال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذن. قال: فراجعته أيضًا، فقال: أحب أن تطيع الله؟ قلت: نعم. قال: فاستأذن. (١٦١)

وقال أبو جعفر بن جرير الطبري: حدثنا القاسم، عن ابن أخي زينب - امرأة عبد الله بن مسعود - عن زينب، رضي الله عنها، قالت: "كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب، تتحنن وبزق؛ كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه". إسناده صحيح. (١٦٢)

يقول ابن كثير [وقال مقاتل بن حيان في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا} كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا لَقِيَ صَاحِبَهُ، لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: حَيِّتْ صَبَاحًا وَحَيِّتْ مَسَاءً، وَكَانَ ذَلِكَ تَحِيَّةَ الْقَوْمِ بَيْنَهُمْ. وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَنْطَلِقُ إِلَى صَاحِبِهِ فَلَا يَسْتَأْذِنُ حَتَّى يَفْتَحَ، وَيَقُولُ: "قَدْ دَخَلْتُ". فَيَشُقُّ ذَلِكَ عَلَى الرَّجُلِ، وَلَعَلَّهُ يَكُونُ مَعَ أَهْلِهِ، فَعَيَّرَ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ، فِي سِتْرٍ وَعِقْفَةٍ، وَجَعَلَهُ نَقِيًّا نَزْهًا مِنَ الدَّنَسِ وَالْفَقْرِ وَالدَّرَنِ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا}]. (١٦٣)

يقول ابن عاشور [وظاهر الآية أن الاستئذان واجب وأن السلام واجب غير أن سياق الآية لتشريع الاستئذان. وأما السلام فتقررت مشروعيته من قبل في أول الإسلام ولم يكن خاصًا بحالة دخول البيوت فلم يكن للسلام اختصاص هنا وإنما ذكر مع الاستئذان للمحافظة عليه مع الاستئذان لئلا يُلْهِيَ الاستئذان الطارق فينسى السلام أو يحسب الاستئذان كافيًا عن السلام. قال المازري في كتاب «المعلم على صحيح مسلم»: الاستئذان مشروع.

١٦١ رواه الطبري في تفسيره (٨٧/١٨) .

١٦٢ تفسير الطبري (٨٨/١٨) .

١٦٣ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٤٠ - المكتبة الشاملة الحديثة

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي «أَحْكَامِ الْقُرْآنِ» قَالَ جَمَاعَةٌ: الْإِسْتِئْذَانُ فَرَضٌ وَالسَّلَامُ مُسْتَحَبٌّ. وَرَوَى عَنْ عَطَاءٍ: الْإِسْتِئْذَانُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ. وَلَمْ يُفْصَحْ عَنْ حُكْمِ الْإِسْتِئْذَانِ سِوَى فَقْهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ فِي «الرِّسَالَةِ»: الْإِسْتِئْذَانُ وَاجِبٌ فَلَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ أَحَدٌ حَتَّى تَسْتَأْذِنَ ثَلَاثًا فَإِنْ أَدِنَ لَكَ وَإِلَّا رَجَعْتَ. وَقَالَ ابْنُ رُشْدٍ فِي «الْمُقَدِّمَاتِ»: الْإِسْتِئْذَانُ وَاجِبٌ.

وَحَكَى أَبُو الْحَسَنِ الْمَالِكِيُّ فِي «شَرْحِ الرِّسَالَةِ» الْإِجْمَاعَ عَلَى وَجُوبِ الْإِسْتِئْذَانِ. وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي «شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: الْإِسْتِئْذَانُ مَشْرُوعٌ. وَهِيَ كَلِمَةُ الْمَازِرِيِّ فِي "شَرْحِ مُسْلِمٍ".

وَأَقُولُ: لَيْسَ قَرْنُ الْإِسْتِئْذَانِ بِالسَّلَامِ فِي الْآيَةِ بِمُقْتَضَى مُسَاوَاتِهِمَا فِي الْحُكْمِ إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ أَدَلَّةٌ أُخْرَى تَفَرِّقُ بَيْنَ حُكْمَيْهِمَا وَتِلْكَ أَدَلَّةٌ مِنَ السُّنَّةِ، وَمِنْ الْمَعْنَى فَإِنْ قَائِدَةُ الْإِسْتِئْذَانِ دَفَعُ مَا يُكْرَهُ عَنِ الْمَطْرُوقِ الْمَزُورِ وَقَطَعَ أَسْبَابَ الْإِنْكَارِ أَوْ الشَّتْمِ أَوْ الْإِغْلَاطِ فِي الْقَوْلِ مَعَ سَدِّ ذُرَائِعِ الرِّيبِ وَكُلِّهَا أَوْ مَجْمُوعِهَا بِقُضَايِ وَجُوبِ الْإِسْتِئْذَانِ.

وَقَدْ أَجْمَلْتُ حِكْمَةَ الْإِسْتِئْذَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} أَيْ ذَلِكُمْ الْإِسْتِئْذَانُ خَيْرٌ لَّكُمْ، أَيْ فِيهِ خَيْرٌ لَّكُمْ وَنَفْعٌ فَإِذَا تَدَبَّرْتُمْ عَلِمْتُمْ مَا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ لَّكُمْ كَمَا هُوَ الْمَرْجُوءُ مِنْكُمْ. ^(١٦٤)

وَلِهَذَا قِيلَ: {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ} يَعْنِي: أَيْ: خَيْرٌ لِلْجَمِيعِ، لِلزَّائِرِ وَلِلْمَزُورِ، فَالِإِسْتِئْذَانُ يَمْنَعُ أَنْ يَتَجَسَّسَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، يَمْنَعُ أَنْ يَنْظُرَ أَحَدٌ إِلَى شَيْءٍ يُوْذِيهِ، وَهَبَّ أَنْ أَبَا الزَّوْجَةِ أَرَادَ زِيَارَتَهَا وَدَخَلَ عَلَيْهَا فَجَاءَ فَوَجَدَهَا فِي شَجَارٍ مَعَ زَوْجِهَا، فَلَرَبَّمَا اطَّلَعَ عَلَى أُمُورٍ لَا تَرْضِيهِ، فَيَتَفَاقَمُ الْخِلَافُ.

وَالْخَيْرِيَّةُ الَّتِي فِي الْإِسْتِئْذَانِ وَفِي السَّلَامِ يُمْكِنُ إِجْازَاهَا فِيمَا يَلِي:

أولاً: إِمْتِنَالُ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

ثانياً: الْحِفَاطُ عَلَى حُرْمَةِ الْبُيُوتِ وَأَسْرَارِهَا بِعَدَمِ إِقْتِحَامِهَا فِي أَوْقَاتٍ قَدْ تَكُونُ غَيْرَ مَنَاسِبَةٍ لِأَصْحَابِهَا.

ثالثاً: رَفْعُ الْحَرَجِ الْوَاقِعِ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بِالدَّخُولِ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ إِسْتِئْذَانٍ.

رابعاً: إِعْطَاءُ الْفُرْصَةِ لِأَهْلِ الْبَيْتِ لِلتَّهَيُّوِّ وَالِإِسْتِعْدَادِ لِإِسْتِقْبَالِ الزَّائِرِ.

خامساً: سَدُّ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ الَّتِي قَدْ تَفْتَحُ بِالدَّخُولِ بِلَا إِسْتِئْذَانٍ، كَالْتِهْمَةِ

^{١٦٤} التحرير والتنوير - سورة النور الآيات إلى ٢٨ ص ١٩٨ - المكتبة الشاملة الحديثة

بالسرقة ، أو إثارة الريبة والشك
سادسا : تأمين أهل البيت بإلقاء السلام ، فالسلام يبعث الطمأنينة والإرتياح
في نفوس متلقيه.

سابعا : تحصيل أجر إلقاء السلام ، وإعطاء الفرصة لأهل البيت لتحصيل
أجر رد السلام ومضاعفته ، فالمسلم إذا قال لأخيه المسلم " السلام عليكم "
فاز بعشر حسنات ، وردها عشرا ، ورحمة الله عشرا ، وبركاته عشرا (١٦٥)
أي في إلقاء السلام عشر حسنات ، وفي رده بأحسن منه ثلاثون حسنة.
ثم تختتم الآية بقوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النور: ٢٧] يعني: احذروا أن
تغفلوا هذه الآداب، أو تتهاونوا فيها، كَمَنْ يقولون: نحن أهلٌ أو أقارب لا
تكليفَ بيننا؛ لأن الله تعالى الذي شرع لكم هذه الآداب أعلم بما في نفوسكم،
وأعلم بما يصلحكم.

وبهذا الختام لهذه الآية دليل علي أهمية هذا التشريع ، وتنبيه لنا علي
خطورة ما نراه في أيامنا هذه من تهاون وتساهل في الإستئذان الشرعي
بضوابطه ، بشكل عام ، وعدم إلقاء السلام الشرعي بشكل خاص ، وإستبدال
تحية الإسلام بتحيات مستوردة من البلاد التي لا تدين بالإسلام ، ما أنزل الله
بها من سلطان ، بل تشبه إلي حد كبير تحيات أهل الجاهلية التي جاءنا
الإسلام بما هو خير منها ، كانوا يقولون عمت صباحا ، وعت مساء ،
وجاء اليوم من يريد أن يردنا إلي نفس التحية بلغة العصر صباح الخير ،
ومساء النور ، والأدهي أن تكون هذه التحيات بلغات أجنبية .

حكم البيوت المسكونة- الغائب سكانها

ثم تنتقل الآيات إلي البيوت المسكونة ولكن سكانها غير موجودين وقت
الإستئذان لسفر أو لغيره ، فجعلت لها آدابا خاصة في دخولها أيضا وذلك
في قَوْلُهُ تعالى : {فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ} ،
وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مَلِكٍ الْغَيْرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، فَإِنْ شَاءَ أذن، وَإِنْ شَاءَ
لَمْ يَأْذَنْ ، هَذِهِ الْآيَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِمَا قَبْلَهَا مِنْ آيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُبِينَةِ لَهَا ،
وَالْتَّفَهِيرُ أَنَّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا

^{١٦٥} الترمذي رقم (٢٦٨٩) ، كتاب الإستئذان ، باب ما ذكر في فضل السلام .

وَتَسَلَّمُوا، فَإِنْ أَذِنَ لَكُمْ فَادْخُلُوا وَإِلَّا فَارْجِعُوا، كَمَا فَعَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ سَعْدٍ، وَأَبُو مُوسَى مَعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا يَأْذَنُ لَكُمْ فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى تَجِدُوا إِذْنًا.

يقول تعالى ذكره: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِي الْبُيُوتِ الَّتِي تَسْتَأْذِنُونَ فِيهَا أَحَدًا يَأْذَنُ لَكُمْ بِالْدُخُولِ إِلَيْهَا، فَلَا تَدْخُلُوهَا، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ لَكُمْ، فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ دُخُولُهَا إِلَّا بِإِذْنِ أَرْبَابِهَا، فَإِنْ أَذِنَ لَكُمْ أَرْبَابُهَا أَنْ تَدْخُلُوهَا فَادْخُلُوهَا {وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا} يقول: وَإِنْ قَالَ لَكُمْ أَهْلُ الْبُيُوتِ الَّتِي تَسْتَأْذِنُونَ فِيهَا: ارْجِعُوا فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَارْجِعُوا عَنْهَا وَلَا تَدْخُلُوهَا؛ {هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} يقول: رَجُوعُكُمْ عَنْهَا إِذَا قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا، وَلَمْ يُؤْذَنَ لَكُمْ بِالْدُخُولِ فِيهَا، أَطْهَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ: {هُوَ} كِنَايَةٌ مِنْ اسْمِ الْفِعْلِ أَعْنِي مِنْ قَوْلِهِ: {فَارْجِعُوا}. وَقَوْلُهُ: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} يَقُولُ جَلَّ ثَنَاهُ: وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنْ رَجُوعِكُمْ بَعْدَ اسْتِئْذَانِكُمْ فِي بُيُوتِ غَيْرِكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا، وَتَرَكْ رَجُوعَكُمْ عَنْهَا وَطَاعَتَكُمْ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ فِي ذَلِكَ وَغَيْرِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ- نَوْ عِلْمٌ مُحِيطٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ- أَحْصَاهُ جَمِيعُهُ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُجَازِيَكُمْ عَلَيْهِ.

{وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} أَي: إِذَا رَدُّوكُمْ مِنَ الْبَابِ قَبْلَ الْإِذْنِ أَوْ بَعْدَهُ {فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ} أَي: رُجُوعُكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}.

قال الإمام الطبري [قال: ثنا الحسن، قال: ثنا هاشم بن القاسم المزني، عن قتادة، قال: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية، فما أدركتها، أن أستاذني على بعض إخواني، فيقول لي ارجع، فأرجع وأنا مغتبط، لقوله {وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ}

وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا إِلَّا لِحِثِّ الْأَخْرِاسِ مِنْ أَنْ يَظُنَّ ظَنَّ أَنْ الْمَنَازِلَ غَيْرَ الْمَسْكُونَةِ يَدْخُلُهَا النَّاسُ فِي غَيْبَةِ أَصْحَابِهَا بِدُونِ إِذْنٍ مِنْهُمْ تَوْهَمًا بِأَنَّ عِلَّةَ شَرْعِ الْإِسْتِئْذَانِ مَا يَكْرَهُ أَهْلُ الْمَنَازِلِ مِنْ رُؤْيَتِهِمْ عَلَى غَيْرِ تَأْهِبٍ بَلِ الْعِلَّةُ هِيَ كَرَاهَتُهُمْ رُؤْيَا مَا يُحِبُّونَ سِتْرَهُ مِنْ شَوْوَنِهِمْ. فَالشَّرْطُ هُنَا يُشْبِهُ الشَّرْطَ الْوَصْلِيَّ لِأَنَّهُ مُرَادٌّ بِهِ الْمُبَالَغَةُ فِي تَحْقِيقِ مَا قَبْلَهُ وَلِذَلِكَ لَيْسَ لَهُ مَفْهُومٌ مُخَالَفَةٌ. (١٦٦)

وجوب الرجوع في حال عدم الإذن بالدخول

والأمر بالرجوع إذا قيل إرجع هو للوجوب ، وهو من التشريعات التي تدهش منها العقول ، فلو افترضنا أن شخصا ما ، لم يستجب وأصر على الدخول ، فلا شك أن هذا الإصرار سيبعث على الريبة والقلق ولذلك كان قوله تعالى { فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ } هو قول العالم بمن خلق وهو اللطيف الخبير. ولذلك قال تعالى بعدها { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [النور: ٢٨] أي: عالم سبحانه بدخائل النفوس ووساوس الصدور، فإن قال لك صاحب الدار ارجع فوقفت أمام الباب ولم تنصرف، فإنك تثير حولك الظنون والأوهام، وربك - عَزَّ وَجَلَّ - يريد أن يحميك من الظنون ودخائل النفوس.

يقول البقاعي [ارجعوا فارجعوا] أي ولا تستنكفوا من أن تواجهوا بما تكرهون من صريح المنع، فإن الحق أحق أن يتبع، وللناس عورات وأمور لا يحبون اطلاع غيرهم عليها. ولما كان في المنع نقص يوجب غضاظة ووغراً في الصدر، وعد سبحانه عليه بما يجبر ذلك، فقال على طريق الاستئناف: { هو } أي الرجوع المعين { أزكى } أي أظهر وأنى { لكم } فإن فيه طهارة من غضاظة الوقوف على باب الغير، ونماء بما يلحق صاحب البيت من الاستحياء عند امتثال أمره في الرجوع مع ما في ذلك عند الله. ولما كان التقدير: فالله يجازيكم على امتثال أمره، وكان الإنسان قد يفعل في البيوت الخالية وغيرها من الأمور الخفية ما يخالف ما أدب به سبحانه مما صورته مصلحة وهو مفسدة^(١٦٧)

حكم البيوت الغير مسكونه والأماكن العامة

ثم تنتقل الآيات إلى أدب آخر ، وهو المتعلق بالبيوت الغير مسكونة وذلك في قوله تعالى : { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَخَصُّ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَقْتَضِي جَوَازَ الدُّخُولِ إِلَى الْبُيُوتِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، إِذَا كَانَ لَهُ فِيهَا مَتَاعٌ، بِغَيْرِ إِذْنٍ، كَالْبَيْتِ الْمَعْدِيِّ لِلضَّيْفِ، إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، كَفَى. وأختلف المفسرون في تعريف هذه البيوت ، فمنهم من قال هي البيوت

^{١٦٧} نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ص ٢٥١ - المكتبة الشاملة الحديثة

الخربة ، والمتاع الذي قال الله لكم هو قضاء الحاجة من بول وغانط وغيره ، وقال آخرون هي بيوت التجار والخانات ومنازل السفر كالفنادق في عصرنا ، ومنهم من قال هي بيوت مكة ، وقال ابن جرير الطبري [وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عمّ بقوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ} كل بيت لا ساكن به لنا فيه متاع ندخله بغير إذن؛ لأن الإذن إنما يكون ليونس المأذون عليه قبل الدخول، أو ليأذن للداخل إن كان له مالكا، أو كان فيه ساكنا. فأما إن كان لا مالك له فلا يحتاج إلى إذنه لدخوله.]^(١٦٨)

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ} جناح يعني: إثم أو حرج، وهذه خاصة بالأماكن العامة التي لا يسكنها أحد بعينه، والمكان العام له قوانين في الدخول غير قوانين البيوت والأماكن الخاصة، فلا يستأذن في دخول الفندق أو المحل التجاري أو الحمام العمومي... إلخ، هذه أماكن لا حرج عليك في دخولها دون استئذان. فمعنى {غَيْرَ مَسْكُونَةٍ} أي: لقوم مخصوصين ، {فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ} كأن تنام فيها وتأكل وتشرب وتضع حاجياتك، فالمتاع هنا ليس على إطلاقه إنما مقيد بما أحله الله وأمر به، فلا يدخل في المتاع المحرمات. لذا قال بعدها: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} يعني: في تحديد الاستمتاع، فلا تأخذه على إطلاقه فتدخل فيها الحرام، وإلا فالبلغيا كثيراً ما يرتادون مثل هذه الأماكن؛ لذلك يُحَصِّنُكَ رَبُّكَ، ويعطيك المناعة اللازمة لحمايتك.

وهذه الأماكن أشبه ماتكون بالأماكن العامة ، أي المنافع فيها يمكن أن تكون مشتركة ، وربما يحدث فيها التزاحم والإحتكاكات ، فالله لا يمنعكم مما ينفعكم، ولا يضر غيركم، عطف عليه قوله: {والله} أي الملك الأعظم {يعلم} في كل وقت {ما تبذون} وأكد بإعادة الموصول فقال: {وما تكتُمون} تحذيراً من أن تزاحموا أحداً في مباح بما يؤذيه ويضيق عليه، معتلين بأصل الإباحة، أو يؤذن لكم في منزل فتبطنوا فيه الخيانة فإنه وإن وقع الاحتراز من الخونة بالحجاب فلا بد من الخلطة لما بني عليه الإنسان من الحاجة إلى العشرة، ولذلك اتصل به على طريق الاستئناف قوله تعالى؛ مقبلاً على أعلى

^{١٦٨} تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر - ص ١٥٢ - المكتبة الشاملة الحديثة

خلقه فهماً وأشدهم لنفسه ضبطاً دون بقيتهم، إشارة إلى صعوبة الأمر وخطر المقام، مخوفاً لهم بالإعراض عنهم، بالتردي برداء الكبر، فكان من المناسب لهذه الاعتبارات أن تأتي بعد هذه الآيات ، آيات تحض علي غض البصر وكف الأذي. وذلك في قوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .

خلاصة أحكام دخول البيوت

وبذلك نستخلص من الآيات أن البيوت علي ثلاثة أحوال ، لكل حال منها أداب خاصة به كما يلي :

أولاً : بيوت مسكونة وأصحابها مقيمين فيها ، وهذه البيوت لها حرمة ويجب لدخولها الاستئذان والسلام .

تُعَلِّمُنَا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة المسلمة المكوّنة من الأبوين والأبناء، ثم الأتباع مثل الخدم وغيرهم، والحق تبارك وتعالى يريد أن يُنشِئَ هذه الأسرة على أفضل ما يكون، ويخصّ بالنداء هنا الذين آمنوا، يعني: يا من آمنتم بي رباً حكيماً مُشَرَّعاً لكم حريصاً على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الأدب: {لَيْسَتْ أُنْزِلُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ} [النور: ٥٨].

وهذا الأدب تكليف من الله تعالى يُكَلِّفُ به كل مؤمن داخل الأسرة، وإن كان الأمر هنا لغير المأمور، فالمأمور بالاستئذان هم ملك اليمين والأطفال الصغار، فأمر الله الكبار أن يُعَلِّمُوا الصغار، كما ورد في الحديث الشريف: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع) . (١٦٩)

فلم يُكَلِّفْ بهذا الصغار إنما كُلف الكبار؛ لأن الأطفال لم يبلغوا بَعْدَ مبلغ التكليف من ربهم، إنما بلغوا مبلغ التكليف عندكم أنتم، لذلك أنت الذي تأمر وأنت الذي تتابع وتعاقب. وأمر الصغير بالصلاة أو بالاستئذان لِثُرْبِي فيه الدربة والتعود على أمر قد يشقُّ عليه حال كِبَرِهِ، إنما إن عَوَّدْتَهُ عليها الآن فإنها تسهل عليهم عند سِنِّ التكليف، وتتحول العادة في حقه إلى عبادة يسير

^{١٦٩} سنن أبي داود رقم (٤٩٥) ، (٤٩٦) كتاب الصلاة ، باب متي يؤمر الغلام بالصلاة.

عليها. وشرع الله لنا آداب الاستئذان داخل البيوت ؛ لأن الإنسان ظاهراً يراه الناس جميعاً ، ويكثر ظاهره للخاصة من أهل بيته في أمور قد لا يظهرها على الآخرين، فدائرة الأهل والملاصقين له أوسع، وهناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة، وحرية المرء في أسرته أوسع من حرите في المجتمع العام، فإن كان في حجرته الخاصة كانت حرите أوسع من حرите مع الأسرة.

ففرض الشرع ضوابط تحمي هذه الخصوصية وتصورها ، وتنظم علاقات الأفراد داخل الأسرة الواحدة، كما سبق فرض ضوابط تنظم علاقات الأفراد خارج الأسرة.

إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَى اسْتِئْذَانِ الْأَقْرَابِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ. وَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فَهُوَ اسْتِئْذَانُ الْأَجَانِبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ. فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُمْ خَدَمَهُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَطْفَالُهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ: الْأَوَّلُ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْغَدَاةِ (الفجر) ؛ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا ذَاكَ يَكُونُونَ نِيَامًا فِي فُرُشِهِمْ {وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ} أَيُّ: فِي وَقْتِ الْقِيْلُولَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَضَعُ ثِيَابَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ مَعَ أَهْلِهِ، {وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ} لِأَنَّهُ وَقْتُ النَّوْمِ، فَيُؤَمَّرُ الْخَدْمُ وَالْأَطْفَالُ أَلَّا يَهْجُمُوا عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ، لِمَا يُخْشَى مِنْ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَھُنَّ} أَيُّ: إِذَا دَخَلُوا فِي حَالٍ غَيْرِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي تَمْكِينِكُمْ إِيَّاهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا عَلَيْهِمْ إِنْ رَأَوْا شَيْئًا فِي غَيْرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهَجُومِ، وَلَآئِنْهُمْ {طَوَافُونَ} عَلَيْكُمْ، أَيُّ: فِي الْخِدْمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيُعْتَفَرُ فِي الطَّوَافِينَ مَا لَا يُعْتَفَرُ فِي غَيْرِهِمْ. وَلِهَذَا رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَهْلُ السُّنَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الْهَرَّةِ: (إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ؛ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَافِينَ عَلَيْكُمْ - أَوْ - وَالطَّوَافَاتِ) (١٧٠)

ومعنى: {الذين مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} هم العبيد الذين يقومون على خدمة بعض

١٧٠ الموطأ (٢٣/١) والمسند (٢٩٦/٥) وسنن أبي داود برقم (٧٥) وسنن الترمذي برقم (٩٢) وسنن النسائي (٥٥/١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٦٧) .

الناس بصفة دائمة وليس الأجير الذي يستطيع أن يتركك في أي وقت، أما العبد فليس كذلك؛ لأنه مملوك الرقبة لا حرية له، فالمملوكية راحة في هؤلاء، وللسيد السيطرة والمهابة فلا يستطيع أن يُفْلِت منه ، والعبد يكون أكثر ملازمة لسيده .

{وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ} هم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبلغ التكليف، ويقضون المصالح؛ فتراهم في البيت يدخلون ويخرجون دون ضوابط، لأنهم لا يدركون وقع الحرج الذي يحدث من الإطلاع على العورات فكان من المناسب ألا يتركوا هكذا يطلعون على خصوصيات الكبار.

وللخدم في البيت طبيعة تقتضي كثرة الحركة بالدخول والخروج والتجول، وكذلك الصغار، ولا يمكن تقييد حركتهم إلا في أوقات ثلاثة لا يُسَمَح لهم فيها بالدخول إلا بعد الاستئذان: {مَنْ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ} لأنه وقت متصل بالنوم، والإنسان في النوم يكون حرَّ الحركة وقد يكون متحررا من اللباس الساتر لعورته {وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ} وهو وقت القيلولة، وهي وقت راحة يتخفف فيها المرء من ملابسه {وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ} وبعد العشاء وهو بداية النوم للإنسان الطبيعي بصرف النظر عن تبدل الأحوال وانتكاس الفطر السليمة لبعض المسلمين فبدلوا ليلهم نهارا بالسهر حتى الفجر ونهارهم ليلا بالنوم حتى الظهر أو بعدها. والأصل أن هذه أوقات ثلاثة، لا ينبغي لأحد أن يدخل فيها على أحد إلا بإذنه.

ويُسَمِّي الله تعالى هذه الأوقات الثلاثة عورة: {ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ} والعورة: هي ما يحب الإنسان ألا يراها أحد، أو يراه عليها؛ لأن لها خصوصية، والله لا يريد أن يراك أحد على حال تكرهه.

ثم يقول سبحانه: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ} يعني: بعد هذه الأوقات: لا إثم ولا حرج عليكم، ولا على المماليك، أو الصغار أن يدخلوا عليكم، ففي غير هذه الأوقات يجلس المرء مُستَعِدًّا لممارسة حياته العادية، ولا مانع لديه من استقبال الخدم أو الأطفال الصغار دون استئذان؛ لأن طبيعة المعيشة في البيوت لا تستغني عن دخول هؤلاء وخروجهم باستمرار.

لذلك قال تعالى بعدها: {طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ} يعني: حركتهم في البيت دائمة، دخولاً وخروجاً، ولا يمكن أن نُقَيِّدها في غير هذه الأوقات

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ} أي: [ولما أرتقي سبحانه بالبيان في هذه الآيات إلى حد يعجز الإنسان لا سيما وأنها في الأحكام، والكلام فيها يعيي أهل البيان، وكان السامع لما جبل عليه من النسيان، يذهل عن أن هذا هو الشأن، في جميع القرآن، قال مشيراً إلى عظم شأنها، في تفريقها وبيانها: {كَذَلِكَ} أي مثل هذا البيان {يبين الله} بما له من إحاطة العلم والقدرة {لكم} أيتها الأمة الخاصة {الآيات} في الأحكام وغيرها ويعلمه وحكمته {والله} الذي له الإحاطة العامة بكل شيء {عليم} بكل شيء {حكيم} يتقن ما يريده، فلا يقدر أحد على نقضه، وختم الآية بهذا الوصف يدل على أنها محكمة لم تنسخ كما قال الشعبي وغيره - أفاده ابن كثير، وحكي مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير.]{^(١٧١)

ولما قل عمل بعض المسلمين بأحكام هذه الآيات إما تهاونا أو لعدم توفر الأسباب لتطبيقه كغيره من الأحكام التي توقف العمل بها ، ظن البعض أنها قد نسخت ، خاصة بعد التطور المشهود في عمارة البيوت وفرشها ، وتكثيف الستائر والحجب ، وتخصيص غرف للنوم وغرف للإستقبال ، ومع كل هذا تبقى حاجة الإنسان إلي تطبيق هذه الأحكام في أوقات يرغب فيها في الإنفراد بنفسه والتخفف من رتابة حياته اليومية ومن لوازم العمل وسعيه لكسب العيش ، خاصة مع عدم وجود دليل قطعي علي نسخ الآية كما بين ذلك ابن عباس رضي الله عنه ، وعلماء التفسير. وعدم العمل بالحكم لا يعني نسخه.

^{١٧١} نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - ص ٢٥١ - المكتبة الشاملة الحديثة

أحكام خاصة بالأطفال

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي: إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ إِنَّمَا كَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْعَوَرَاتِ الثَّلَاثِ، إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ، وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا عَلَى كُلِّ حَالٍ، يَعْنِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَجَانِبِهِمْ وَإِلَى الْأَحْوَالِ الَّتِي يَكُونُ الرَّجُلُ عَلَى امْرَأَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثِ.

يقول تعالى ذكره: إذا بلغ الصغار من أولادكم وأقربائكم، ويعني بقوله: (منكم) من أحراركم (الحلم) يعني الاحتلام، واحتلموا (فليستأذنوا) يقول: فلا يدخلوا عليكم في وقت من الأوقات إلا بإذن، لا في أوقات العورات الثلاث ولا في غيرها. وقوله: (كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) يقول: كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقربائه الأحرار، وخصَّ الله تعالى ذكره في هذه الآية الأطفال بالذكر، وتعريف حكمهم عباده في الاستئذان دون ذكر ما ملكت أيماننا، وقد تقدّمت الآية التي قبلها بتعريفهم حكم الأطفال الأحرار والمماليك؛ لأن حكم ما ملكت أيمانكم في ذلك حكم واحد، سواء فيه حكم كبارهم وصغارهم في أن الإذن عليهم في الساعات الثلاث التي ذكرها الله في الآية التي قبل.

يقول الشعراوي [وبلوغ الحلم أن ينضج الإنسان نُضْجاً يجعله صالحاً لإنجاب مثله، فهذه علامة اكتمال تكوينه، وهذا لا يتأتى إلا باستكمال الغريزة الجنسية التي هي سبب النسل والإنجاب، ومثلنا ذلك بالثمرة التي لا تحلو إلا بعد نُضْجِها، فَإِنْ تَرَكْتَهَا بَعْدَ النُّضْجِ سَقَطَتْ مِنْ نَفْسِهَا، وهذه آية من آيات الله لبقاء النوع، فلو أكلنا الثمرة قبل نُضْجِها لا تنبت بذرتها وينقرض نوعها، فمن حكمة الله في الخلق ألا تحلو الثمرة إلا بعد النُّضْجِ كذلك الولد حين يبلغ يصبح صالحاً للإنجاب، ونقول له، انتهت الرخصة التي منحها لك الشرع، وعليك أن تستأذن في جميع الأوقات.] (١٧٢)

وكعادتنا في إستخلاص الفوائد من الآيات التي نعرض لها ، نجد في هذه الآيات عدة فوائد منها :

١٧٢ تفسير الشعراوي - ص ١٠٣٣٧ - المكتبة الشاملة الحديثة

الأولي : في تصدير الآيات بنداء الإيمان {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} كما هي العادة في وجود هذا النداء ، يسترعي الإنتباه ، ويشدّز الهمم لتلقي أمر هام ، يحض الله تعالى المؤمنين علي العمل به.

الثانية : توجيه الخطاب للمؤمنين مع أن الحكم يخص غيرهم من العبيد والأطفال الصغار الغير مكلفين ، يدل علي مسؤولية المؤمنين عن تنفيذ الأمر وتحملهم إثم عدم إحسان التربية والتأديب لمن يتولون أمرهم

الثالثة : وجوب الإستئذان من العبيد والصغار في هذه الأوقات الثلاثة فقط ، أما سواهم فالإستئذان واجب في جميع الأوقات.

الرابعة : وضوح العلة في أحكام هذه الآيات ، فالأوقات الثلاثة المحذورة علتها إنكشاف العورات ، وغيرها من الأوقات أبيح عدم الإستئذان لهذين الصنفين لأنهم (طوافون) .

الخامسة : إيجاب الإستئذان في هذه الأوقات الثلاثة للصغار يدل علي تحريم النظر للعورات للكبار.

السادسة : مراعاة رفع الحرج والمشقة عن المسلمين ، بتحديد هذه الأوقات الثلاثة فقط لإستئذان هذين الصنفين في البيوت لصعوبة التوسع في ذلك لشدة إختلاطهم .

السابعة : تحمل ولي الأمر إثم التفريط في تعليم وتأديب من تحت ولايته من العبيد والصغار وذلك من قول الله تعالى { لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ } والجناح هو الإثم ، وبعدهن أي أن الإثم يكون في هذه الأوقات علي الجميع إذا إنكشفت العورات لعدم التعليم والتأديب.

الثامنة : إشتراك العلة في رفع الحرج عن وجود الهرة في البيوت ، بأنهم طوافات كالأطفال وأنها ليست بنجس ، يمكن أن يستدل منه طهارة الطفل أيضا مالم يتيقن من نجاسته .

التاسعة : المنة والفضل من الله تعالى بنزول هذه الآيات وبيانها للناس ، برفع الحرج عنهم وفي نفس الوقت بيان ما يحفظ الحرمة لبيوتهم ولأنفسهم من وجوب الإستئذان لحفظ الأعراض وعدم كشف العورات.

العاشرة : إنفراد الشريعة الإسلامية بهذا التشريع الرباني الفريد يعتبر من آيات الله الكونية والتشريعية.

الحادية عشرة : إثبات ملك اليمين في الإسلام مع إعتبار ما شرع لهم من

الحقوق وما عليهم من واجبات

الثانية عشرة : جواز وضع الثياب عند النوم . مع دقة التعبير بتقييد القول بوضع الثياب عند الظهيرة في قوله {وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ} دون الوقتين الآخرين {مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ} و{وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ} ، لأن هذا الوقت ليس وقت نوم لكل الناس وقد لا توضع فيه الثياب ، بعكس الوقتين الآخرين.

الثالثة عشرة : قوله تعالى {وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ} فيه دليل علي أن العلة من الحكم هي وضع الثياب وكشف العورة .

الرابعة عشرة : هذا الحكم يدل علي أن رعاية الله لعباده ، أكثر من رعايتهم لأنفسهم ، لأنه لولا هذا الحكم لما وجد ما يمنع الوالدين من التساهل والتبسط مع أولادهم ، بما يؤدي إلي رؤيتهم أوضاع يمكن أن تترك لديهم أثرا نفسيا سيئا في الكبر ، وهذا الأمر كان مادة دسمة لكثير من القصص والروايات .

الخامسة عشرة : إباحة الدخول في غير هذه الأوقات للأطفال والخدم.

السادسة عشرة : إثبات إسمي الله تعالى {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

السابعة عشرة : المشقة تجلب التيسير.

الثامنة عشرة : بيان وإثبات الأوقات الشرعية للراحة والنوم ، والتي تتناسب مع الطبيعة البشرية ، وهي من بعد صلاة العشاء إلي قبل صلاة الفجر ، ووقت الظهيرة في القيلولة .

أحكام خاصة بالنساء العجائز

ثم يقول الله تعالى: {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)}

هذه الآية مخصصة لقوله تعالى: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ إِلَى قَوْلِهِ: عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ [النور: ٣١].

ومناسبة هذا التخصيص هنا أنه وقع بعد فرض الاستيذان في الأوقات التي يضع الرجال والنساء فيها ثيابهم عن أجسادهم، فعطف الكلام إلى نوع من وضع الثياب عن لابسها وهو وضع النساء القواعد بعض ثيابهن عنهن فاستثنى من عموم النساء النساء المتقدمات في السن بحيث بلغن إبان الإياس من المحيض فرخص لهن أن لا يضربن بخمرهن على جيوبهن، وأن لا يبدن عليهن من جلابيبن.

يقول تعالى ذكره: واللواتي قد قعدن عن الولد من الكبر من النساء، فلا يحضن ولا يلدن، واحدتهن قاعد (اللاتي لا يرجون نكاحاً) يقول: اللاتي قد ينسن من البعولة، فلا يطمعن في الأزواج، إنما خص القواعد بذلك لأنصراف الأنفس عنهن، إذ لا يذهب للرجال فيهن، فأبيح لهن ما لم يبيح لغيرهن، وأزيل عنهم كلفة التحفظ المتعب لهن.

(فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) يقول: فليس عليهن حرج ولا إثم أن يضعن ثيابهن، يعني جلابيبن، وهي القناع الذي يكون فوق الخمار، والرداء الذي يكون فوق الثياب، لا حرج عليهن أن يضعن ذلك عند المحارم من الرجال، وغير المحارم من الغرباء غير متبرجات بزينة.

قوله تعالى: (غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ) أي غير مظهرات ولا متعربات بالزينة لينظر إليهن، فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعده عن الحق. والتبرج: التكشف والظهور للعيون، ومنه: بروج مشيدة. وبروج السماء والأسوار، أي لا حائل دونها يسترها.

والمقصود بوضع الثياب: التخفف بعض الشيء من الثياب الخارجية شريطة {غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ} [النور: ٦٠] فلا يجوز للمرأة أن تضع ثيابها أخذاً

بهذه الرخصة، ثم تضع الزينة وتتبرج. ونخشى أن نُعَلِّم النساء هذا الحكم فلا يأخذن به حتى لا نقول عنهن: إنهن قواعد!!

وتعجب حين ترى المرأة عندما تبلغ هذه السن فتجدها ورعة في ملابسها، ورعة في مظهرها، ورعة في سلوكها، فتزداد جمالاً وتزداد بهاءً وأسرية، على خلاف التي لا تحترم سنّها فتضع على وجهها المساحيق والألوان فتبدو مسخاً مشوهاً.

وقوله: {وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُنَّ} أي: وترك وضعهنّ لثيابهنّ -وإن كان جائزاً- خيراً وأفضل لهنّ، والله سميعٌ عليمٌ.

وقوله تعالى: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} مسوقة مساق التذليل للتحذير من التوسّع في الرخصة أو جعلها ذريعة لما لا يحمّد شرعاً، فوصف «السميع» تذكيراً بأنّه يسمع ما تحدّثهنّ به أنفسهنّ من المقاصد، ووصف «العليم» تذكيراً بأنّه يعلم أحوال وضعهنّ الثياب وتبرّجهنّ ونحوها.

ومن الفوائد المستنبطة من هذه الآية مايلي :

الأولي : العجائز اللاتي ينسن من الزواج يجوز لهن التحرر من ثيابهن الظاهرة لإنعدام الفتنة منهن.

الثانية : تحريم التبرج بالزينة علي العجائز كغيرهن من النساء .

الثالثة : الحكم يدور مع علته، فرخصة وضع الثياب عند إنعدام الفتنة ، فإن وجدت الفتنة سقطت الرخصة.

الرابعة : الأولي البعد عن أسباب الفتنة وبواعث الريبة لقوله تعالى {وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُنَّ}.

حكم الأكل في البيوت وعدم الحرج لذوي العاهات المزمنة

وهنا إنتهت آيات آداب الإستئذان ، وبقي أدب واحد متعلق بالبيوت في قول الله تعالى {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) }

فيما سبق من الآيات كان محور الحديث عن الآداب المطلوبة لصيانة الأعراس من الشبهات ، والعورات من التكشف ، والغرض من هذه الآداب المحافظة علي حرمة البيوت لصيانة الأبضاع (الأبضاع جمع بضع وهو الجماع ومنه قول رسول الله ﷺ (وفي بضع أحدكم صدقة)^(١٧٣) وهو أحد أهم الغرائز الإنسانية.

وهذه الآيات تنتقل إلي بعض الآداب المتعلقة بغريزة أخرى مكانها البيوت أيضا وهي غريزة الطعام والشراب ، وقد بدأت الآيات ببداية حيرت العلماء والمفسرين وهي رفع الحرج عن ذوي العاهات المستديمة كالأعمى ، والأعرج ، والمريض ، ومراعاة هذا الصنف من بآيات تتلي في كتاب الله تعالى هي قمة الرقي الإنساني ، الذي سبقت به الشريعة الإسلامية كل نظريات حقوق الإنسان الحديثة .

وقد اختلف المفسرون في ماهية الحرج المرفوع عن الأعمى والأعرج والمريض ، فقال بعضهم الحرج المرفوع عنهم في الجهاد وذلك لورود نفس النص في صدر آية سورة الفتح {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ} في سياق الحث علي الجهاد ، ولا خلاف بين العلماء في أن الحرج المرفوع عنهم في آية الفتح هو في الجهاد.

وبالنظر إلي سياق آية سورة النور التي نحن بصدها حتي نهايتها ، والتي تتحدث آداب الأكل في البيوت ، رأي فريق آخر من المفسرين أن الحرج

^{١٧٣} صحيح مسلم كتاب الزكاة ، رقم (١٠٠٦)

المرفوع فيها هو مؤاكلة الأعمى والأعرج والمريض ، لما قد يحدث من تقذر أو تقزز من بعض تصرفاتهم نتيجة العاهات التي لديهم .
وقالوا أن ليس علي الأعمى والأعرج والمريض حرج في ترك أي عبادة ، تكون عاهته هذه مانعة له.

يقول ابن كثير [اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ -فِي الْمَعْنَى الَّتِي رَفَعَ مِنْ أَجْلِهِ الْحَرَجَ عَنِ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ وَالْمَرِيضِ هَاهُنَا، فَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ.

وَجَعَلُوا هَذِهِ الْآيَةَ هَاهُنَا كَالَّتِي فِي سُورَةِ الْفَتْحِ وَتِلْكَ فِي الْجِهَادِ لَا مَحَالَةَ، أَيْ: أَنَّهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ؛ لِضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ: {لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ} [التَّوْبَةِ: ٩١، ٩٢].

وَقِيلَ: الْمُرَادُ هَاهُنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ الْأَعْمَى؛ لِأَنَّهُ لَا يَرَى الطَّعَامَ وَمَا فِيهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، فَرُبَّمَا سَبَقَهُ غَيْرُهُ إِلَى ذَلِكَ. وَلَا مَعَ الْأَعْرَجِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتِمَكَّنُ مِنَ الْجُلُوسِ، فَيَفْتَاتُ عَلَيْهِ جَلِيسُهُ، وَالْمَرِيضُ لَا يَسْتَوْفِي مِنَ الطَّعَامِ كَغَيْرِهِ، فَكَرِهُوا أَنْ يُوَاكِلُوهُمْ لِنَلَّا يَظْلِمُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ رُخْصَةً فِي ذَلِكَ. وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَمُقَسَّم.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: كَانُوا قَبْلَ الْمَبْعَثِ يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ هَؤُلَاءِ تَقَدَّرًا وَتَقَزُّرًا، وَلِنَلَّا يَتَفَضَّلُوا عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ} الْآيَةَ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِالْأَعْمَى أَوْ الْأَعْرَجِ أَوْ الْمَرِيضِ إِلَى بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أَخِيهِ، أَوْ بَيْتِ أُخْتِهِ، أَوْ بَيْتِ عَمَّتِهِ، أَوْ بَيْتِ خَالَتِهِ. فَكَانَ الزَّمَنُ يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَلِكَ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا يَذْهَبُونَ بِنَا إِلَى بُيُوتِ غَيْرِهِمْ . فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ رُخْصَةً لَهُمْ. وَقَالَ السُّدِّي: كَانَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ بَيْتَ أَبِيهِ، أَوْ أَخِيهِ أَوْ ابْنِهِ، فَتُحْفَفُ الْمَرْأَةُ بِالشَّيْءِ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَا يَأْكُلُ مِنْ أَجْلِ أَنْ رَبَّ الْبَيْتِ لَيْسَ تَمَّ. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا

عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ إِلَى قَوْلِهِ: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا} [إنتهي. (١٧٤)]

والحرج بمعنى: الإثم، فالحرج المرفوع عن هؤلاء هو الضيق أو الإثم الذي يتعلق بالحكم الآتي في مسألة الأكل، بدليل أنه يقول {وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ} فالأعمى قد يتحرج أن يأكل مع الناس؛ لأنه لا يرى طعامه، وربما امتدت يده إلى أطيب الطعام فيأكله ويترك أدناه، والأعرج قد يحتاج إلى راحة خاصة في جلسته، وربما ضايق بذلك الآخرين، والمريض قد يتأفف منه الناس. فرفع الله تعالى عن عباده هذا الحرج، وقال: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا}

فيصح أن تأكلوا معاً؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل التكامل في الذوات لا في الأعراض، وأيضاً يمكن أن تري شخصاً مؤوفاً به آفة مزمنة ، ثم تعامله معاملة خاصة فربما جرحت شعوره، حتى إن كان ما به أمراً خَلْقياً من الله لا يتأباه، والبعض يتأبى أن يخلقه الله على هيئة لا يرضاها. وكذلك يصح ألا تجرح شعوره وتجعله يأكل بمفرده إن أراد ذلك . وكأن الحق تبارك وتعالى يريد لأصحاب هذه الآفات أن يتوافقوا مع المجتمع، لا يأخذون منه موقفاً، ولا يأخذ المجتمع منهم موقفاً؛ لذلك يعطف على {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ} ثم يقول سبحانه {وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ} يعني: هم مثلكم تماماً، فلا حرج بينكم في شيء. ولقائل أن يقول: وأي حرج في أن يأكل المرء في بيته؟ وهل كان يخطر على البال أن تجد حرجاً، وأنت تأكل من بيتك؟ قالوا: لو حاولت استقصاء هؤلاء الأقارب المذكورين في الآية لتبين لك الجواب، فقد ذكرت الآية آباءكم وأمهاتكم وإخوانكم وأخواتكم وأعمامكم وعماتكم وأخوالكم وخالاتكم، ولم تذكر شيئاً عن الأبناء مع أنهم يفترض أن يكونوا في مقدمة هذا الترتيب للبيوت المباح الأكل فيها ، قالوا: لأن بيوت الأبناء هي بيوت الآباء، وحين تأكل من بيت ولدك كأنك تأكل من بيتك، على اعتبار أن الولد وما ملك يداه منك لأبيه، إذن: لك أن تضع مكان {بُيُوتِكُمْ} بيوت أبنائكم. ذلك لأن الحق

تبارك وتعالى لم يُرد أن يجعل للأبناء بيوتاً مع الآباء، لأنهما شيء واحد، وعلي ذلك فيكون الحرج المرفوع عن الأكل في بيوتكم، المقصود به بيوت أبنائكم، ولم يصرح بالأبناء باعتبارهم، هم والآباء سواء، وهذه لفظة قرآنية لطيفة.

إذن: لا حرج عليك أن تأكل من بيت ابنك أو أبيك أو أمك أو أخيك أو أختك أو عمك أو عمتك، أو خالك أو خالتك {أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ} يعني: يعطيك صاحب البيت مفتاح بيته، وفي هذا إذن لك بالتصرف والأكل من طعامه إن أردت. أي لك أن تأكل مما لك حق التصرف فيه، والمفتاح تأتي بمعنى الخزائن كما في قوله تعالى في سورة القصص {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ} وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ {٧٦}، مفاتيح جمع مفتاح وهي الخزائن، ومفاتيح جمع مفتاح.

{أَوْ صَدِيقَكُمْ} وردت بصيغة المفرد في هذه الآية، علي خلاف ما ذكر قبلها: بيوتكم، آباءكم، أمهاتكم. إلخ إلا في الصديق فقال {أَوْ صَدِيقَكُمْ} ولم يقل: أصدقائكم. ذلك لسببين أولاً: لأن كلمة صديق مثل كلمة عدو تستعمل للجمع بصيغة المفرد، كما في قوله تعالى: {فَاتَّهَمُ عَدُوٌّ لِي} [الشعراء: ٧٧]. وهو إسم جنس، كما عبر بالطفل عن الأطفال بقوله {أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ}، ثانياً: لأنهم حتى إن كانوا جماعة لا بد أن يكونوا على قلب رجل واحد، وإلا ما كانوا أصدقاء، وكذلك في حالة العداوة نقول عدو، وهم جمع؛ لأن الأعداء تجمعهم الكراهية، فكأنهم واحد. وهذه أيضاً لفظة قرآنية كريمة، وهو أن الحرج المرفوع عن الأكل في بيوت الأصدقاء الذين تجمعهم المودة التي تجعلهم كصديق واحد.

وهؤلاء المَعْدُونُونَ فِي الْآيَةِ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ أَوْ الْوِلَايَةِ أَوْ الصَّدَاقَةِ مَا يُعْتَادُ بِسَبَبِهِ النَّسَامُحُ بَيْنَهُمْ فِي الْحُضُورِ لِلْأَكْلِ بِدُونِ دَعْوَةٍ لَا يَتَحَرَّجُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ غَالِبًا.

ثم يقول سبحانه: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً} {جَمِيعاً} أي: سويّاً بعضكم مع بعض، {أَوْ أَشْتَاتاً} أو متفرقين، كُلٌّ علي حده. وهذه الجزئية من الآية تعطي تفسيراً لآخر لمعني لرفع الحرج عن الأكل في {بيوتكم} بخلاف ما ذكرناه آنفاً أن المقصود بها بيوت الأولاد، وهو أن

لبعض العادات القادمة لدي العرب وهو عدم الأكل إلا إذا كان معه أحد من باب الكرم ولكن في إفراط ، كذلك في بعض البلدان الريفية ، لا تأكل الأسرة إلا إذا اجتمعت في وجود كبيرها ، وكان هذا يسبب عننا شديدا لدي بعض أفراد الأسرة خاصة الصغار منهم ، وكذلك بعض الأنظمة العسكرية التي تحتم منع الأكل إلا جماعة بالأوامر أو بحضور القائد ، فجاءت هذه الآية بجواز الأكل متفرقين ، وإن كان المستحب الاجتماع علي الطعام إن تيسر ، ولكنه ليس بواجب وذلك لقول النبي ﷺ للرجل الذي جاء يشكو إليه أنه يأكل ولا يشبع ، فقال له النبي ﷺ (فلعلكم تأكلون متفرقين) ، قالوا : نعم ، قال (فاجتمعوا علي طعامكم ، وأذكروا اسم الله عليه ، يبارك لكم فيه) (١٧٥)

وعلي ذلك فالإجماع علي الطعام من السنن المستحبة ، لما فيه من بث المودة وجلب البركة في الطعام ، إذا كان بلا حرج ولا مشقة علي المجتمعين وَقَوْلُهُ: {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ} فقد جاءت {بُيُوتًا} نكرة في سياق الشرط لتكون عامة في كل البيوت سواءا كان بيتك أو بيت غيرك ، إذا دخلت يجب عليك إلقاء السلام ، وقوله {عَلَى أَنْفُسِكُمْ} فيه لطيفة أن جعل المؤمنين كنفس واحدة ، أو يفهم منها أنك بإلقاء السلام فكأنك سلمت علي نفسك لأنه سيرد عليك بمثلها أو أحسن منها .

وَقَوْلُهُ: {تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ} تعددت أقوال المفسرون في تفسير هذه الآية ، يقول الإمام ابن جرير الطبري بعد عرض كل الأقوال في هذه الآية [وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال معناه: فإذا دخلتم بيوتا من بيوت المسلمين، فليسلم بعضكم على بعض ، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن الله جل ثناؤه قال: (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا) ولم يخصص من ذلك بيتا دون بيت، وقال: (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) يعني: بعضكم على بعض، فكان معلوما إذ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنه معني به جميعها، مساجدها وغير مساجدها. ومعنى قوله: (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) نظير قوله: (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) . وقوله: {تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} ونصب تحية، بمعنى تحيون أنفسكم تحية من عند الله السلام تحية، فكأنه قال: فليحي بعضكم بعضا تحية من عند الله، وقد كان بعض أهل العربية يقول إنما نصبت

١٧٥ أخرجه أبو داود ، كتاب الأطعمة ، باب في الاجتماع علي الطعام رقم (٣٧٦٤) ، وابن ماجه كتاب الأطعمة ، باب الاجتماع علي الطعام رقم (٣٢٨٦)

بمعنى أمركم بها تفعلونها تحية منه، ووصف جلّ ثناؤه هذه التحية المباركة الطيبة لما فيها من الأجر الجزيل والثواب العظيم.] (١٧٦)

وَقَوْلُهُ: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فِي السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالشَّرَائِعِ الْمُتَقَنَةِ الْمُبْرَمَةِ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ يُبَيِّنُ لِعِبَادِهِ الْآيَاتِ بَيَانًا شَافِيًا، لِيَتَدَبَّرُوهَا وَيَتَعَقَّلُوهَا.

وَجُمْلَةُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ تَكْرِيرٌ لِلْجُمْلَتَيْنِ الْوَاقِعَتَيْنِ قَبْلَهَا فِي آيَةِ الْإِسْتِثْنَاءِ لِأَنَّ فِي كُلِّ مَا وَقَعَ قَبْلَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بَيَانًا لِآيَاتِ الْقُرْآنِ اتَّضَحَتْ بِهِ الْأَحْكَامُ الَّتِي تَصْمَنْتُهَا وَهُوَ بَيَانٌ يُرْجَى مَعَهُ أَنْ يَحْصُلَ لَكُمْ الْفَهْمُ وَالْعِلْمُ بِمَا فِيهِ كَمَالٌ شَائِكُمْ. وهذه الآية تتضمن جملة من الفوائد ، منها مايلي :

الأولى : بيان رحمة الله ﷺ في رفع الحرج عن من يستحقه .

الثانية : بيان أن في شرائع الإسلام يسر بما يسر الله تعالى .

الثالثة : بيان أن الأحكام المعللة بعلّة معروفة تدور مع علتها ، فإذا إنتفت العلة إنتفى الحكم ، فالرخصة للمريض حتي يبرأ ، فإذا برأ سقطت الرخصة ، وهكذا في كل حكم .

الرابعة : جواز الأكل من بيوت المذكورين في الآية بإذن وبدون إذن ، إلا إذا علم عدم رضاهم فيمتنع الأكل علي كل حال .

الخامسة : أن مال الإبن هو مال لأبيه وذلك لقول السيدة عائشة عن النبي ﷺ أنه قال (إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه وولده من كسبه) (١٧٧)

السادسة : إعتبار الشرع للعادات المحمودة والحث عليها كعادة الأكل عند أولى القربي مع التحرر من مايتحرج الناس منه في هذه العادات .

السابعة : جواز الأكل مجتمعين ومتفرقين بلا حرج ، مع إستحباب الإجتماع رجاء لزيادة التوادد والتراحم.

الثامنة : مشروعية السلام عند دخول البيوت وأن ذلك من هدي النبي ﷺ

التاسعة : التأكيد علي فضيلة السلام بأن جعله الله تحية منه ووصفها بالمباركة والطيبة ، وهذا يدل علي مدي الخسارة التي يخسرها المسلم بإستبدال تحية الإسلام بأهلا وسهلا ، أو صباح الخير أو غير ذلك.

١٧٦ تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر - ص ٢٢٧ - المكتبة الشاملة الحديثة

١٧٧ سنن النسائي كتاب البيوع ، باب الحث علي الكسب رقم (٤٤٤٩) ، سنن الترمذي رقم (١٣٨٥)

الفصل الثاني

غض البصر وحفظ الفرج

تحدثت سورة النور منذ بدايتها عن جرائم الزنا والقتل والإحصان، وحذرت من اتباع خطوات الشيطان التي تؤدي إلى هذه الجرائم، وتحدثت عن التكافؤ في الزواج، وأن الزاني للزانية، والزانية للزاني، والخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات.

وهذا منهج متكامل يضمن سلامة المجتمع والخليفة لله في أرضه، فالله تعالى يريد مجتمعاً تضيء فيه القيم السامية، مجتمعاً يخلو من وسائل المعصية والمخالفة والشحناء والبغضاء، فلو أننا طبقنا منهج الله الذي ارتضاه لنا لارتاح الجميع في ظله.

الآيات التي بين أيدينا تتحدث عن قطع الطريق علي وسيلة من الوسائل وجارحة من الجوارح التي يمكن أن توقع المسلم فيما يغضب الله ﷻ ألا وهي جارحة البصر ، ومسألة غَضِّ البصر التي يأمرنا بها الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآية هي صمام الأمان الذي يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة، ويسد الطريق دونها؛ لذلك قال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} [النور: ٣٠].

والإنسان له وسائل إدراكات متعددة، وكل جهاز إدراك له مناط: فالأذن تسمع الصوت، والأنف يشم الرائحة، واللسان للكلام، ولذوق الأطعمة، والعين لرؤية المرئيات، لكن أفتن شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس هي حاسة البصر؛ لذلك وضع الشارع الحكيم المناعة اللازمة في طرفي الرؤية في العين الباصرة وفي الشيء المبصر، فأمر المؤمنين بغض أبصارهم، وأمر المؤمنات بعدم إبداء الزينة، وهكذا جعل المناعة في كلا الطرفين.

أولاً : غَضِّ البصر

وحيث نتأمل مسألة غَضِّ البصر نجد لها جزء من معادلة ذات أربع حالات: الأولى: أن يغضَّ هو بصره ولا تبدي هي زينتها، فخطُ الفتنة مقطوع من المرسل ومن المستقبل، الثانية: أن يغضَّ هو بصره وأن تبدي هي زينتها، الثالثة: أن ينظر هو ولا تبدي هي زينتها. وليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة في هذه الحالات الثلاث فإذا توفر جانب اندام الآخر. إنما الخطر في الحالة الرابعة: وهي أن ينظر هو ولا يغضَّ بصره، وأن تتزين هي وتبدي البصر لمنع الحالة الرابعة وهي الوقوع في الزنا ، وهي أقل حالات التفاعل

زينتها، ففي هذه الحالة فقط يكون الخطر ، وقد شرع الله تعالى حكم غض البصري للإنسان.

يقول الله تعالى {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)}.

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَنْظُرُوا إِلَّا إِلَى مَا أَبَاحَ لَهُمُ النَّظَرُ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ.

وهذا التوجيه القرآني المجمل ، جاء تفصيله في الأحاديث الصحيحة ، منها ما جاء في الصحيح عن أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا بُدَّ لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا، نَتَحَدَّثُ فِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنْ أَبَيْتُمْ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ". قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرُدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ) (١٧٨) ، فجعل غض البصر هو أول حقوق الطريق .

فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ الْبَصَرُ عَلَى مُحَرَّمٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهُ سَرِيعًا، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ نَظَرَةِ الْفَجَاءَةِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي ، وَفِي رِوَايَةٍ لِبَعْضِهِمْ: فَقَالَ: "أَطْرِقْ بَصْرَكَ"، يَعْنِي: انْظُرْ إِلَى الْأَرْضِ. وَالصَّرْفُ أَعْمٌ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ إِلَى الْأَرْضِ، وَإِلَى جِهَةٍ أُخْرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (١٧٩)

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُوسَى الْفَزَارِيُّ، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ، عَنْ أَبِي رَبِيعَةَ الْإِيَادِي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَرِيدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَعَلِّي: (يَا عَلِيُّ، لَا تَتَّبِعِ النَّظَرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَ لَكَ الْآخِرَةُ) (١٨٠) وقد بدأت الآية بقول الله تعالى {قل} ، وهو أمر بالبلاغ ، مع إن رسول الله

^{١٧٨} صحيح البخاري برقم (٢٤٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٢١) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

^{١٧٩} صحيح مسلم برقم (٢١٥٩) والمسند (٣٦١/٤) وسنن أبي داود برقم (٢١٤٨) وسنن الترمذي برقم (٢٧٧٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٩٢٣٣) .

^{١٨٠} سنن أبي داود برقم (٢١٤٩) وسنن الترمذي برقم (٢٧٧٧) .

ﷺ مكلف أصلاً ببلاغ القرآن الكريم كله وذلك من قوله تعالى في سورة المائدة { يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۗ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } (٦٧) ، فهذا التخصيص ببلاغ هذه الآية كغيرها من الآيات التي صدرها الله تعالى بـ {قُلْ} للدلالة على أهمية ووجوب العناية بهذا الأمر عناية إضافية.

ثم وجه بأن يكون البلاغ بقل {للمؤمنين} ولم يكن قل للناس لأن الإيمان لدي المؤمنين هو الذي يقتضي القبول والتسليم ، ولأن المؤمنين هم الأولي بالعناية والرعاية من خالقهم وإلههم الذي يحرصون علي إمتثال أوامره. وفي ذلك أيضاً حث وحض للمؤمنين علي تقبل الأمر.

وقوله { يَغُضُّوا } أي يقصروا وينقصوا ، وقوله { مِنْ أَبْصَارِهِمْ } ، من للتبعية ، أي المطلوب قصر البصر علي ما أحل الله فقط ، وبغير "من" يمكن أن يفهم قصر البصر جميعه وهذا مستحيل عقلاً ، ولذلك كانت أحاديث الرسول ﷺ كلها تؤكد هذا المعني ، بالتحذير من النظرة الثانية ، ومن إتباع النظرة بنظرة أخرى ، وغض البصر كله دائماً جائز وليس بواجب .

وَلَمَّا كَانَ النَّظَرُ دَاعِيَةً إِلَى فَسَادِ الْقَلْبِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: "النَّظَرُ سِهَامٌ سَمَّ إِلَى الْقَلْبِ"؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ كَمَا أَمَرَ بِحِفْظِ الْأَبْصَارِ الَّتِي هِيَ بَوَاعِثُ إِلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}. وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الرئي، كما قال {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} [المعارج: ٢٩، ٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في مسند أحمد والسنن: (أَحْفَظْ عَوْرَتَكَ، إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ) (١٨١)

وفي صحيح البخاري: (مَنْ يَكْفُلْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَكْفُلْ لَهُ الْجَنَّةَ) (١٨٢) ما بين لحييه أي : لسانه ، وما بين رجليه ، أي : فرجه .

في تفسير الطبري [يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ} بالله وبك يا محمد {يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} يقول: يكفوا من نظرهم إلى ما يشتبهون النظر

^{١٨١} المسند (٥ / ٣ ، ٤) وسنن أبي داود برقم (٤٠١٧) وسنن ابن ماجه برقم

(١٩٢٠) من حديث معاوية بن حيدة، رضي الله عنه.

^{١٨٢} صحيح البخاري برقم (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد، رضي الله عنه.

إليه، مما قد نهاهم الله عن النظر إليه (وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) أن يراها من لا يحلّ له رؤيتها، بلبس ما يسترها عن أبصارهم (ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ) يقول: فإن غضها من النظر عما لا يحلّ النظر إليه، وحفظ الفرج عن أن يظهر لأبصار الناظرين؛ أطر لهم عند الله وأفضل (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) يقول: إن الله ذو خبرة بما تصنعون أيها الناس فيما أمركم به من غض أبصاركم عما أمركم بالغض عنه، وحفظ فروجكم عن إظهارها لمن نهاكم عن إظهارها له. حدثني علي بن سهل الرملي، قال: ثنا حجاج، قال: ثنا أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) قال: كل فرج ذكر حفظه في القرآن فهو من الزنا إلا هذه (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) فإنه يعني [الستر].^(١٨٣)

ثانيا : حفظ الفرج

وَالْأَمْرُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ عَقَبَ الْأَمْرِ بِالْغَضِّ مِنَ الْأَبْصَارِ لِأَنَّ النَّظَرَ رَائِدُ الزَّنى. فَلَمَّا كَانَ ذَرْيَةً لَهُ قَصَدَ الْمُتَذَرِّعُ إِلَيْهِ بِالْحِفْظِ تَنْبِيْهًا عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي غَضِّ الْأَبْصَارِ فِي مَحَاسِنِ النِّسَاءِ. فَالْمُرَادُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ حِفْظُهَا مِنْ أَنْ تُبَاشَرَ غَيْرَ مَا أَبَاحَهُ الدِّينُ.

الشرع لا يتدخل في الخواطر القلبية والهواجس، إنما يتدخل في الأعمال النزوعية التي يترتب عليها فعل، لو مررت ببستان فرأيت به ورده جميلة، فأعجبت بها وسررت وانبسظت لها أسارير نفسك، كل هذا مباح لك لا حرج عليك فيه، فإن تعدى الأمر ذلك فمددت إليها يدك لتقطفها، هنا يتدخل الشرع يقول لك: قف، فليس هذا من حقك لأنها ليست لك.

هذه قاعدة عامة في جميع الأعمال لا يستثني منها إلا النظر وحده، جعل الله تعالى هذه المسألة من أجلنا ولصالحنا نحن ولراحتنا، بل قل رحمة بنا وشفقة علينا من عواقب النظر وما يُخلفه في النفس من عذابات ووجد وأحزان .

ففي نظر الرجل إلى المرأة لا نقول له: انظر كما تحب واعشق كما شئت،

^{١٨٣} تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر - ص ١٥٤ - المكتبة الشاملة الحديثة

فإن نزعت إلى ضمة أو قبلة قلنا لك: حرام. لماذا؟ لأن الأمر هنا مختلف تماماً، فعلاقة الرجل بالمرأة لها مراحل لا تنفصل إحداها عن الأخرى أبداً. فساعة تنظر إلى المرأة هذا إدراك، فإن أعجبك وانبسبت لها أسأريك، فهذا وجدان، لا بد أن يترك في تكوينك تفاعلاً كيمياوياً لا يهدأ، إلا بأن تنزع فإن طاوغت نفسك في النزوع فقد اعتديت، وإن كبست في داخلك هذه المشاعر أصابتك بعقد نفسية ودعتك إلى أن تبحث عن وسيلة أخرى للنزوع؛ لذلك رحمك ربك من بداية الأمر ودعاك إلى منع الإدراك بغض البصر.

لذلك بعد أن أمرنا سبحانه بعض البصر قال: {وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}. [النور: ٣٠] لأنك لا تملك أن تفصل النزوع عن الوجدان، ولا الوجدان عن الإدراك، وإن أمكن ذلك في الأمور الأخرى، فحين نمنعك عن قطف الورد التي أعجبك لا يترك هذا المنع في نفسك أثراً ولا وجداً، على خلاف ما يحدث إن منعت عن امرأة أعجبك، وهيئك الوجدان إليها.

وحفظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما أحله الله وشرعه فلا أنيله لغير محلل له، سواء كان من الرجل أو من المرأة، أو: أحفظه وأصونه أن يرى؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة.

ومن بدیع النظم القرآني قول الله تعالى في الأبصار {يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} وقوله في الفروج {وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}. لأن غض البصر من باب سد الذرائع، لذلك جاء مبعضاً، ومستحباً، بخلاف حفظ الفرج فلا يمكن تبغيضه ولذلك وجب حفظه، مع ملاحظة أن حفظ الفروج جعله الله سهلاً ميسوراً بجعله في مكان حصين في جسم الإنسان ولا يمكن التفريط فيه إلا بإرادة صاحبه عكس البصر، ولذلك حفظ الفرج واجب.

ثم يقول تعالى {ذلك أذكى لهم}. {يعني: أظهر وأسلم وأدعى لراحة النفس؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرماً، ويلج في أعراض الناس، وإما ألا ينزع فيكدر نفسه ويؤلمها بالصبر على ما لا تطيق.

ثم يقول سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور: ٣٠] فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة، وليحقق بها عملية النسل

وبقاء الاستخلاف في الأرض، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملحة لزهّد الكثيرون في الزواج وفي الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات. فالمرأة تعاني من الآلام والمتاعب في مرحلة الحمل، و ترى الموت عند الولادة، وقد تقسم أنها لا تعود، لكن بعد أن ترى وليدها وتنسى آلامها سرعان ما يعاودها الحنين للإنجاب مرة أخرى، إنها الغريزة التي زرعها الله في النفس البشرية لدوام بقائها.

وللبعض نظرة فلسفية للغرائز، خاصة غريزة الجنس، حيث جعلها الله تعالى أقوى الغرائز، وربطها بلذة أكثر أثراً من لذة الطعام والشراب والشَّم والسماع. . إلخ فهي لذة تستوعب كل جوارح الإنسان وملكاته، وما ذلك إلا حرصاً على بقاء النوع ودواماً للخلافة في الأرض.

وَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزَّنى، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ. فَرَزَى الْعَيْنَيْنِ: النَّظْرُ. وَرَزَى اللِّسَانَ: النُّطْقُ. وَرَزَى الْأُذُنَيْنِ: الْإِسْتِمَاعُ. وَرَزَى الْيَدَيْنِ: الْبَطْشُ. وَرَزَى الرَّجْلَيْنِ: الْخَطْيُ. وَالنَّفْسُ تَمْنَى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكْذِبُهُ) (١٨٤)

ثم يقول الله تعالى لرسوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

ذكر هنا المقابل، فأمر النساء بما أمر به الرجال، ثم زاد عليهن مسألة الزينة ، لأن الزينة هي الأمر الزائد في خلق المرأة بالمقارنة بالرجل . وذلك من قوله في سورة الزخرف عن نشأة البنات ﴿أَوْمَن يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨٥)

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ أَي: عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ. وَلِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الْأَجَانِبِ بِشَهْوَةٍ وَلَا بِغَيْرِ شَهْوَةٍ أَصْلًا. وَاحْتِجَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ نَبْهَانَ -مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ- أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِيمُونَةَ، قَالَتْ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَهُ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا أَمَرْنَا

١٨٤ صحيح البخاري برقم (٦٣٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٧) .

بِالْحِجَابِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (اِخْتَجِبَا مِنْهُ) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا وَلَا يَعْرِفُنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "أَوْ عَمَيَاوَانِ أَنْتُمَا؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ" ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. (١٨٥)

وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى جَوَازِ نَظَرِهِنَّ إِلَى الْأَجَانِبِ بِغَيْرِ شَهْوَةٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ يَوْمَ الْعِيدِ فِي الْمَسْجِدِ، وَعَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ وَرَائِهِ، وَهُوَ يَسْتُرُهَا مِنْهُمْ حَتَّى مَلَّتْ وَرَجَعَتْ (١٨٦)

قال ابن كثير [وَقَوْلُهُ {وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ}] قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَسُفْيَانُ: عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: عَنِ الزَّهْرِيِّ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كُلُّ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقُرْآنِ يُذَكَّرُ فِيهَا حِفْظُ الْفُرُوجِ، فَهُوَ مِنَ الزَّهْرِيِّ، إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ {وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} أَلَا يَرَاهَا أَحَدٌ (١٨٧)

فالكلام في غُضِّ الْأَبْصَارِ وَحِفْظِ الْفُرُوجِ لِلنِّسَاءِ كَالْكَلَامِ فِيهِ بِالنِّسَةِ لِلرِّجَالِ ، إِلَّا الْآيَاتِ بَعْدَ أَنْ تَحَدَّثْتَ عَنْ إِسْتِحْبَابِ غُضِّ الْأَبْصَارِ وَوُجُوبِ حِفْظِ الْفُرُوجِ لِلنِّسَاءِ عَلَيَّ ، تَحَدَّثْتَ عَنْ حُكْمِ الزَّيْنَةِ لِلنِّسَاءِ ، وَقَدْ أَفْرَدْنَا الْفَصْلَ التَّالِيَ لِلْحَدِيثِ عَنْ ذَلِكَ .

١٨٥ سنن أبي داود برقم (٤١١٢) وسنن الترمذي برقم (٢٧٧٨) .

١٨٦ صحيح البخاري برقم (٤٥٤) .

١٨٧ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٤٥ - المكتبة الشاملة الحديثة

الفصل الثالث

تحصين المرأة المسلمة

في الآيات العشر الأول من سورة النور بين الله تعالى عقوبة حد الزنا وقذف المحصنات واللعان ، وهي أحكام لمعالجة المعاصي بعد إقترافها ، والآيات التي تلتها فيها تحصين للمجتمع من الوقوع في المعاصي بالتحذير من خطوات الشيطان ثم ذكر آداب الإستئذان ثم أمر الله تعالى المؤمنين بغض البصر وحفظ الفرج ، ولكي يوتي هذا الأمر ثماره ، أمر أيضا المؤمنات بنفس الأمر ، بغض البصر وحفظ الفرج .

وفيما يلي من الآيات تحصين للمرأة في ذاتها ، والتحصين المقصود هو تشييد سياج من الضوابط الأخلاقية حول المرأة المسلمة للحفاظ علي عفتها وطهارتها ، وحمايتها من الوقوع في الإثم ، او بث الفتنة، وقد شيدت آيات سورة النور هذا الحصن الأخلاقي من خلال ثلاثة توجيهات للمرأة المسلمة وهي :

أولا : الأمر بغض البصر وحفظ الفرج

ثانيا : وضع الضوابط لكشف الزينة وتحديد محارم المرأة .

ثالثا : الترغيب في الزواج والتعفف .

وقد تكلمنا عن التوجيه الأول بغض البصر وحفظ الفرج للرجال ، ونفس الكلام للنساء ، وزاد الأمر للمؤمنات بعدم إظهار زينتهن إلا بضوابط ، وهذا الأمر الزائد للمؤمنات بإعتبار أن حب النساء للزينة والتزين هو أمر فطري جبلن عليه ، لذلك جاء الشرع الإسلامي مقرا لهذه الرغبة الفطرية لدي النساء لإبداء زينتهن ، إلا انه وضع لهن الضوابط الشرعية لإبداء هذه الزينة وذلك لضمان صيانتهم والحفاظ عليهن من الوقوع في حبال الشيطان .

زينة المرأة المسلمة

وضوابط الزينة ومحارم المرأة هي الحصن الذاتي الثاني للنساء في سورة النور بعد أمرهن بغض البصر وحفظ الفرج في قوله تعالى في سورة النور: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ خَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَثُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ { (٣١) }

الآية السابقة بدأت بقوله تعالى {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} وهذه الآية بدأت بقوله تعالى {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ} بزيادة واو العطف لربط الأمر ببعضه فالمطلوب من المؤمنات كالمطلوب من المؤمنين وهو أن قال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ (وَقُلْ) يا محمد (لِلْمُؤْمِنَاتِ) من أمتك (يَغُضُّنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) عما يكره الله النظر إليه مما نهاكم عن النظر إليه (وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) يقول: ويحفظن فروجهن عن أن يراها من لا يحل له رؤيتها، بلبس ما يسترها عن أبصارهم.

وقوله: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ} يقول تعالى ذكره: ولا يظهرن للناس الذين ليسوا لهن بمحرم زينتتهن ، وقد ذكر ابن كثير في تفسيره سبب نزول الآية بقوله [وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال: بلغنا -والله أعلم- أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث: أن "أسماء بنت مرشد" كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متآزرات فيبدون ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدون صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أفبح هذا. فأنزل الله: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} الآية.

وقوله: {وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} قال سعيد بن جبیر:، عن الفواحش. وقال قتادة وسفيان: عما لا يحل لهن. وقال مقاتل:، عن الزنى. وقال أبو العالية: كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج، فهو من الزنى، إلا هذه الآية: {وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} ألا يراها أحد.

وقال: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ} إلا ما ظهر منها أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه. [(١٨٨)]

وقد اختلف العلماء في تفسير قول الله تعالى { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } إلا ما ظهر منها { اختلاف كبيراً ، ويمكن تلخيص الخلاف في نقطتين الأولى هي تحديد نوع الزينة ، والثانية هي تحديد مايجوز إبدائه منها .

بخصوص نوع الزينة فهي نوعان :

زينة خلقية : وهي المتعلقة بخلقة المرأة كوجهها ، وكفيها ، وتقسيم جسدها ، أي هي المتعلقة ببدنها
زينة مصطنعة : وهي الزينة الخارجية التي تحب أن تترين بها المرأة حبا فطريا

وَعَلَىٰ هَٰذَا الْقَوْلِ فِي الزَّيْنَةِ الْمَذْكُورَةِ الْخَارِجَةِ عَنِ بَدَنِ الْمَرْأَةِ قَوْلَانِ :
أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا الزَّيْنَةُ الَّتِي لَا يَتَضَمَّنُ إِبْدَاؤُهَا رُؤْيَا شَيْءٍ مِنَ الْبَدَنِ ؛ كَالْمَلَأَةِ
الَّتِي تَلْبَسُهَا الْمَرْأَةُ فَوْقَ الْقَمِيصِ وَالْخِمَارِ وَالْإِزَارِ .
وَالثَّانِي : أَنَّهَا الزَّيْنَةُ الَّتِي يَتَضَمَّنُ إِبْدَاؤُهَا رُؤْيَا شَيْءٍ مِنَ الْبَدَنِ كَالْكُحْلِ فِي
الْعَيْنِ وَالْحُلِيِّ . فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ رُؤْيَا الْوَجْهِ أَوْ بَعْضِهِ ، وَكَالْخِضَابِ وَالْخَاتَمِ ، فَإِنَّ
رُؤْيَاهُمَا تَسْتَلْزِمُ رُؤْيَا الْيَدِ ، وَكَالْقُرْطِ وَالْقِلَادَةِ وَالسَّوَارِ ، فَإِنَّ رُؤْيَا ذَلِكَ
تَسْتَلْزِمُ رُؤْيَا مَحَلِّهِ مِنَ الْبَدَنِ ؛ كَمَا لَا يَخْفَى .

ولحسم الخلاف في تفسير قوله تعالى { إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا } سنستعرض أقوال العلماء في ذلك ثم نبين الراجح منها .

[قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا أَي : لَا يُظْهِرْنَ شَيْئًا مِنَ الزَّيْنَةِ لِلْأَجَانِبِ ، إِلَّا مَا لَا يُمَكِّنُ إِخْفَاؤُهُ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَالرِّدَاءِ وَالثِّيَابِ ، يَعْنِي عَلَى مَا كَانَ يَتَعَاطَاهُ نِسَاءُ الْعَرَبِ مِنَ الْمُقْتَنَةِ الَّتِي تُجَلَّلُ ثِيَابَهَا ، وَمَا يَبْدُو مِنْ أَسْفَلِ الثِّيَابِ ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِيهِ لِأَنَّ هَٰذَا لَا يُمَكِّنُهَا إِخْفَاؤُهُ وَنَظِيرُهُ فِي زَيِّ النِّسَاءِ مَا يُظْهِرُ مِنْ إِزَارِهَا ، وَمَا لَا يُمَكِّنُ إِخْفَاؤُهُ ، وَقَالَ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ : الْحَسَنُ ، وَابْنُ سِيرِينَ ، وَأَبُو الْجَوَّازِ ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَغَيْرُهُمْ ، وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا قَالَ : وَجْهَهَا وَكَفَّيْهَا وَالْخَاتَمَ ، وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَمَرَ ، وَعَطَاءٍ ، وَعِكْرَمَةَ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَأَبِي الشَّعْنَاءِ ، وَالضَّحَّاكَ ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَغَيْرِهِمْ نَحْوَ ذَلِكَ . وَهَٰذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرًا لِلزَّيْنَةِ الَّتِي نُهِنَ عَنْ إِبْدَانِهَا ؛ كَمَا قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبْيَعِيُّ ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ فِي قَوْلِهِ : وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ الزَّيْنَةُ : الْقُرْطُ ، وَالْدُّمْلُوجُ ، وَالْخُلْخَالُ ، وَالْقِلَادَةُ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ بِهَٰذَا الْإِسْنَادِ ، قَالَ : الزَّيْنَةُ زَيْنَتَانِ ، فَرِيْنَةُ لَا يَرَاهَا إِلَّا الزَّوْجُ الْخَاتَمُ وَالسَّوَارُ ، وَزِيْنَةُ يَرَاهَا

الْأَجَانِبُ، وَهِيَ الظَّاهِرُ مِنَ الثِّيَابِ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: لَا يَبْدُو لَهُوْلَاءِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ مِمَّنْ لَا تَحِلُّ لَهُ إِلَّا الْأَسْوَرَةُ وَالْأَخْمَرَةُ وَالْأَقْرَطَةُ مِنْ غَيْرِ حَسَرٍ، وَأَمَّا عَامَّةُ النَّاسِ، فَلَا يَبْدُو مِنْهَا إِلَّا الْخَوَاتِمُ. وَقَالَ مَالِكٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا: الْخَاتَمُ وَالْخَلْخَالُ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ، وَمَنْ تَابَعَهُ أَرَادُوا تَفْسِيرَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا: بِالْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَيُسْتَأْنَسُ لَهُ بِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي "سُنَنِهِ": حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ كَعْبٍ الْأَنْطَاكِيُّ، وَمُؤَمِّلُ بْنُ الْفَضْلِ الْحَرَّانِيُّ، قَالَا: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ بِشِيرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ خَالِدِ بْنِ دَرِيكٍ، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رَقَاقٌ فَأَعْرَضَ عَنْهَا، وَقَالَ: (يَا أَسْمَاءُ، إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَمْ يَصْلَحْ أَنْ يَرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا)، وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفَّيْهِ، لَكِنْ قَالَ أَبُو دَاوُدَ، وَأَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ: هُوَ مُرْسَلٌ، خَالِدُ بْنُ دَرِيكٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ، اهـ كَلَامُ ابْنِ كَثِيرٍ.]^(١٨٩)

يقول الشنقيطي : [وَقَالَ الْفَرُطِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا: وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي قَدْرِ ذَلِكَ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ظَاهِرُ الزَّيْنَةِ هُوَ الثِّيَابُ، وَرَادَ ابْنُ جُبَيْرٍ: الْوَجْهُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَيْضًا، وَعَطَاءٌ، وَالْأَوْزَاعِيُّ: الْوَجْهُ وَالْكَفَّانِ وَالثِّيَابِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَالْمِسُورُ بْنُ مَخْرَمَةَ: ظَاهِرُ الزَّيْنَةِ هُوَ الْكُحْلُ وَالسَّوَارُ وَالْخُضَابُ إِلَى نِصْفِ الذِّرَاعِ وَالْقِرْطَةُ وَالْفَتْخُ وَنَحْوُ هَذَا، فَمُبَاحٌ أَنْ تُبْدِيَهُ الْمَرْأَةُ لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهَا مِنَ النَّاسِ. وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ عَنْ قَتَادَةَ فِي مَعْنَى نِصْفِ الذِّرَاعِ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرَ آخَرُ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِذَا عَرَّكَتْ أَنْ تُظْهِرَ إِلَّا وَجْهَهَا وَيَدَيْهَا إِلَى هَاهُنَا)، وَقَبِضَ عَلَى نِصْفِ الذِّرَاعِ.

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَيُظْهِرُ لِي بِحُكْمِ أَلْفَاظِ الْآيَةِ أَنَّ الْمَرْأَةَ مَأْمُورَةٌ بِأَنْ لَا تُبْدِيَ وَأَنْ تَجْتَهِدَ فِي الْإِخْفَاءِ لِكُلِّ مَا هُوَ زِينَةٌ، وَوَقَعَ الْإِسْتِثْنَاءُ فِيمَا يُظْهِرُ بِحُكْمِ ضَرُورَةٍ حَرَكَةٍ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ، أَوْ إِصْلَاحِ شَأْنٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَمَا ظَهَرَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِمَّا تُؤَدِّي إِلَيْهِ الضَّرُورَةُ فِي النِّسَاءِ، فَهُوَ الْمَعْفُوفُ عَنْهُ.

قُلْتُ: وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْغَالِبُ مِنَ الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ ظُهُورُهُمَا عَادَةً، وَعِبَادَةٌ وَذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ، فَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِثْنَاءُ رَاجِعًا إِلَيْهِمَا يَدُلُّ لِذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ثُمَّ ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ حَدِيثَ عَائِشَةَ الْمَذْكُورِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ قَرِيبًا، ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ قَالَ ابْنُ خُوَيْزَمَةَ مِنْ عُلَمَائِنَا: إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ جَمِيلَةً، وَخِيفَ مِنْ وَجْهِهَا وَكَفَّيْهَا الْفَتْنَةَ، فَعَلَيْهَا سِتْرٌ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ عَجُوزًا أَوْ مُقَبَّحَةً جَازَ أَنْ تَكْشِفَ وَجْهَهَا وَكَفَّيْهَا، اهـ محلُّ الغرض من كلام القرطبي. [١٩٠]

[وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: الزَّيْنَةُ مَا تَرَيْتِ بِهِ الْمَرْأَةِ مِنْ حُلِيِّ أَوْ كُحْلِ أَوْ خِضَابٍ، فَمَا كَانَ ظَاهِرًا مِنْهَا كَالْخَاتَمِ وَالْفَتْحَةِ وَالْكُحْلِ وَالْخِضَابِ، فَلَا بَأْسَ بِهِ، وَمَا خَفِيَ مِنْهَا كَالسِّيَّارِ، وَالْخُلْخَالِ، وَالدَّمْلُجِ، وَالْقِلَادَةِ، وَالْإِكْلِيلِ، وَالنُّوْشَاحِ، وَالْقُرْطِ، فَلَا تُبْدِيهِ إِلَّا لِهَوْلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَذَكَرَ الزَّيْنَةُ دُونَ مَوَاقِعِهَا لِلْمُبَالِغَةِ فِي الْأَمْرِ بِالنَّصُونِ وَالتَّسْتُرِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الزَّيْنَةَ وَاقِعَةٌ عَلَى مَوَاضِعَ مِنَ الْجَسَدِ لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهَا لِغَيْرِ هَوْلَاءِ، وَهِيَ الذَّرَاعُ، وَالسَّاقُ، وَالْعِصْدُ، وَالْعُنُقُ، وَالرَّأْسُ، وَالصَّدْرُ، وَالْأُذُنُ، فَنَهَى عَنْ إِبْدَاءِ الزَّيْنَةِ نَفْسَهَا لِيُعْلَمَ أَنَّ النَّظَرَ إِذَا لَمْ يَحِلَّ إِلَيْهَا لِمَلَابَسَتِهَا تِلْكَ الْمَوَاقِعَ، بِدَلِيلِ أَنَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا غَيْرُ مَلَابَسَةٍ لَهَا لَا مَقَالٍ فِي حِلِّهِ، كَانَ النَّظَرُ إِلَى الْمَوَاقِعِ أَنْفُسِهَا مُتِمِّكِنًا فِي الْحِطْرِ، ثَابِتَ الْقَدَمِ فِي الْحُرْمَةِ، شَاهِدًا عَلَى أَنَّ النِّسَاءَ حَقُّهُنَّ أَنْ يَحْتَطْنَ فِي سِتْرِهَا وَيَتَّقِينَ اللَّهَ فِي الْكَشْفِ عَنْهَا، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ. [١٩١]

[وَقَالَ صَاحِبُ «الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ»: وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَالْفَرِيَّابِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالطَّبْرَانِيُّ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ قَالَ: الزَّيْنَةُ السِّيَّارُ وَالدَّمْلُجُ وَالْخُلْخَالُ، وَالْقُرْطُ، وَالْقِلَادَةُ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا قَالَ: الثِّيَابُ وَالْجِلْبَابُ [١٩٢]

[وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: الزَّيْنَةُ زَيْنَتَانِ، زِينَةُ ظَاهِرَةٌ، وَزِينَةُ بَاطِنَةٌ لَا يَرَاهَا إِلَّا الزَّوْجُ. فَأَمَّا الزَّيْنَةُ الظَّاهِرَةُ: فَالثِّيَابُ، وَأَمَّا الزَّيْنَةُ الْبَاطِنَةُ: فَالْكُحْلُ، وَالسِّيَّارُ

١٩٠ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي - ص ٥١٢ - المكتبة الشاملة الحديثة

١٩١ نفس المصدر السابق .

١٩٢ نفس المصدر السابق .

وَالْخَاتَمَ، وَلَفَظَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَالظَّاهِرَةُ مِنْهَا الثِّيَابُ، وَمَا يَخْفَى: فَالْخُلْخَالَانِ وَالْقُرْطَانِ وَالسَّوَارِانِ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا قَالَ: الْكُحْلُ وَالْخَاتَمُ.

وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا قَالَ: الْكُحْلُ وَالْخَاتَمُ وَالْقُرْطُ وَالْقِلَادَةُ. [١٩٣]

وعلي هذا المنوال إستقصي صاحب "أضواء البيان" أكثر من خمس عشرة قولاً من أقوال العلماء في هذا الباب ، بما لا يتسع المقام لذكره ، ثم خلاص إلي قوله : [وَقَدْ رَأَيْتَ فِي هَذِهِ النُّقُولِ الْمَذْكُورَةِ عَنِ السَّلَفِ أَقْوَالَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الزَّيْنَةِ الظَّاهِرَةِ وَالزَّيْنَةِ الْبَاطِنَةِ، وَأَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ رَاجِعٌ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ ؛ كَمَا ذَكَرْنَا:

القول الأول: أَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّيْنَةِ مَا تَتَرَيَنَّ بِهِ الْمَرْأَةُ خَارِجًا عَنْ أَصْلِ خِلْقَتِهَا، وَلَا يَسْتَلْزِمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ رُؤْيَا شَيْءٍ مِنْ بَدَنِهَا ؛ كَقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَمَنْ وَافَقَهُ: إِنَّهَا ظَاهِرُ الثِّيَابِ ؛ لِأَنَّ الثِّيَابَ زِينَةٌ لَهَا خَارِجَةٌ عَنْ أَصْلِ خِلْقَتِهَا وَهِيَ ظَاهِرَةٌ بِحُكْمِ الْإِضْطِرَارِ، كَمَا تَرَى. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ عِنْدَنَا وَأَحْوْطُهَا، وَأَبْعَدُهَا مِنَ الرِّيْبَةِ وَأَسْبَابِ الْفِتْنَةِ.

القول الثاني: أَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّيْنَةِ: مَا تَتَرَيَنَّ بِهِ، وَلَيْسَ مِنْ أَصْلِ خِلْقَتِهَا أَيْضًا، لَكِنَّ النَّظَرَ إِلَى تِلْكَ الزَّيْنَةِ يَسْتَلْزِمُ رُؤْيَا شَيْءٍ مِنْ بَدَنِ الْمَرْأَةِ، وَذَلِكَ كَالْخِضَابِ وَالْكُحْلِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ النَّظَرَ إِلَى ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ رُؤْيَا الْمَوْضِعِ الْمَلْبَسِ لَهُ مِنَ الْبَدَنِ، كَمَا لَا يَخْفَى.

القول الثالث: أَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّيْنَةِ الظَّاهِرَةِ بَعْضُ بَدَنِ الْمَرْأَةِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَصْلِ خِلْقَتِهَا ؛ كَقَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِمَا ظَهَرَ مِنْهَا الْوَجْهَ وَالْكَفَّانِ، وَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَاعْلَمْ أَنَّنَا قَدَّمْنَا فِي تَرْجَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ أَنَّ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا أَنْ يَقُولَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي الْآيَةِ قَوْلًا، وَتَكُونُ فِي نَفْسِ الْآيَةِ قَرِينَةٌ دَالَّةٌ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ ذَلِكَ الْقَوْلِ، وَقَدَّمْنَا أَيْضًا فِي تَرْجَمَتِهِ أَنَّ مِنْ

أَنْوَاعِ الْبَيَانِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا أَنْ يَكُونَ الْغَالِبُ فِي الْقُرْآنِ إِرَادَةُ مَعْنَى مُعَيَّنٍ فِي اللَّفْظِ، مَعَ تَكَرُّرِ ذَلِكَ اللَّفْظِ فِي الْقُرْآنِ، فَكَوْنُ ذَلِكَ الْمَعْنَى هُوَ الْمُرَادُ مِنَ اللَّفْظِ فِي الْغَالِبِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمُرَادُ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ ؛ لِذِلَالَةِ غَلْبَةِ إِرَادَتِهِ فِي الْقُرْآنِ بِذَلِكَ اللَّفْظِ، وَذَكَرْنَا لَهُ بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ فِي التَّرْجَمَةِ.

وَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَيْنِ النَّوعَيْنِ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ لِلَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمَا فِي تَرْجَمَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ، وَمَثَلْنَا لَهُمَا بِأَمْثَلَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ كِلَاهُمَا مَوْجُودٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا.

أَمَّا الْأَوَّلُ مِنْهُمَا، فَبَيَانُهُ أَنَّ قَوْلَ مَنْ قَالَ فِي مَعْنَى: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّيْنَةِ: الْوَجْهَ وَالْكَفَّانِ مَثَلًا، تَوَجَّدَ فِي الْآيَةِ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ، وَهِيَ أَنَّ الزَّيْنَةَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، هِيَ مَا تَتَرَيَّنُ بِهِ الْمَرْأَةُ مِمَّا هُوَ خَارِجٌ عَنِ أَصْلِ خُلُقَتِهَا: كَالْحُلِيِّ، وَالْحُلْلِ. فَتَفْسِيرُ الزَّيْنَةِ بِبَعْضِ بَدَنِ الْمَرْأَةِ خِلَافَ الظَّاهِرِ، وَلَا يَجُوزُ الْحَمْلُ عَلَيْهِ، إِلَّا بِدَلِيلٍ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ، وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَ مَنْ قَالَ: الزَّيْنَةُ الظَّاهِرَةُ: الْوَجْهَ، وَالْكَفَّانِ خِلَافَ ظَاهِرِ مَعْنَى لَفْظِ الْآيَةِ، وَذَلِكَ قَرِينَةٌ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ، فَلَا يَجُوزُ الْحَمْلُ عَلَيْهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ مُنْفَصِلٍ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ.

وَأَمَّا نَوْعُ الْبَيَانِ الثَّانِي الْمَذْكُورُ، فَبَيَانُهُ: أَنَّ لَفْظَ الزَّيْنَةِ يَكْثُرُ تَكَرُّرُهُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مُرَادًا بِهِ الزَّيْنَةُ الْخَارِجَةُ عَنِ أَصْلِ الْمَزِينِ بِهَا، وَلَا يُرَادُ بِهَا بَعْضُ أَجْزَاءِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْمَزِينِ بِهَا ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ [٣١ / ٧] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ [٣٢ / ٧] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا [١٨ / ٧] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَوْتَيْنَاكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا [٢٨ / ٦٠] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ [٣٧ / ٦] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةَ الْآيَةِ [١٦ / ٨] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ الْآيَةِ [٢٨ / ٧٩] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْآيَةِ [١٨ / ٤٦] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ الْآيَةِ [٥٧ / ٢٠] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُوزَارًا مِنَ الزَّيْنَةِ [٢٠ / ٥٩] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ مُوسَى: وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُوزَارًا مِنَ زِينَةِ الْقَوْمِ [٢٠ / ٨٧] ،

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ [٣١/٢٤] ، فَلَفْظُ الزَّيْنَةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ كُلِّهَا يُرَادُ بِهِ مَا يُرَيَّنُ بِهِ الشَّيْءُ وَهُوَ لَيْسَ مِنْ أَصْلِ خِلْقَتِهِ، كَمَا تَرَى، وَكَوْنُ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْغَالِبُ فِي لَفْظِ الزَّيْنَةِ فِي الْقُرْآنِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَفْظَ الزَّيْنَةِ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ يُرَادُ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى، الَّذِي غَلَبَتْ إِرَادَتُهُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ؛ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

يَأْخُذْنَ زَيْنَتَهُنَّ أَحْسَنَ مَا تَرَى ... وَإِذَا عَطَلْنَ فَهِنَّ خَيْرُ عَوَاطِلٍ
وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّ تَفْسِيرَ الزَّيْنَةِ فِي الْآيَةِ بِالْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ، فِيهِ نَظَرٌ.

وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّيْنَةِ فِي الْقُرْآنِ مَا يُتَرَيَّنُ بِهِ مِمَّا هُوَ خَارِجٌ عَنِ أَصْلِ الْخَلْقَةِ، وَأَنَّ مَنْ فَسَّرَهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ بِهَذَا اخْتَلَفُوا عَلَى قَوْلَيْنِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ زِينَةٌ لَا يَسْتَلْزِمُ النَّظَرُ إِلَيْهَا رُؤْيَا شَيْءٍ مِنْ بَدَنِ الْمَرْأَةِ كَظَاهِرِ الثِّيَابِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ زِينَةٌ يَسْتَلْزِمُ النَّظَرُ إِلَيْهَا رُؤْيَا مَوْضِعِهَا مِنْ بَدَنِ الْمَرْأَةِ ؛ كَالْخُلِّ وَالْخِصَابِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

ثم قال : أَظْهَرَ الْقَوْلَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ عِنْدِي قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :
أَنَّ الزَّيْنَةَ الظَّاهِرَةَ هِيَ مَا لَا يَسْتَلْزِمُ النَّظَرُ إِلَيْهَا رُؤْيَا شَيْءٍ مِنْ بَدَنِ الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ هُوَ الْأَظْهَرُ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ أَحْوْطُ الْأَقْوَالِ، وَأَبْعَدُهَا عَنْ أَسْبَابِ الْفِتْنَةِ، وَأَظْهَرُهَا لِقُلُوبِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ وَجْهَ الْمَرْأَةِ هُوَ أَصْلُ جَمَالِهَا وَرُؤْيَتُهُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْإِفْتِتَانِ بِهَا ؛ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ وَالْجَارِي عَلَى قَوَاعِدِ الشَّرْعِ الْكَرِيمِ، هُوَ تَمَامُ الْمُحَافَظَةِ، وَالْإِبْتِعَادُ مِنَ الْوُقُوعِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي. [١٩٤]

وخلاصة ما ذهب إليه الشيخ الشنقيطي عليه رحمة الله ، هو الراجح لدينا في هذه المسألة ، وهو أن المقصود بقول الله تعالى { إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا } أي الثياب والزينة الخارجية المصطنعة التي لا يستلزم إظهارها ، إظهار أي جزء من بدن المرأة وذلك لعدة أسباب :

أولاً : مواقع كلمة الزينة في القرآن الكريم تدل على أنه الزينة الخارجية
ثانياً : الحديث الذي إستدل به من أباح كشف الوجه والكفين ، وهو حديث أسماء ، حديث مرسل ، أي لا يحتج به لأنه أحد رواته وهو "خالد ابن دريك"

^{١٩٤} أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي - ص ٥١٢ - المكتبة الشاملة الحديثة

لم يدرك السيدة عائشة رضي الله عنها ، وهي من نقل عنها الحديث .
ثالثا : في قول الله تعالى { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } نهي صريح عن إبداء الزينة ،
فمن باب أولى أن يكون النهي عن إبداء ما تحت الزينة .

رابعا : الضمير في {منها} يعود علي أقرب مذكور وهو الزينة ، و (من)
للتبويض ، والتبويض يجوز علي الزينة ولا يجوز علي بدن المرأة التي
ترتديها .

خامسا : حتي لو سلمنا بالرأي الذي يجيز كشف بعض مواضع الزينة من
بدن المرأة كالوجه والكفين فإن فتن العصر المستعرة من خلال وسائل
العرض الحديثة من كاميرات ، وبرامج و"فوتو شوب" وغيرها والتي تفتنت
في إستغلال كل جزء من بدن المرأة بالتكبير والتصغير والإثارة للترويج
للسلع المتعلقة به ، فالأولي والأحوط العمل بقول المانعين لظهور أي جزء
من بدن المرأة.

وكلما إستعرضنا خلاف العلماء قديما فيما يجب ظهوره من زينة المرأة ،
يعترينا الألم والحسرة للبون الشاسع بين ماأختلفوا عليه قديما ، وبين ما
أصبح عليه حال نساء المسلمين الآن من التبرج والسفور ، لدرجة جعلت
الحديث عن هذا الخلاف الآن يبدو وكأنه نوع من الترف الفكري البعيد عن
الواقع ، فدرجة التعري لدي النساء الآن جعلت ذكر هذا الخلاف لا مسوغ له
بالقياس إلي مآظهر من النساء.

أصبحت الثياب التي رجحنا القول بأنها هي الزينة الظاهرة كأنها غير
موجودة من شدة إلتصاقها بأجساد النساء ، لدرجة إظهار كل تفاصيل جسد
المرأة حتي عورتها المغلظة ، وصدق فيهن قول رسول الله ﷺ في صحيح
مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صِنْفَانِ
مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَدْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا
النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ، مَائِلَاتٌ رُغُوسُهُنَّ كَاسِنِمَةِ الْبُخْتِ
الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا
وَكَذَا» (١٩٥)

وقوله تعالى: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} الخمر: جمع خمار، وهو

١٩٥ صحيح مسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب النساء الكاسيات العاريات رقم (٢١٢٨)

غطاء الرأس الذي يُسَدَّل لِيَسْتَرِ الرقبة والصدر. الجيوب: جميع جيب، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها (القَبَّة) والمراد أن يستر الخمارُ فتحة الثوب ومنطقة الصدر، فلا يظهر منها شيء.

يقول ابن كثير [الخمر يعني: المَقَانِعُ يُعْمَلُ لَهَا صَنَفَاتُ ضَارِبَاتٍ عَلَى صُدُورِ النِّسَاءِ، لِثَوَارِي مَا تَحْتَهَا مِنْ صَدْرِهَا وَتَرَائِبِهَا؛ لِيُخَالِفْنَ شِعَارَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُنَّ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ، بَلْ كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَمُرُّ بَيْنَ الرِّجَالِ مُسَفَّحَةً بِصَدْرِهَا، لَا يَوَارِيهِ شَيْءٌ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَتْ عُنُقَهَا وَذَوَائِبَ شَعْرِهَا وَأَقْرَطَةَ آذَانِهَا. فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَسْتَتِرْنَ فِي هَيْئَاتِهِنَّ وَأَحْوَالِهِنَّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ} [الأحزاب: ٥٩] . وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} والخمر: جَمْعُ خِمَارٍ، وَهُوَ مَا يُخْمَرُ بِهِ، أَيُّ: يُعْطَى بِهِ الرَّأْسُ، وَهِيَ الَّتِي تُسَمِّيهِمَا النَّاسُ الْمَقَانِعَ.] (١٩٦)

في صحيح البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها قَوْلُ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} : أَخَذَنَ أُرْزَهْنَ فَشَقَّقَتْهَا مِنْ قَبْلِ الْحَوَاشِي، فَأَخْتَمَرْنَ بِهَا. (١٩٧)

والعجيب أن النساء تركن هذا الواجب، بل ومن المفارقات أنهن يلبسن القلائد ويُعَلِّقْنَ بِهَا المصحف الشريف، إنه تناقض عجيب يدل على عدم الوعي وعدم الدراية بشرع الله مُنْزِلِ هَذَا المصحف، وشتان الفارق بين الصورة التي رسمها القرآن الكريم للمرأة بحجابها ، وبين الصور المتهتكة الكاشفة للعورات التي نراها علي الشاشات ، وفي الشوارع جهارا نهارا .

وتأمل دقة التعبير القرآني في قوله تعالى {وَلْيَضْرِبْنَ} والضرب هو: الْوَقْعُ بشدة، فليس المراد أن تضع المرأة غطاء رأسها وتتركه هكذا للهواء، إنما عليها أَنْ تُحْكِمَهَا عَلَى رَأْسِهَا وَصَدْرِهَا وَتَرْبِطَهَا بِأَحْكَامٍ.

وهيئة حجاب المرأة المبينة في هذه الآية هي إستكمال وتأكيد لهيئة وصورة الحجاب الواردة في آية سورة الأحزاب في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ } (٥٩)، وكما

^{١٩٦} تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٤٦ - المكتبة الشاملة الحديثة

^{١٩٧} صحيح البخاري برقم (٤٧٥٩) .

بدأت آية الحجاب في سورة النور بقوله { قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ } بدأت آية الحجاب في سورة الأحزاب بقوله { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ } مما يدل علي عظم شأن الحجاب في الإسلام بدليل تخصيص الأمر بالبلاغ بشأنه مرتين للنبي ﷺ.

محارم المرأة المسلمة

ثم يقول تعالى مبينا المحارم : {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَيْ: أزواجهن؛ لأن الزينة جُعِلَتْ من أجلهم {أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ} أبو الزوج، إلا أن يخاف منه الفتنة، فلا تبدي الزوجة زينتها أمامه.

وفي قوله تعالى: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} إستثناء لبعض الزينة التي يمكن أن تبديها ، وقوله تعالى : {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ} إستثناء للمحارم الذين يمكن إبداء الزينة أمامهم بدعا من الزوج تكرار كلمة {زِينَتَهُنَّ} يثيرسؤالا هل الزينة في المقطعين واحدة ، أي الزينة المستثناة من الإخفاء ، هي نفسها الزينة التي أجاز إبدائها أمام المحارم؟؟ هناك احتمالا لاجابة علي هذا السؤال .

الإحتمال الأول نعم الزينة واحدة ، والتكرار يعني تخصيص الحكم العام فيما يمكن كشفه من الزينه بشكل عام ، يمكن كشفه أيضا للمحارم بشكل خاص ، وهذا الإحتمال غير مستساغ لأن الزينة التي أجاز كشفها أمام العامة ، كشفها أمام المحارم وعلي رأسهم الزوج أولي دون الحاجة للنص علي ذلك وبذلك يكون لاقيمة لتخصيص المحارم في الحكم وتبقي المرأة علي ماهي عليه أمام العامة كما هي أمام محارمها .

والإحتمال الثاني : أن تكون الزينة- زينتان ولايوجد تكرار ، فالزينة الأولى هي الزينة الظاهرة كالثياب علي مارجحناه من أقوال العلماء أو مالا يمكن إخفاؤه منها ، أما الزينة الثانية التي رخص في كشفها للمحارم فهي الزينة الخفية التي تحتاج المرأة للتخفف مما تسترها به من الثياب في بيتها ، وفيها الوجه والكفين ويمكن أن تكشف شعرها ، والثياب الداخلية وغير ذلك مما لا يعوق النساء عن الحركة في بيوتهن ، ومن البديهي أن تكون تختلف درجات كشف الزينة علي المحارم ، بنفس الترتيب الوارد في الآية ، فالآية ذكرت إثني عشر محرما من محارم الزوجة علي رأسهم الزوج ، فلاشك أن للزوج أن يري من زوجته كل شئ في مخدعهما ، أما دخوله هنا مع باقي

المحارم لأن الحديث عن زينة المرأة في حياتها العامة .
ويمكن أن نستنبط من هذه الآية أن لحركة المرأة في الحياة ثلاثة مواضع
في كل موضع منهم للمرأة زينة خاصة به وهذه المواضع كما يلي :
الموضع الأول : المرأة في الشارع وفي الأماكن العامة ، وحيثما وجد رجال
أجانب عنها (غير محارم) وفي هذا المواضع ، زينة المرأة يجب ألا يظهر
منها إلا مالا يمكن إخفاؤه كالثياب ، والثياب يجب أن تكون واسعة فضفاضة
لا تشف ، ولا تصف .

الموضع الثاني : المرأة في بيتها مع عدم وجود رجال أجانب عنها (غير
محارم) ولها إظهار بعض الزينة الخفية والتخفف من ثيابها إلي مافوق
العورة دون إبتذال أو تكسر أو خضوع في القول أمام محارمها فقط ويحرم
ذلك عند وجود غير المحارم الإثني عشرة المذكورين في الآية وخاصة
أقارب الزوج والأطفال الذين لم يبلغوا سن الإدراك - لهم حكم خاص ، فيباح
لهم مالا يباح لغيرهم كما سيأتي بيانه .

ودرجة كشف الزينة أمام محارم الزوجة تختلف من شخص لآخر ، فما
يكشف أمام أبي الزوجة يختلف عما يكشف أمام حماها ، وما يكشف أمام
أختها ليس كالذي يجوز كشفه أمام أخيها ، وهكذا في سائر المحارم لكل
منهم حكمه ، والضابط فيما يكشف أمام المحارم يعود لما جرت عليه العادة
فيما تحتاجه النساء من كشف للزينة ويؤمن معه الفتنة وقد توسع علماء
الفقه في ذلك ، وفي تحديد المحارم من الرضاع وليس هنا مجال ذكره .

الموضع الثالث : المرأة في مخدعها الذي يجمعها مع زوجها فقط ، ليس
لزينتها ضوابط في هذا الموضع ، لها أن تتزين بما شاءت ، بل التزين
لزوجها بما يحب واجب عليها وله أن يري منها مايشاء بلا حرج وباب
التحريم في الزينة والدخول علي المرأة يختلف عن حكم التوريث.

وَقَوْلُهُ: {أَوْ نِسَائِهِنَّ} يَعْنِي: تُظْهِرُ زِينَتَهَا أَيْضًا لِلنِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ دُونَ نِسَاءِ
أَهْلِ الذِّمَّةِ؛ لِئَلَّا تُصَفِّهَنَّ لِرِجَالِهِنَّ، وَذَلِكَ -وَأِنْ كَانَ مَحْذُورًا فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ-
إِلَّا أَنَّهُ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَشَدُّ، فَإِنَّهُنَّ لَا يَمْنَعُهُنَّ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ، وَأَمَّا
الْمُسْلِمَةُ فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فَتَنْزَجِرُ عَنْهُ. وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَا

تُبَاشِرُ الْمَرَأَةَ الْمَرَأَةَ، تَتَعْتَهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ (١٩٨)

ومعنى {أَوْ نِسَائِهِنَّ} أي: النساء اللاتي يعملن معها في البيت كالوصيفات والخادِمات {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} والمراد هنا أيضاً ملكَ اليمين من النساء دون الرجال.

ويشترط في هؤلاء النساء أن يكنَّ مسلمات، فإن كُنَّ كافرات كهؤلاء اللاتي يستقدمونهن من دول أخرى، فلا يجوز للمرأة أن تُبدي زينتها أمامهن، وأن تعتبرهن في هذه المسألة كالرجال، لأنهن غير مسلمات وغير مؤتمنات على المسلمة، وربما ذهبت فوصفت ما رأت من سيدتها للرجل الكافر فينشغل بها.

قال ابن كثير [وقوله: {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : يَعْنِي: مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَيَجُوزُ لَهَا أَنْ تُظْهَرَ زَيْنَتَهَا لَهَا وَإِنْ كَانَتْ مُشْرِكَةً؛ لِأَنَّهَا أَمَتْهَا. وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ. وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ: بَلْ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تُظْهَرَ عَلَى رَقِيقِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَاسْتَدْلُوا بِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عِيْسَى، حَدَّثَنَا أَبُو جَمِيعٍ سَالِمُ بْنُ دِينَارٍ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى فَاطِمَةَ بِعَبْدٍ قَدْ وَهَبَهُ لَهَا. قَالَ: وَعَلَى فَاطِمَةَ ثَوْبٌ إِذَا قَنَعَتْ بِهِ رَأْسَهَا لَمْ يَبْلُغْ رَجُلِيهَا، وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رَجُلِيهَا لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَهَا، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا تَلَقَّى قَالَ: (إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ، إِنَّمَا هُوَ أَبُوكَ وَغُلَامُكَ) (١٩٩)، وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ نُبَهَانَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، ذَكَرَتْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِذَا كَانَ لِإِحْدَاكُنَّ مَكَاتِبَ، وَكَانَ لَهُ مَا يُؤَدِّي، فَلْتَحْتَجِبْ مِنْهُ) (٢٠٠)

آداب الدخول على النساء

وقوله: {أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ} يَعْنِي: كَالْأَجْرَاءِ وَالْإِتْبَاعِ النِّسَاءِ وَلَا يَشْتَهُونَهُنَّ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الْمُغْفَلُ الَّذِي لَا شَهْوَةَ لَهُ. وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّ مُحَنَّتًا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانُوا يَدْعُونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي

١٩٨ صحيح البخاري برقم (٥٢٤١)

١٩٩ سنن أبي داود برقم (٤١٠٦).

٢٠٠ المسند (٢٨٩/٦) وسنن أبي داود برقم (٣٩٢٨).

الإربة، فدخل النبي ﷺ وَهُوَ يَنْتِ امْرَأَةً: يَقُولُ إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلْتُ بِأَرْبَعٍ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرْتُ بِثَمَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "أَلَا أَرَى هَذَا يَعْلَمُ مَا هَاهُنَا، لَا يَدْخُلْنَ عَلَيْكَ" فَأَخْرَجَهُ، فَكَانَ بِالْبَيْدَاءِ يَدْخُلُ يَوْمَ كُلِّ جُمُعَةٍ يَسْتَطِيعُ (٢٠١) وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْأَيْلَةُ. [٢٠٢]

وَقَوْلُهُ: {أَوِ الْطِفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} يَعْنِي: لَصِغَرِهِمْ لَا يَفْهَمُونَ أَحْوَالَ النِّسَاءِ وَعَوْرَاتِهِنَّ مِنْ كَلَامِهِنَّ الرَّخِيمِ، وَتَعَطُّفِهِنَّ فِي الْمَشْيَةِ وَحَرَكَاتِهِنَّ، فَإِذَا كَانَ الطِّفْلُ صَغِيرًا لَا يَفْهَمُ ذَلِكَ، فَلَا بَأْسَ بِدُخُولِهِ عَلَى النِّسَاءِ. فَأَمَّا إِنْ كَانَ مُرَاهِقًا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ، بِحَيْثُ يَعْرِفُ ذَلِكَ وَيَدْرِيه، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّوَاهِدِ وَالْحَسَنَاءِ، فَلَا يُمْكِنُ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى النِّسَاءِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (إِيَّاكُمْ وَالِدُخُولِ عَلَى النِّسَاءِ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمُو؟ قَالَ: (الْحَمُو الْمَوْتُ) (٢٠٣)

وَقَوْلُهُ: {وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ} كَانَتْ الْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَتْ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَفِي رَجُلِهَا خُلْخَالٌ صَامِتٌ - لَا يَسْمَعُ صَوْتُهُ - ضَرَبَتْ بِرِجْلِهَا الْأَرْضَ، فَيَعْلَمُ الرِّجَالُ طَنِينَهُ، فَهَيَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ زِينَتِهَا مَسْتُورًا، فَتَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ لِنَظَرِ مَا هُوَ خَفِيٌّ، دَخَلَ فِي هَذَا النَّهْيِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ} : وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهَا تَنْهَى عَنِ التَّعَطُّرِ وَالتَّطْيِيبِ عِنْدَ خُرُوجِهَا مِنْ بَيْتِهَا لِيَسْتَمَّ الرِّجَالُ طَبِيبَهَا، فَقَدْ قَالَ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ: عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا) يَعْنِي زَانِيَةٌ (٢٠٤)

وهذا الجزء من الآية يكشف ألاعيب النساء وحيلهن في جذب الأنظار، فإذا لم يلفتك إليها النظر لفتك الصوت الذي تحدثه بمشيتها كأنها تقول لك: اسمع، وأنتبه، وأنظر، وفي الماضي كنَّ يلبسن الخُلْخَال الذي يُحْدِثُ مِثْلَ هَذَا الصَّوْتِ أَثْنَاءَ الْمَشْيِ، وَأَوَّلَ مَنْ اسْتَعْدَمَ هَذِهِ الْحِيلَ الرَّاقِصَاتِ لِيَجْذِبْنَ

٢٠١ صحيح مسلم برقم (٢١٨١) وزيادة: "فأخرجته، فكان بالبيداء يدخل كل يوم جمعة.... الحديث"

أخرجها أبو داود في السنن برقم (٤١٠٩) من طريق الزهري، به، وليست في صحيح مسلم.

٢٠٢ تفسير ابن كثير ت سلامة ص ٤٨ - المكتبة الشاملة الحديثة

٢٠٣ صحيح البخاري كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة رقم (٥٢٣٢)، صحيح مسلم رقم (٢١٧٢)

٢٠٤ سنن الترمذي برقم (٢٧٨٦).

إليه الأنظار. وفي أيامنا التي نحيها إختفي الخلخال وظهرت أحذية ذات كعوب عالية ، وصلبة تحدث رنين كرنين الخلاخيل القديمة عند مشي المرأة العاملة في الطرقات المبلطة فيعلم بمرورها ، فضلا عن أحذية أخرى بأشكال ملفتة للنظر ، ملبوسة علي سيقان عارية لتلفت النظر لها ، أي أصبحت الصورة أسوأ من صورة الخلخال التي حذر الله تعالى منها والله المستعان.

ولا يجب الربط بين حكم الزينة والحجاب والمحارم ، فلكل منها حكم منفصل غير مربوط بالآخر ، فالحجاب مفروض في سورة الأحزاب بعد غزوة الأحزاب وبعد زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش ، والزينة وردت في سورة النور في سياق الأمر بالعفة وحفظ الفروج ، والتزكية والتطهير ، والرابط بين الحجاب والزينة هو في كون الحجاب يجب أن يكون ساترا للزينة ، ولكن عدم وجود الزينة لايعني رفع الحجاب ، وحكم المحارم موجود بلا إرتباط بوجود الزينة أو الحجاب من عدمهما . والتفصيل في العلاقة بين الأحكام الثلاثة له تفريعات كثيرة مكانها كتب الفقه .

ومعلوم أن طريقة مَشْيِ المرأة تُبدي الكثير من زينة المرأة التي لا يراها الناس، وتُسبب كثيراً من الفتنة؛ وكذلك صوتها ، لذلك يقول تعالى في سورة الأحزاب { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا } (٣٢) { مع أن يجب علي المرأة التزين لزوجها بصوتها وصورتها ومشيتها ، وبكل ماوهبها الله من صفات يرغب فيها الرجل . وفي ختام هذه المسائل: {وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون} .

وَقَوْلُهُ: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أَي: افْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَلِيلَةِ، وَاتْرَكُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ، فَإِنَّ الْفَلَاحَ كُلَّ الْفَلَاحِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَعَان .

قال الغزالي في كتاب التوبة من الإحياء: إن الإنسان من حيث جبل على النقص لا يخلو عما يوجب عليه التوبة، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب، فإن خلا عنه فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة.

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْأَدَابِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَكَانَ التَّقْصِيرُ فِي امْتِثَالِ تِلْكَ الْأَوَامِرِ قَدْ يَحْصُلُ عِلْمُ خُلُقِهِ مَا يَتَذَارَكُونَ بِهِ، مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي امْتِثَالِ الْأَمْرِ، وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّوْبَةِ، وَهِيَ الرَّجُوعُ عَنِ الذَّنْبِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنْهُ، وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَرْكَانٍ:

الْأَوَّلُ: الْإِقْلَاعُ عَنِ الذَّنْبِ إِنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا بِهِ.

وَالثَّانِي: النَّدَمُ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ.

وَالثَّالِثُ: النَّيَّةُ أَلَّا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ أَبَدًا، وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا الظَّاهِرُ أَنَّهُ لِلْوُجُوبِ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَالتَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ، مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ اقْتَرَفَهُ، وَتَأْخِيرُهَا لَا يَجُوزُ فَتَجِبُ مِنْهُ التَّوْبَةُ أَيْضًا.

وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَمْرِهِ - جَلَّ وَعَلَا - لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّوْبَةِ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّهَا تُوَدِّي إِلَى فَلَاحِهِمْ فِي قَوْلِهِ: لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ أَوْضَحَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَبَيَّنَ أَنَّ التَّوْبَةَ الَّتِي يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الذُّنُوبَ، وَيَكْفِّرُ بِهَا السَّيِّئَاتِ، أَنَّهَا التَّوْبَةُ النَّصُوحُ، وَبَيَّنَ أَنَّهَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ، وَدُخُولُ الْجَنَّةِ.

وَمِنَ الْآيَاتِ الَّتِي بَيَّنَّتْ هَذَا الْمَعْنَى هُنَا، قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} (٨)

وَقَوْلُهُ فِي آيَةِ «التَّحْرِيمِ»: تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا مُوَضِّحَ لِقَوْلِهِ فِي «النُّورِ»: وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا وَنِدَاؤُهُ لَهُمْ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ فِي الْآيَتَيْنِ فِيهِ تَهْيِيجٌ لَهُمْ، وَحَثٌّ عَلَى امْتِثَالِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ الْإِتِّصَافَ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ بِمَعْنَاهُ الصَّحِيحِ، يَفْتَضِي الْمُسَارَعَةَ إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَالرَّجَاءُ الْمَفْهُومُ مِنْ لَفْظَةِ عَسَى فِي آيَةِ «التَّحْرِيمِ»، هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ لَفْظَةِ لَعَلَّ فِي آيَةِ «النُّورِ»، كَمَا لَا يَخْفَى

التَّوْبَةُ النَّصُوحُ: هِيَ التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ. وَحَاصِلُهَا أَنَّ يَأْتِي بِأَرْكَانِهَا الثَّلَاثَةِ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ، بِأَنْ يُقْلَعَ عَنِ الذَّنْبِ إِنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا بِهِ، وَيَنْدَمَ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ رَبِّهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَيَنْوِي نِيَّةً جَازِمَةً أَلَّا يَعُودَ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ أَبَدًا.

يقول الشنقيطي [وَأَظْهَرَ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ إِنْ تَابَ تَوْبَةً نَّصُوحًا وَكَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ بِتِلْكَ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الذَّنْبِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ تَوْبَتَهُ الْأُولَى الْوَاقِعَةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ لَا يُبْطِلُهَا الرَّجُوعُ إِلَى الذَّنْبِ، بَلْ تَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْ جَدِيدٍ لِدُنْبِهِ الْجَدِيدِ خِلَافًا لِمَنْ قَالَ: إِنْ عَوَدَهُ لِلذَّنْبِ نَقَضَ لِتَوْبَتِهِ الْأُولَى.

الثاني: اعْلَمْ أَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي أَنَّهُ لَا تَصِحُّ تَوْبَةٌ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا بِالنَّدَمِ عَلَى فِعْلِ الذَّنْبِ، وَالْإِقْلَاعِ عَنْهُ، إِنْ كَانَ مُلْتَمِسًا بِهِ كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّهَا مِنْ أَرْكَانِ التَّوْبَةِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِيهِ إِشْكَالٌ مَعْرُوفٌ، وَإِبْضَاحُهُ فِي الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ النَّدَمُ أَنَّ النَّدَمَ لَيْسَ فِعْلًا، وَإِنَّمَا هُوَ انْفِعَالٌ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي أَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ أَحَدًا إِلَّا بِفِعْلٍ يَقَعُ بِاخْتِيَارِ الْمُكَلَّفِ، وَلَا يُكَلِّفُ أَحَدًا بِشَيْءٍ إِلَّا شَيْنًا هُوَ فِي طَاقَتِهِ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿البقرة ٢٨٦﴾، وَقَالَ تَعَالَى: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿التغابن ١٦﴾.

وَإِذَا عَرَفْتَ كَلَامَ أَهْلِ الْأَصُولِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَاعْلَمْ أَنَّ التَّوْبَةَ تَجِبُ كِتَابًا وَسُنَّةً وَإِجْمَاعًا مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ اقْتَرَفَهُ الْإِنْسَانُ قَوْرًا، وَأَنَّ النَّدَمَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهَا، وَرُكْنُ الْوَاجِبِ وَاجِبٌ، وَالنَّدَمُ لَيْسَ بِفِعْلٍ، وَلَيْسَ بِاسْتِطَاعَةِ الْمُكَلَّفِ ؛ لِأَنَّهُ انْفِعَالٌ لَا فِعْلٌ، وَالْانْفِعَالَاتُ لَيْسَتْ بِالْاخْتِيَارِ، فَمَا وَجَّهَ التَّكْلِيفُ بِالنَّدَمِ، وَهُوَ غَيْرُ فِعْلٍ لِلْمُكَلَّفِ، وَلَا مَقْدُورٌ عَلَيْهِ.

وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ: هُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّكْلِيفِ بِالنَّدَمِ التَّكْلِيفُ بِأَسْبَابِهِ الَّتِي يُوْجَدُ بِهَا، وَهِيَ فِي طَوْقِ الْمُكَلَّفِ، فَلَوْ رَاجَعَ صَاحِبُ الْمَعْصِيَةِ نَفْسَهُ مُرَاجَعَةً صَحِيحَةً، وَلَمْ يُحَاطَ بِهَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ لَعَلِمَ أَنَّ لَذَّةَ الْمَعَاصِي كَلْدَةُ الشَّرَابِ الْخُلُو الَّذِي فِيهِ السُّمُّ الْقَاتِلُ، وَالشَّرَابُ الَّذِي فِيهِ السُّمُّ الْقَاتِلُ لَا يَسْتَلِذُّهُ عَاقِلٌ لِمَا يَتَّبِعُ لَذَّتَهُ مِنْ عَظِيمِ الضَّرَرِ، وَحَلَاوَةِ الْمَعَاصِي فِيهَا مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ السُّمِّ الْقَاتِلِ، وَهُوَ مَا تَسْتَلْزِمُهُ مَعْصِيَةُ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - مِنْ سَخَطِهِ عَلَى الْعَاصِي، وَتَعَذُّبِهِ لَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَعِقَابِهِ عَلَى الْمَعَاصِي قَدْ يَأْتِيهِ فِي الدُّنْيَا فِيهِلْكُهُ، وَيُنْعَصُ عَلَيْهِ لَذَّةُ الْحَيَاةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ جَعَلَ أَسْبَابَ النَّدَمِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَسِيلَةً إِلَى النَّدَمِ، أَنَّهُ يَتَوَصَّلُ إِلَى حُصُولِ النَّدَمِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، بِسَبَبِ اسْتِعْمَالِهِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا.

فَالْحَاصِلُ أَنَّهُ مُكَلَّفٌ بِالْأَسْبَابِ الْمُسْتَوْجِبَةِ لِلنَّدَمِ، وَأَنَّهُ إِنْ اسْتَعْمَلَهَا حَصَلَ لَهُ

النَّدَمُ، وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ كَانَ مُكَلَّفًا بِالنَّدَمِ، مَعَ أَنَّهُ انْفِعَالٌ لَا فِعْلٌ.] (٢٠٥)

وفي هذه الآيات جملة من الفوائد نعرضها فيما يلي:

الأولي : وجوب غض البصر عن ما حرم الله علي الرجال والنساء
الثانية : مراعاة الشرع أن حب المرأة للزينة أمر فطري ، فجعل لها ضوابط لإظهارها حتي لا يمنعها.

الثالثة : حدد الإسلام للمرأة المحارم الذين يجوز لها التحرر من ستر بعض زينتها أمامهم ، بسبب كثرة مخالطتها لهم لصلة الدم أو المصاهرة ، وهؤلاء المحارم هم من يحرم عليها نكاحهم علي التأييد بالإضافة إلي زوجها.

الرابعة : الزينة زينتان ، زينة خارجية ظاهرة مكتسبة بمواد وأدوات صناعية مع الثياب ، وزينة خلقية خفية من صنع الله تعالي وهي الجمال الذي تتفاضل به النساء وأحد عوامل نكاحهن كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ (تنكح المرأة لأربع لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فأظفر بذات الدين تربت يداك) (٢٠٦) وهذه الزينة الخفية هي ما يجب علي المرأة ستره عن الجميع فيما عدا المحارم.

الخامسة : من الزينة المحرمة علي المرأة ، النمص ، والوشم ، ووصل الشعر ، صبغ الشعر بالسواد وتفلج الأسنان بغرض التجميل ، وبياح لها غير ذلك من الزينة بشرط عدم قصد التدليس علي الخاطب أو التشبه بالكافرات .

السادسة : ابيح النظر في بعض المواضع ، كالخطبة ، وللتحقيق والتعرف علي الشخصية ، والشهادة ، وللحالات الضرورية في العلاج والتداوي لدي الأطباء ، ومواضع أخرى مفصلة في كتب الفقه.

السابعة : تحريم خروج المرأة متعطرة

السابعة : وجوب تجديد التوبة في كل حال لأن الله تعالي يحب التوابين .

٢٠٥ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - ص ٥٢٨ - المكتبة الشاملة الحديثة

٢٠٦ صحيح البخاري ، كتاب النكاح باب الأكفاء في الدين رقم (٥٠٩٠) ، صحيح مسلم رقم (١٤٦٦)

الحث علي الزواج

وننتقل إلي الآيات التي تتضمن وسيلة التحصين الثالثة للمرأة المسلمة في سورة النور وهي الترغيب في الزواج ، وذلك من قول الله تعالى في سورة النور {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلَيْسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنَ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) }

أُرِدِفْتُ أَوْامِرَ الْعُقَافِ بِالْإِرْشَادِ إِلَى مَا يُعِينُ عَلَيْهِ، وَيَعْفُ نُفُوسَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَيَغُضُّ مِنْ أَبْصَارِهِمْ، فَأَمَرَ الْأَوْلِيَاءَ بِأَنْ يَزَوِّجُوا أَيْمَانَهُمْ وَلَا يَتْرَكُوهُنَّ مُتَأَيَّمَاتٍ لِأَنَّ ذَلِكَ أَعَفَّ لَهُنَّ وَلِلرِّجَالِ الَّذِينَ يَتَزَوَّجُونَهُنَّ. وَأَمَرَ السَّادَةَ بِتَزْوِيجِ عِبِيدِهِمْ وَإِمَائِهِمْ. وَهَذَا وَسِيلَةٌ لِإِبْطَالِ الْبِغَاءِ كَمَا سَيَتَّبِعُ بِهِ فِي آخِرِ الْآيَةِ.

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمُبِينَةُ عَلَى جُمْلٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ، وَالْأَوْامِرِ الْمُبْرَمَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ} : هَذَا أَمْرٌ بِالتَّزْوِيجِ. وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وَجُوبِهِ، عَلَى كُلِّ مَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ. وَاحْتَجُّوا بِظَاهِرِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ) أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ (٢٠٧)

وَجَاءَ فِي السُّنَنِ -مِنْ غَيْرِ وَجْهِ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (تَزَوَّجُوا، تَوَالِدُوا، تَنَاسَلُوا، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٢٠٨) وَفِي رِوَايَةٍ: "حَتَّى بِالسَّقَطِ". قِرَاءَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى {وَأَنْكِحُوا} يَجِبُ التَّأَكِيدُ فِيهِ عَلَى إِظْهَارِ الْهَمْزَةِ لِكَيْ يَصْبَحَ الْمَعْنَى "زَوِّجُوا" أَيْ أَمْرٌ بِالتَّزْوِيجِ وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ ، أَمَا الْقِرَاءَةُ

٢٠٧ صحيح البخاري برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) .

٢٠٨ سنن أبي داود برقم (٢٠٥٠) وسنن النسائي (٦٥/٦) .

بإخفاء الهمز يصبح المعني "تزوجوا" وهو بعيد عن المعني المقصود من الآية.

يقول ابن كثير [الأيامى: جَمْعُ أَيْمٍ، وَيُقَالُ ذَلِكَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا، وَلِلرَّجُلِ الَّذِي لَا زَوْجَةَ لَهُ. وَسَوَاءٌ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ ثُمَّ فَارَقَ، أَوْ لَمْ يَتَزَوَّجْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، حَكَاهُ الْجَوْهَرِيُّ عَنْ أَهْلِ اللُّغَةِ، يُقَالُ: رَجُلٌ أَيْمٌ وَامْرَأَةٌ أَيْمٌ أَيْضًا.

وَعَنِ اللَّيْثِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجَلَانَ، عَنْ سَعِيدِ الْمُقْبَرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُم: النَّاسِخُ يُرِيدُ الْعَفَافَ، وَالْمَكَاتِبُ يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالْعَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ (٢٠٩) [انتهى (٢١٠)

وَمَعْنَى التَّبْعِيضِ فِي قَوْلِهِ {مِنْكُمْ} أَنَّهُنَّ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ لِأَنَّ غَيْرَ الْمُسْلِمَاتِ لَا يَخْلُونَّ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْ يَكُنَّ أَزْوَاجًا لِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فَلَا عِلَاقَةَ لِلْآيَةِ بِهِنَّ، أَوْ أَنْ يَكُنَّ مَمْلُوكَاتٍ فَهُنَّ دَاخِلَاتٌ فِي قَوْلِهِ: وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَانِكُمْ عَلَى الْإِحْتِمَالَاتِ الْآتِيَةِ فِي مَعْنَى الصَّالِحِينَ وَأَمَّا غَيْرُهُنَّ فَوَلَايَتُهُنَّ لِأَهْلِ مِلَّتِهِنَّ.

وَالْمَقْصُودُ: الْآيَامَى الْحَرَائِرُ، خَصَّصَهُ قَوْلُهُ بَعْدَهُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَانِكُمْ. وَظَاهِرُ وَصْفِ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ بِالصَّالِحِينَ أَنَّ الْمُرَادَ اتِّصَافَهُمْ بِالصَّلَاحِ الدِّينِيِّ.

وقد اختلف العلماء في الأحكام المستنبطة من هذه الآية، يقول الشنقيطي [فَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَأَنْكِحُوا الْآيَامَى شَامِلٌ لِلذَّكَورِ وَالْإِنَاثِ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مِنْكُمْ أَيُّ: مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُفْهَمُ مِنْ دَلِيلِ الْخُطَابِ أَيُّ مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ فِي قَوْلِهِ: مِنْكُمْ أَنَّ الْآيَامَى مِنْ غَيْرِكُمْ، أَيُّ: مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ الْكُفَّارُ لَيْسُوا كَذَلِكَ .

وَهَذَا الْمَفْهُومُ الَّذِي فَهِمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي آيَاتٍ أُخَرَ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آيَامَى الْكُفَّارِ الذَّكَورِ: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا} [البقرة: ٢٢١] ، وَقَوْلُهُ فِي آيَامَاهُمُ الْإِنَاثِ: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى

٢٠٩ المسند (٢٥١/٢) وسنن الترمذي برقم (١٦٥٥) وسنن النسائي (٦١/٦) وسنن ابن ماجه برقم

(٢٥١٨) .

١١٠ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٢١٦ - المكتبة الشاملة الحديثة

{يُؤْمِنَنَّ} [البقرة: ٢٢١] ، وَقَوْلُهُ فِيهِمَا جَمِيعًا: {فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} [المتحنة: ١٠].
وبهذه النصوص القرآنية الصريحة الموضحة لمفهوم هذه الآية، تعلم أنه لا يجوز تزويج المسلمة للكافر مطلقاً وأنه لا يجوز تزويج المسلم للكافرة إلا أن عموم هذه الآيات خصصته آية «المائدة» ، فأبانت أن المسلم يجوز له تزوج المحصنة الكتابية خاصة؛ وذلك في قوله تعالى: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [المائدة: ٥] ، فقوله تعالى عاطفاً على ما يحل للمسلمين: وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ صريح في إباحة تزويج المسلم للمحصنة الكتابية، والظاهر أنها الحرة العفيفة.
فالحاصل أن التزويج بين الكفار والمسلمين ممنوع في جميع الصور، إلا صورة واحدة، وهي تزوج الرجل المسلم بالمرأة المحصنة الكتابية، والنصوص الدالة على ذلك قرآنية، كما رأيت. (٢١١)

وقوله تعالى {وَأَنْكِحُوا} أي زوجوا ، الخطاب هنا موجه لأولياء المرأة ، وقد بوب الإمام البخاري باب من قال: لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيِّ (٢١٢) لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ} [البقرة: ٢٣٢] فَدَخَلَ فِيهِ الشَّيْبُ، وَكَذَلِكَ الْبَكْرُ، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا} [البقرة: ٢٢١] وَقَالَ: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ} [النور: ٣٢]

قال القرطبي [هذه المخاطبة تدخل في باب الستر والصلاح، أي زوجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف، والخطاب للأولياء. وقيل: للأزواج. والصحيح الأول، إذ لو أراد الأزواج لقال "وأنكحوا" بغير همز، وكانت الألف للوصل. وفي هذا دليل على أن المرأة ليس لها أن تنكح نفسها بغير ولي، وهو قول أكثر العلماء. وقال أبو حنيفة: إذا زوجت الشيب أو البكر نفسها بغير ولي كفيها لها جاز. وقد مضى هذا في "البقرة" مستوفى. الثانية- اختلف العلماء في هذا الأمر على ثلاثة أقوال، فقال علماؤنا: يختلف الحكم في ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت، ومن عدم صبره، ومن قوته

٢١١ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - ص ٥٢٩ - المكتبة الشاملة الحديثة

٢١٢ صحيح البخاري ص ١٥ - باب من قال لا نكاح إلا بولي - المكتبة الشاملة الحديثة

عَلَى الصَّبْرِ وَزَوَالَ خَشْيَةِ الْعَنْتِ عَنْهُ. وَإِذَا خَافَ الْهَلَاكَ فِي الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا أَوْ فِيهِمَا فَلِالنِّكَاحِ حَتْمٌ. وَإِنْ لَمْ يَخْشَ شَيْئًا وَكَانَتْ الْحَالُ مُطْلَقَةً فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: النِّكَاحُ مُبَاحٌ. وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ: هُوَ مُسْتَحَبٌّ. تَعَلَّقَ الشَّافِعِيُّ بِأَنَّهُ قَضَاءٌ لَذَّةٍ فَكَانَ مُبَاحًا كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ. وَتَعَلَّقَ عُلَمَاؤُنَا بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: (مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) [٢١٣] (٢١٤)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَانِكُمْ يَذُلُّ عَلَى لُزُومِ تَزْوِيجِ الْأَيَامَى مِنَ الْمَمْلُوكِينَ الصَّالِحِينَ، وَالْإِمَاءِ الْمَمْلُوكَاتِ، وَظَاهِرُ هَذَا الْأَمْرِ الْوُجُوبُ .

ولما كان للزواج تكاليف يهاب لأجلها، لما طبع الآدمي عليه من الهلع في قلة الوثوق بالرزق، مع احتمال أن يكون الإنسان غير قادر لكونه معدماً، كان الجواب بقوله: {إِنْ يَكُونُوا} أي كل من ذكر من حر أو عبد، والتعبير بالمضارع يشعر بأنه قد يكون في النكاح ضيق وسعة {فقراء} أي من المال {يغنيهم الله} أي الذي له الكمال كله، إذا تزوجوا {من فضله} لأنه قد كتب لكل نفس رزقها فلا يمنعكم فقرهم من إنكاحهم.

يقول تعالى: {إِنْ يَكُونُوا فَقَرَاءً يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} فالفقر قد يكون سبباً في عدم الإقبال على البنت، أو عدم إقبال أهل البنت على الزوج، لكن الله تعالى لا يتخلّى عنهما إن كانا من الصالحين ولا يقصدون إلا الإعفاف والطهر، لا يمكن أن يرضى الله على زوجين التقيا على هذه القيم واجتمعا على هذه الآداب، ومن يدريك لعل الرزق يأتي للاثنتين معاً، ويكون اجتماعهما في هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذي يفتح للوجهين معاً. {والله واسعٌ عليمٌ} فعتاء الله دائم لا ينقطع؛ لأن خزانته لا تنفذ ولا تنقص، والإنسان يُمسِكُ عن الإنفاق؛ لأنه يخاف الفقر، أما الحق تبارك وتعالى فيعطي العطاء الواسع؛ لأن ما عنده لا ينفد.

الحث علي الإستعفاف لمن لا يستطيع الزواج
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَيْسَتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ لَا يَجِدُ تَزْوِيجًا بِالتَّعَفُّفِ عَنِ الْحَرَامِ، كَمَا قَالَ ﷺ:

٢١٣ صحيح البخاري كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح رقم (٥٠٦٣) ، صحيح مسلم رقم (١٤٠١)

٢١٤ تفسير القرطبي ص ٢٣٩ - سورة النور آية ٣٢ - المكتبة الشاملة الحديثة

{يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ. وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ}. (٢١٥)
وَهَذِهِ الْآيَةُ مُطْلَقَةٌ، وَالَّتِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ أَخْصَتْ مِنْهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ} ، إِلَى أَنْ قَالَ: {ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ} [النساء: ٢٥] أَيْ صَبْرُكُمْ عَنْ تَرْوِيجِ الْإِمَاءِ خَيْرٌ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ يَجِيءُ رَقِيقًا، {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وفي حالة إذا لم ننكح الأيامى، ولم نُعِنهم على الزواج، ولم يقدروا هم على القيام بنفقاته يصف لهم الحق - سبحانه وتعالى - العلاج المناسب، وهو الاستعفاف، وقد طلب الله تعالى من المجتمع الإسلامي سواء - تتمثل في أولياء الأمور أو في المجتمع العام - أن ينهض بمسألة الأيامى، وأن يعينهم على الزواج، فإن لم يَقُمْ المجتمع بدروه، ولم يَكُنْ لهؤلاء الأيامى قدرة ذاتية على الزواج، فليستعفف كل منهم حتى يغنيهم الله، مما يدل على أن التشريع يبيِّن أحكامه، ويُراعي كل الأحوال، سواء أطاعوا جميعاً أو عصَوْا جميعاً.

وقوله تعالى: {وَلْيَسْتَغْفِرِ}: يعني: يحاول العفاف ويطلبه ويبحث عن أسبابه، يجاهد أن يكون عفيفاً، وأول أسباب العفاف أن يَغْضُ بصره حين يرى، فلا يوجد له مُهَيِّج ومثير، فإن وجد في نفسه فُتُوَّة وقوة فعلية أن يُلْجِمَهَا وَيُضْعِفَهَا بالوسائل الشرعية كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما معشر الشباب من استطاع منكم الباءة - يعني: نفقات الحياة الزوجية - فليتزوج، ومن لم يجد فعلية بالصوم فإنه له وجاء).

والصوم يعمل على انكسار هذه الشهوة ويُهْدِيء من شراسة الغريزة؛ ذلك لأنه يأكل فقط ما يقيم أَوْدَه، ولا يبقى في بدنه ما يثير الشهوة. وطاقته، التي إن لم تصرف في الخير صرفت في الشر، وبالعَمَلِ يثبت الشاب ذاته، ويتقن بنفسه، ويكتسب الحلال الذي يُشْجَعُهُ مع الأيام على الزواج وتحمل مسئولياته.

لذلك قال تعالى: {وَلْيَسْتَغْفِرِ} ولم يَقُلْ: وليعف، فالمعنى ليسلك سبيل الإِعْفَافِ لنفسه وليسع إليه، بأن يمنع المهيج بالنظر ويُهْدِيء شراسة الغريزة

٢١٥ صحيح البخاري كتاب الصوم رقم (١٩٠٥) ، صحيح مسلم كتاب النكاح رقم (١٤٠٠)

بالصوم، أو بالعمل فيشغل وقته ويعود آخر النهار متعباً يريد أن ينام ليقوم في الصباح لعمله نشيطاً، وهكذا لا يجد فرصة لشيء مما يغضب الله. ومعنى: {الذين لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً} أي: ليس بذواتهم قدرة أو بمجتمعهم معونة تعينهم علي الزواج . والتعبير القرآني في غاية البلاغة بقوله { لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً } بينما الأقرب للأذهان (لا يجدون ما ينكحون به) أي عدم توفر القدرة المادية للزواج وهذا التعبير قاصر ، والتعبير القرآني أعم وأشمل من ذلك ، لأن القدرة المادية قد تكون متوفرة لدي الشخص، ولكنه لا يجد من يقبله زوجاً فالنتيجة واحدة أنه لا يجد نكاحاً

وقوله تعالى: {حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} أي ييسر لهم من فضله ما يغنيهم ويعينهم علي أمور الزواج ، وهذا يدل على أن الاستغفار وسيلة من وسائل الغنى؛ لأن الاستغفار إنما نشأ من إرادة التقوى، وقد قال تعالى : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: ٢ - ٣] فمن هذا الباب يأتيه غنى الله. والغني المقصود هنا ليس غني المال ، وإنما هو غني النكاح ، لأنه كما بينا ربما يكون لديه المال ولا يجد من يقبله للنكاح ، فقوله يغنيهم الله من فضله ، أي ييسر له الإمكانيات ، وييسر له من تقبله زوجاً . لذلك كان السبيل إلي هذا هو الإستغفار والصلاح والتقوى .

وبهذا التشريع يكون الإسلام هو المصدر الوحيد الذي قدم الحل الأمثل والطبيعي أي الذي يلانم الفطرة والقدرة البشرية لمعالجة الغريزة الجنسية ، والذي يقوم علي تأمين الزواج لكل راغب ، وإرشاد من لا يتيسر له أمر الزواج إلا طريق الإستغفار بالصوم مع الصلاح والتقوى ، وبذلك يكون في ضمان الله ﷻ حتي يغنيه من فضله ، وفي نفس الوقت حرم البغاء كما سيأتي ونقول أن الإسلام هو المصدر الوحيد ، لأن الواقع حولنا يشهد أن الشعوب الغير مسلمة تعالج الغريزة الجنسية بتقنين البغاء ، وإباحة الفجور ، وتسهيل الزنا ، وإعاقعة الزواج الشرعي الذي يعني رجل واحد للمرأة ، والعجيب أنهم أباحوا تعدد الرجال في المعاشرة الجنسية للمرأة خارج إطار الزواج ، وإستكروا تعدد الزوجات للرجل في إطار الزواج الشرعي .

الترغيب في منع الرق

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} [النور: ٣٣].

لما ذكر الله تعالى أحكام النكاح للأيامي أي للأحرار من الرجال والنساء والمماليك الصالحين ، إنتقل إلي أمر آخر في غاية الأهمية ، وهو موضوع الرقيق وما يتعلق به من مفاصد والحديث عن أحد وسائل تحرير العبيد أو المماليك وهي المكاتبه ، والمكاتبه هو أن يتفق العبد مع سيده إتفاقا مكتوبا علي تحريره أو عتقه من الرق أو العبودية مقابل سداد ثمن يبيعه لنفسه مبلغا من المال حالا أو آجلا حسب ما يتيسر له.

ففي هذه الآية حث وأمر من الله تعالى لمن يملكون عبيدا أو إماءا علي قبول المكاتبه إذا طلبوا ذلك وإذا علم أن لديهم من الخير ما يستحقون به هذا العتق والتحرير ، ليس هذا فقط بل حث الأسياد علي إعطائهم من المال ما يعينهم علي حياة الحرية سواءا عطاءا مباشرا ، او بالتنازل عن بعض ما كاتبوهم عليه . وقد إختلف العلماء في حكم قبول المكاتبه هل هو واجب أم يندب إليه علي الإستحباب.

وهَذَا أَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْسَّادَةِ إِذَا طَلَبَ عَبِيدُهُمُ الْكِتَابَةَ أَنْ يَكَاتِبُوا ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ حِيلَةٌ وَكَسْبٌ يُّؤَدِّي إِلَى سَيِّدِهِ الْمَالِ الَّذِي شَارَطَهُ عَلَى آدَانِهِ. وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرُ إِرْشَادٍ وَاسْتِحْبَابٍ، لَا أَمْرَ تَحْتَمٍ وَإِجَابٍ، بَلِ السَّيِّدُ مُخَيَّرٌ، إِذَا طَلَبَ مِنْهُ عَبْدُهُ الْكِتَابَةَ إِنْ شَاءَ كَاتِبُهُ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَكَاتِبْهُ ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ إِذَا طَلَبَ مِنْهُ عَبْدُهُ ذَلِكَ، أَنْ يُجِيبَهُ إِلَى مَا طَلَبَ؛ أَخْذًا بِظَاهِرِ هَذَا الْأَمْرِ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ رَوْحٌ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَوَاجِبٌ عَلَيَّ إِذَا عَلِمْتُ لَهُ مَالًا أَنْ أَكَاتِبَهُ؟ قَالَ: مَا أَرَاهُ إِلَّا وَاجِبًا. وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ ، أَتَأْتِرُهُ عَنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: لَا. ثُمَّ أَخْبَرَنِي أَنَّ مُوسَى بْنَ أَنَسٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ سِيرِينَ سَأَلَ أَنَسًا الْمَكَاتِبَةَ -وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ، فَأَبَى. فَأَنْطَلَقَ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: كَاتِبْهُ. فَأَبَى، فَضَرَبَهُ بِالْذَّرَّةِ، وَيَتَلَوُّ عَمْرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} ، فَكَاتِبُهُ (٢١٦)

هَكَذَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيْقًا وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا ابْنُ جَرِيرٍ قَالَ: قُلْتُ لِعِطَاءٍ: أَوَاجِبُ عَلَيَّ إِذَا عَلِمْتُ لَهُ مَالًا أَنْ أَكَاتِبَهُ؟ قَالَ: مَا أَرَاهُ إِلَّا وَاجِبًا وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعِطَاءٍ: أَتَأْتِيهِ عَنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: لَا وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ سَبْرِينَ أَرَادَ أَنْ يَكَاتِبَهُ، فَتَلَّكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ: لَتَكَاتِبَنَّهُ. إِسْنَادٌ صَحِيحٌ (٢١٧)

وَقَوْلُهُ: {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} ، قَالُوا : أَمَانَةً. وَقَالَ آخَرُونَ: صِدْقًا. وَقَالُوا: مَالًا وَقَالُوا: حِيلَةً وَكَسْبًا.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْمَرَاثِلِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} قَالَ: (إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ حِرْفَةً، وَلَا تُرْسِلُوهُمْ كَلَّا عَلَى النَّاسِ) (٢١٨)

وَقَوْلُهُ: {وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهِ، فَقَالَ قَائِلُونَ: مَعْنَاهُ اطْرَحُوا لَهُمْ مِنَ الْكِتَابَةِ بَعْضَهَا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَقْدَارُ الرَّبْعِ. وَقِيلَ: الثُّلُثُ. وَقِيلَ: النِّصْفُ. وَقِيلَ: جُزْءٌ مِنَ الْكِتَابَةِ مِنْ غَيْرِ وَاحِدٍ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ [وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: {وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} هُوَ النَّصِيبُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الرِّكَوَاتِ. وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَأَبِيهِ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعِينُوا فِي الرِّقَابِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ) فَذَكَرَ مِنْهُمْ الْمَكَاتِبَ يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَشْهَرُ ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ؛ أَنَّهُ كَاتَبَ عَبْدًا لَهُ، يُكْنَى أَبَا أُمَيَّةَ، فَجَاءَ بِنَجْمِهِ حِينَ حُلِّ، فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَيَّةَ، اذْهَبْ فَاسْتَعِنْ بِهِ فِي مَكَاتِبِكَ. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ تَرَكْتَهُ حَتَّى يَكُونَ مِنْ آخِرِ نَجْمٍ؟ قَالَ: أَخَافُ أَلَّا أُدْرِكَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَرَأَ: {فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا} وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ} قَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ أَوَّلَ نَجْمٍ أَدَّى فِي الْإِسْلَامِ..] إنتهي (٢١٩)

٢١٧ تفسير الطبري (٩٨/١٨)

٢١٨ رواه أحمد في مسنده (٧٢/٥) من حديث عم أبي حرة الرقاشي، وفي (٤٢٥/٥) من حديث أبي حميد الساعدي، وفي (٤٢٣/٣) من حديث عمرو بن يثربي.

٢١٩ تفسير ابن كثير ت سلامة - ص ٥٣ - المكتبة الشاملة الحديثة

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، عَنْ عَنِسَةَ، عَنْ سَالِمِ الْأَفْطَسِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا كَاتَبَ مَكَاتِبَهُ لَمْ يَضَعْ عَنْهُ شَيْئًا مِنْ أَوَّلِ نُجُومِهِ، مَخَافَةً أَنْ يَعْجَزَ فَيَرْجِعَ إِلَيْهِ صَدَقَتُهُ. وَلَكِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي آخِرِ مَكَاتِبَتِهِ، وَضَعَ عَنْهُ مَا أَحَبَّ (٢٢٠)

وقد جعل الله تعالى هذه المكاتبه مصرفاً من مصارف الزكاة، فقال تعالى: {وَفِي الرِّقَابِ} [البقرة: ١٧٧] يعني: المماليك الذين نريد أن نفك رقابهم من أسر العبودية وذُلّها بالعنق، وإن كان مال الزكاة يُدفع للفقراء وللمساكين.. إلخ ، ففي الرقاب يدفع المال للسيد ليعتق عبده.

كما جعل الإسلام عتق الرقاب كفارةً لبعض الذنوب بين العبد وبين ربه؛ ذلك لأن الله تعالى يريد أن ينهي هذه المسألة. ففي الصحيحين ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً ، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرَجِهِ) (٢٢١)

ورغم أن القضاء على الرق كان من أسمى الغايات التي دعي إليها الإسلام وشرع لها التشريعات اللازمة ، في نفس الوقت إحترم الإسلام حقوق الملكية للسادة فيما يملكون من عبيد ، فإحترام الملكية يجعل الإنسان مطمئناً على آثار حركة حياته وثمره جهده، وأنها ستعود عليه، وإلا فما الداعي للعمل ولبذل المجهود إن ضاعت ثمرته وحُرم منها صاحبها! عندها ستتعتل مصالح كثيرة وسيعمل الفرد على قَدْر حاجته فحسب، فلا يبقى شيء للصدقة.

الحث علي إعفاف الفتيات

ولما أمر سبحانه بالجود في أمر الرقيق تارة بالنفس، وتارة بالمال، نهاهم عما ينافيه فقال: {وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَاتَكُمْ} أي إماءكم، ولعله عبر بلفظ الفتوة هزاً لهم إلى معالي الأخلاق، وتخجيلاً من طلب الفتوة من أمة {على البغاء} أي الزنى لتأخذوا منهم مما يأخذونه من ذلك.

٢٢٠ تفسير الطبري (١٠١/١٨)

٢٢١ صحيح البخاري (٦٧١٥) كتاب كفارات الأيمان ، ومسلم ، كتاب العتق ، باب فضل العتق رقم (١٥٠٩)

وَقَوْلُهُ {وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} الْآيَةِ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أَمَةٌ، أَرْسَلَهَا تَزْنِي، وَجَعَلَ عَلَيْهَا ضَرْبَةً يَأْخُذُهَا مِنْهَا كُلُّ وَقْتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، نَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ.

وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ -فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ -فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولِ الْمُنَافِقِ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُ إِمَاءٌ، فَكَانَ يُكْرِهُهُنَّ عَلَى الْبِغَاءِ طَلَبًا لِحُرَاجِهِنَّ، وَرَغْبَةً فِي أَوْلَادِهِنَّ، وَرِئَاسَةً مِنْهُ فِيمَا يَزْعُمُ قُبْحَهُ اللَّهُ وَلَعْنَهُ .

وَقَوْلُهُ: {إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ، فَلَا مَفْهُومَ لَهُ. وَقَوْلُهُ: {لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الدُّنْيَا} أَي: مِنْ حُرَاجِهِنَّ وَمُهْوَرِهِنَّ وَأَوْلَادِهِنَّ. وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَنْ كَسْبِ الْحَجَّامِ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ (٢٢٢) -وَفِي رِوَايَةٍ: (مَهْرُ الْبَغِيِّ حَبِيبٌ، وَكَسْبُ الْحَجَّامِ حَبِيبٌ، وَثَمَنُ الْكَلْبِ حَبِيبٌ) (٢٢٣)

وَمَعْنَى {إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} يَتَكَلَّمُ الْقُرْآنُ هُنَا عَنِ الْوَاقِعِ بِحَيْثُ إِنْ لَمْ يُرَدَّنْ تَحَصُّنًا فَلَا تُكْرَهُوهُنَّ {لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} طَلَبًا لِلْقِلِيلِ مِنَ الْمَالِ الزَّائِلِ {وَمَنْ يُكْرِهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ} لَأَنَّهُنَّ فِي حَالَةِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الْبِغَاءِ يَفْقَدْنَ شَرْطَ الْإِخْتِيَارِ، فَلَا يَتَحَمَّلْنَ ذَنْبَ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ، عَمَلًا بِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ) (٢٢٤) وَلَمَّا كَانَ الْإِكْرَاهُ عَلَى الزَّوْنِ لَا يَصِحُّ إِلَّا عِنْدَ الْعِفَّةِ، وَكَانَ ذَلِكَ نَادِرًا مِنْ أَمَةٍ، قَالَ {إِنْ} بِأَدَاةِ الشَّكِّ {أَرَدْنَ تَحَصُّنًا} وَفِي ذَلِكَ زِيَادَةٌ تَقْبِيحٌ لِلْإِكْرَاهِ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ حَيْثُ كَانَتْ النِّسَاءُ مُطْلَقًا يَتَعَفَّفْنَ عَنْهُ ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَمْنَعْنَهُ مَانِعٌ خَوْفٌ أَوْ حَيَاءٌ كَالْإِمَاءِ، فَكَيْفَ إِذَا أَدْنُ لَهُنَّ فِيهِ فَكَيْفَ إِذَا أُلْجِنَ إِلَيْهِ، وَأَشَارَ بِصِغَةِ التَّفَعُّلِ وَذَكَرَ الْإِرَادَةَ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عِفَّةٍ بِالْعَةِ، وَزَادَ فِي تَصْوِيرِ التَّقْبِيحِ بِذِكْرِ عِلَّةِ التَّزَامِ هَذَا الْعَارِ فِي قَوْلِهِ: {لِّتَبْتَغُوا} أَي تَطْلُبُوا طَلَبًا حَثِيئًا فِيهِ رَغْبَةٌ قَوِيَّةٌ بِإِكْرَاهِهِنَّ عَلَى الْفِعْلِ الْفَاحِشِ {عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} فَإِنَّ الْعَرَضَ مُتَحَقِّقٌ فِيهِ الزَّوَالُ، وَالْدُّنْيَا مُشْتَقَّةٌ مِنْ

٢٢٢ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ بِرَقْمٍ (٢٢٣٧) وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بِرَقْمٍ (١٥٦٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ وَمَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ" وَأَمَّا كَسْبُ الْحَجَّامِ، فَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ فِي السُّنَنِ بِرَقْمٍ (٢١٦٥) مِنْ حَدِيثِ عَقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو: "نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ كَسْبِ الْحَجَّامِ".

٢٢٣ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٤٦٤/٣) مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٢٤ سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ ، كِتَابُ الطَّلَاقِ رَقْمٌ (٢٠٤٣)

الدناءة فيه فقال: {ومن يكرههن} دون أن يقول: وإن أكرهن، وعبر بالمضارع إعلماً بأن يقبل التوبة ممن خالف بعد نزول الآية، وعبر بالاسم العلم في قوله: {فإن الله} إعلماً بأنه سبحانه غير مؤيس من الرحمة، ولعله عبر بلفظ «بعد» إشارة إلى العفو عن الميل إلى ذلك الفعل عند موافقته إن رجعت إلى الكراهة بعده، فإن النفس لا تملك بغضه حينئذ، فقال: {من بعد إكراههن غفور} أي لهن وللموالي، يستر ذلك الذنب إن تابوا {رحيم} بتوفيقهما إلى ما يرضيه.

وَلَمَّا فَصَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَّهَا قَالَ: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ يَغْنِي: الْقُرْآنَ فِيهِ آيَاتٌ وَاضِحَاتٌ مُفَسِّرَاتٌ، {وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ} أَي: خَبَرًا عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ فِي مُحَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ} [الرَّحْزَف: ٥٦]، {وَمَوْعِظَةً} أَي: زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ {لِلْمُتَّقِينَ} أَي: لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَهُ.

يقول ابن عاشور [وَوَصَفَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةَ بِثَلَاثِ صِفَاتٍ كَمَا وَصَفَ السُّورَةَ فِي طَالِعَتِهَا بِثَلَاثِ صِفَاتٍ. وَالْمَقْصِدُ مِنَ الْأَوْصَافِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ هُوَ الْإِمْتِنَانُ فَكَانَ هَذَا يُشَبِّهُ رَدَّ الْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ، فَجُمِلَتْ: وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ مُسْتَنَافَةً اسْتِنَافَ التَّنْذِيلِ وَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ لَا تُعْطَفَ لِأَنَّ شَأْنَ التَّنْذِيلِ وَالْإِسْتِنَافِ الْفَصْلُ كَمَا فَصَّلْتُ أُخْتُهَا الْآيَةَ قَرِيبًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ} [النُّور: ٤٦]. وَإِنَّمَا عُدَلَ عَنِ الْفَصْلِ إِلَى الْعُطْفِ لِأَنَّ هَذَا خَتَامُ التَّشْرِيعَاتِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي نَزَلَتْ السُّورَةُ لِأَسْبَابِهَا.

وَقَدْ خُلِّتْ بِمَثَلِ هَذَا التَّنْذِيلِ مَرَّتَيْنِ قَبْلَ هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي ابْتِدَاءِ السُّورَةِ {وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [النُّور: ١] ثُمَّ قَوْلُهُ: {وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النُّور: ١٨] ثُمَّ قَوْلُهُ هُنَا: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ} فَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ التَّنْذِيلَاتِ زَائِدًا عَلَى الَّذِي قَبْلَهُ فَالْأَوَّلُ زَائِدٌ بِقَوْلِهِ: {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ} [النُّور: ١٨] لِأَنَّهُ أَفَادَ أَنَّ بَيَانَ الْآيَاتِ لِقَائِدَةِ الْأُمَّةِ، وَمَا هُنَا زَادَ بِقَوْلِهِ: {وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} فَكَانَتْ كُلُّ زِيَادَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ مُقْتَضِيَةِ الْعُطْفِ لِمَا حَصَلَ مِنَ الْمُغَايِرَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أُخْتُهَا، وَتُعْتَبَرُ كُلُّ وَاحِدَةٍ عَطْفًا عَلَى نَظِيرَتِهَا، فَوُصِفَتِ السُّورَةُ كُلُّهَا بِثَلَاثِ صِفَاتٍ

وَوُصِفَ مَا كَانَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مُشْتَمِلًا عَلَى أَحْكَامِ الْقَذْفِ وَالْحُدُودِ وَمَا يُفْضِي إِلَيْهَا أَوْ إِلَى مُقَارِبِهَا مِنْ أَحْوَالِ الْمَعَاشِرَةِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ بِثَلَاثِ صِفَاتٍ، فَقَوْلُهُ هُنَا: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ} يُطَابِقُ قَوْلَهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ {وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [النور: ١]، وَقَوْلُهُ: {وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ} يُقَابِلُ قَوْلَهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ {وَفَرَضْنَاهَا} [النور: ١] عَلَى مَا اخْتَرْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ ذَلِكَ بِأَنَّ مَعْنَاهُ التَّعْيِينُ وَالتَّقْدِيرُ لِأَنَّ فِي التَّمَثِيلِ تَقْدِيرًا وَتَصَوِيرًا لِلْمَعَانِي بِنِظَائِرِهَا وَفِي ذَلِكَ كَشَفٌ لِلْحَقَائِقِ، وَقَوْلُهُ: {وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} يُقَابِلُ قَوْلَهُ فِي أَوَّلِهَا {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النور: ١].

وَالَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ هُمُ الْأُمَمُ الَّذِينَ سَبَقُوا الْمُسْلِمِينَ، وَأَرَادَ: مِنْ أَمْثَالِ صَالِحِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ.

وَهَذَا الْمَثَلُ هُوَ قِصَّةُ الْإِفْكِ النَّظِيرَةُ لِقِصَّةِ يُوسُفَ وَقِصَّةِ مَرْيَمَ فِي تَقْوِيلِ الْبُهْتَانِ عَلَى الصَّالِحِينَ الْبُرَاءِ.

وَالْمَوْعِظَةُ: كَلَامٌ أَوْ حَالَةٌ يَعْرِفُ مِنْهَا الْمَرْءُ مَوَاقِعَ الزَّلَلِ فَيَنْتَهِي عَنِ اقْتِرَافِ أَمْثَالِهَا.

وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى {فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ} فِي سُورَةِ النَّسَاءِ [٦٣] وَقَوْلُهُ: {مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ [١٤٥].

وَمَوْاعِظُ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ كَثِيرَةٌ كَقَوْلِهِ: {وَلَيْسَ هَذَا عَذَابُهُمَا طَائِفَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النور: ٢] وَقَوْلِهِ: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ} [النور: ١٢] الْآيَاتِ، وَقَوْلِهِ: {يُعِظْكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا} [النور: ١٧].

وَالْمُتَّقُونَ: الَّذِينَ يَتَّقُونَ، أَيَّ يَتَجَنَّبُونَ مَا نَهَوْا عَنْهُ. [انتهى (٢٢٥)]

دروس وعبر من الآيات

وفي هذه الآية الكريمة عدة فوائد منها مايلي :

أولا : أن المكره علي فعل الشيء لا يلحقه إثمه ، وهذه الآية دليل علي عدم التفريق بين الإكراه علي القول أو الإكراه علي الفعل

ثانيا : إذا كانت القوانين الوضعية قد حرمت البغاء بشكل عام في البلاد الإسلامية ، وحرمت الأكره عليه بشكل خاص في البلاد الغير إسلامية ، إلا

أن الآية دليل على سبق الإسلام في تحريم البغاء والإكراه عليه.
ثالثاً : في الآية حث للآباء وأولياء الأمور على عدم منع الفتيات المسلمات إن أردن التعفف بلبس الحجاب الإسلامي ، وتأثيم من يمنعهن من ذلك.

منظومة الآداب اللازمة للتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع المسلم
وبهذه الآيات الكريمات تكون منظومة الآداب اللازمة للتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع المسلم قد اكتملت في سورة النور، وهذه المنظومة كانت هي المحور الرئيسي للسورة من بدايتها ، وقد عرضت السورة هذه الآداب ببلاغة وبيان تتعلق به النفوس ولا تمله ، وقد أحسن الإمام البقاعي في إجمال مقاصد السورة فقال : [ولما كان الملل من شيم النفوس، فكان تدرج الكلام في المقاصد لا سيما الأحكام شيئاً فشيئاً خلال مقاصد أخرى أوقع في القلب، وأشهى إلى الطبع، لا سيما إذا كان على وجوه من المناسبات عجيبة، وضروب من الاتصالات هي مع دقتها غريبة، زين الله تأصيلها بتفصيلها فابتدأ السورة بطائفة منها، وفصلها بدر الوعظ، وجواهر الحكم، والحث على معالي الأخلاق، ومكارم الأعمال، ثم وصلها بالإلهيات التي هي أصولها، وعن علي مقاماتها تفرعت فصولها، فلما ختمها بالتمكين لأهل هذا الدين، وتوهين أمر المعتدين، شرع في إكمالها، بإثبات بقية أحوالها، تأكيداً لما حكم به من التمكين، وما ختمه من ذلك من التوهين، وتحذيراً مما ختمه من العذاب المهين، وتحقيقاً لما ألزم به من الطاعة، ولزوم السنة والجماعة، فقال واصلاً بما ختم به الأحكام الأولى، من الأمر بإنكاح الأيامى، والكف عن إكراه البغايا، إثر الذين لم يظهروا على عورات النساء: {يا أيها الذين آمنوا} أي من الرجال والنساء، إما للتغليب، وإما لأن النساء أولى بحفظ العورة {ليستأذنكم} تصديقاً لدعوى الإيمان {الذين ملكت أيما نكم} من العبيد والإماء البالغين، ومن قاربهم، للدخول عليكم كراهة الاطلاع على عوراتكم والتطرق بذلك إلى مساءتكم {والذين} ظهروا على عورات النساء، ولكنهم {لم يبلغوا الحلم} وقيده بقوله: {منكم} ليخرج الأرقاء والكفار {ثلاث مرات} في كل دور، ويمكن أن يراد: ثلاث استنذانات في كل مرة، فإن لم يحصل الإذن رجع المستأذن كما تقدم: المرة الأولى من الأوقات الثلاث {من قبل صلاة الفجر} لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم {و} الثانية {حين

تضعون ثيابكم} أي التي للخروج بين الناس {من الظهيرة} للقائلة {و} الثالثة {من بعد صلاة العشاء} لأنه وقت الانفصال من ثياب اليقظة، والاتصال بثياب النوم، وخص هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة، ووضع الثياب، وأثبت من في الموضوعين دلالة على قرب الزمن من الوقت المذكور لضبطه، وأسقطها في الأوسط دلالة على استغراقه لأنه غير منضبط، ثم علل ذلك بقوله: {ثلاث عورات} أي اختلالات في التستر والتحفظ، وأصل العورة - كما قال البيضاوي: الخلل، لأنه لما كانت العورة تبدو فيها سميت بها {لکم} لأنها ساعات وضع الثياب والخلوة بالأهل، وبين حكم ما عدا ذلك بقوله مستأنفاً: {ليس عليكم} أي في ترك الأمر {ولا عليهم} يعني العبيد والخدم والصبيان، في ترك الاستئذان {جناح} أي إثم، وأصله الميل {بعدهن} أي في جميع ما سوى هذه الأوقات إذا هجموا عليكم؛ ثم علل الإباحة في غيرها، مخرجاً لغيرهم، مبيناً أن حكمة الاستئذان في كل وقت كما مضى بقوله: {طوافون عليكم} أي لعمل ما تحتاجونه في الخدمة كما أنتم طوافون عليهم لعمل ما يصلحهم ويصلحكم في الاستخدام {بعضكم} طواف {على بعض} لعمل ما يعجز عنه الآخر أو يشق عليه فلو عم الأمر بالاستئذان لأدى إلى الحرج. ولما بين حكم الصبيان والأرقاء الذين هم أطوع للأمر، وأقبل لكل خير، أتبعه حكم البالغين من الأحرار فقال: {وإذا بلغ الأطفال منكم} أي من أحراركم {الحلم} أي السن الذي يكون فيه إنزال المني بروية الجماع في النوم، هذا أصله، والمراد سن مطلق الإنزال {فليستأذنوا} على غيرهم في جميع الأوقات {كما استأذن الذين من قبلهم} على ما بين في أول الآيات القائلة {لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا} ونقل ابن كثير عن أن الغلام إذا كان رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال. ولما كانت آيات الاستئذان أتقن حاسم لمواد الشر، وتركها أعظم فاتح لأبواب الفتن، وكان إخراج الكلام، في أحكام الحلال والحرام، مع التهذيب والبيان، في النهاية من الصعوبة، وكان فطم النفوس عما ألفت في غاية من العسر شديدة، أشار سبحانه إلى ذلك بتكرير آية البيان، إشارة إلى أنها - لما لها من الغلو - جديرة بالتأكيد، وإلى أن البلغاء يستبعدون القدرة على البيان كلما أريد على هذا السنن

ولما ذكر سبحانه اقتبال الشباب، في تغيير حكم الحجاب، أتبعه الحكم عند إدبار الشباب، في إلقاء الظاهر من الثياب، فقال: {والقواعد} وحقق الأمر بقوله: {من النساء} جمع قاعد، وهياتي قعدت عن الولد وعن الحيض كبراً وعن الزوج. ولما كان هذا الأخير قطبها قال: {اللاتي لا يرجون نكاحاً} أي لعدم رغبتهن فيه أو لوصولهن إلى حد لا يرغب فيهن معه {فليس عليهن جناح} أي شيء من الحرج في {أن يضعن ثيابهن} أي الظاهرة فوق الثياب الساترة بحضرة الرجال بدليل قراءة ابن مسعود رضي الله عنه {من ثيابهن} قال أبو صالح: تضع الجلباب، وهو ما يغطي ثيابها من فوق كالمحفة، وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار {غير متبرجات بزينة} أي متعمدات - بوضع ما أبيح لهن وضعه إظهار وجوههن مع الزينة، أو غير متظاهرات بالزينة، قال في الجمع بين العباب والمحكم: تبرجت المرأة: أظهرت وجهها. وفي القاموس: تبرجت: أظهرت زينتها للرجال - انتهى. ومادة برج تدور على الظهور كما مضى في الحجر؛ وقال البيضاوي: وأصل البرج التكلف في إظهار ما يخفى - انتهى. وكأنه أشير بصيغة التفعّل إلى أن ما ظهر منها من وجهها أو زينتها عفواً غير مقصود به الفساد لا حرج فيه. بقوله ذاكر المستحب، بعثاً على اختيار أفضل الأعمال وأحسنها: {وأن يستغفن} أي يطلبن العفة بدوام الستر وعدم التخفف بإلقاء الجلباب والخمار {خير لهن} من الإلقاء المذكور.

ولما أتم سبحانه ما ذكر من حرّات البيوت المستلزمة لصيانة الأبخاض على وجه يلزم منه إحراز الأموال، أتبعه ما يباح من ذلك للأكل الذي هو من أجلّ مقاصد الأموال اجتماعاً وانفراداً، فقال في جواب من كأنه سأل: هل هذا التحجير في البيوت سارٍ في الأقارب وغيرهم في جميع الأحوال؟ : {ليس على الأعمى حرج} أي في مؤاكلة غيره وما يأتي من الأحكام، وإن كره غيره أكله لمد يده كيفما اتفق فإنه مرحوم، والاستئذان من أجلّ البصر {ولا على الأعرج} الذي لا يرجى {حرج} وإن تقدّر منه بعض المترفين فإنه يجمعه في أنه يرحم لنقصه {ولا على المريض} أي مرضاً يرجى بعرج أو غيره {حرج} كذلك لمرضه، وأخره لرجاء برئه {ولا على أنفسم} أي ولا على غير من ذكر، وعبر بذلك تذكيراً بأن الكل من نفس واحدة {أن تأكلوا

من بيوتكم} أي التي فيها عيالكم، وذكرها سبحانه لنلا يحصل من تركها لو تركها ريبة، وليدخل فيها بيوت الأولاد لأنهم من كسب الأب «أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه» «أنت ومالك لأبيك» {أو بيوت آبائكم} وإن بعدت أنسابكم - ولعله جمع لذلك - فإنها مرباكم وحرمتها حرمتكم {أو بيوت أمهاتكم} كذلك، وقدم الأب لأنه أجل وهو حاكم بيته دائماً والمال له {أو بيوت إخوانكم} من الأبوين أو الأب أو الأم بالنسب أو الرضاع، فإنهم من أولى من رضي بذلك بعد الوالدين، لأنهم أشقاؤكم، وهم أولياء بيوتهم {أو بيوت أخواتكم} فإنهن بعدهم، من أجل أن ولي البيت - إذا كن زوجات - الزوج {أو بيوت أعمامكم} فإنهم شقائق آبائكم سواء كانوا أشقاء أو لأب أو أم، ولو أفرد العم لتوهم أنه الشقيق فقط فإنه أحق بالاسم {أو بيوت عماتكم} فهن بعد الأعمام لضعفهن، ولأنه ربما كان أولياء بيوتهن الأزواج {أو بيوت أخوالكم} لأنهم شقائق أمهاتكم {أو بيوت خالاتكم} أخرهن لما ذكر {أو ما ملكتم مفاتحه} أي التصرف فيه بوجه من الوجوه كالوكالة {أو صديقكم} الذي تعرفون رضاه بذلك ولو بقرينة كما هو الغالب، ولذلك أطلقه، وإن لم يكن أمكنكم من مفاتحه بل كان عياله فيه، كل ذلك من غير إفساد ولا حمل ولا ادخار، وقد عدل الصديق هنا بالقريب، تنبيهاً على شريف رتبة الصداقة ولطيف سرها، وخفيف أمرها، وأفرد لغزته؛ وعن جعفر بن محمد: من عظم حرمة الصديق أن جعله كالنفس والأب ومن معه. قال الأصمهاني: وقالوا: إذا دل ظاهر الحال على رضا المالك قام ذلك مقام الإذن الصريح، وبما سمج الاستئذان وثقل كمن قدم إليه طعام فاستأذن صاحبه في الأكل.

ولما كان الله تعالى، بعلمه وحكمته، وعزه وقدرته، ولطفه وخبرته، قد خلق عقلاً نيراً يهدي إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، وقسمه بين عباده، وخلق فيهم أنواعاً من العوائق لذلك العقل عن النفوذ على سمت الاستقامة، من الهوى والكسل، الفتور والملل، جعلها حجباً تحجبه عن النفوذ، وتستتر عنه المدارك، وتمنعه من البلوغ، إلا برياضات ومجاهدات تكل عنها القوى، وتضعف عندها العزائم، فلا يكاد الماهر منهم يرتب قياساً صحيحاً، لغلظه في المقدمات، فتكون النتيجة حينئذ فاسدة القاعدة، واهية الأساس، فكانوا لا يزالون لذلك مختلفين، حتى يوصلهم الاختلاف إلى الإحن، والمشاجرة والفتن، فيجرهم إلى السيف وذهاب النفوس تلف الأرواح، فأنزل سبحانه

لهم في كل وقت شرعاً يلحق بذلك الزمان على لسان رسول من رسله عليهم الصلاة والسلام، جعل ذلك الشرع يطابق العقل السوي، والنور الضوي، والمنهل الروي، والسبب القوي، من تمسك به هدي ولم يزغ، حد فيه سبحانه حدوداً، وأقام فيه زواجر، لتظهر حكمته، ويتضح علمه وقدرته، فصارت شرائع متفقة الأصول، مختلفة الفروع، بحسب الأزمنة، إشارة إلى أن الفاعل في تغيير الأحكام بحسب الأزمان واحد مختار، وامتحاناً للعباد، تمييزاً لأهل الصلاح منهم من أهل الفساد، وكانت الإغارة على شيء من الأعراض والأموال على غير ما أذنيه تذهب العقول، وتعمي البصائر، ختم الآية بقوله: {العلم تعقلون} أي لتكونوا على رجاء عند من يصح منه الرجاء من ثبات هذا الوصف لكم، وهو ضبط النفوس وردّها عن الأهوية، باتباع آيات الشرع التي أنزلها الذي كرر وصفه هنا بأنه عليم حكيم. [٢٢٦]

وبهذا الإجمال البديع لمقاصد السورة ، من المناسب أن نجعله ختاماً لهذا الباب . والله المستعان .

الخاتمة

لله ما في السماوات والأرض

ختم السورة بإقامة الحجة

في خاتمة سورة النور ، وبعد عرض هذه الآيات العامرة بنور أحكام الله تعالى التي تعالج كل أحوال الفرد المسلم في كل مراحل من الطفولة إلي الشباب إلي الكهولة ، متزوجون وغير متزوجين وكذلك المجتمع المسلم بكل مركباته من رجال ونساء ، أغنياء وفقراء ، سادة وعبيد ، وبينت الآداب العامة لكل طوائف المجتمع في كل مكان ، في الشارع ، وفي البيت ، وفي كيفية معاملة رسول الله ﷺ وطاعته وحذرت من خطوات الشيطان، وبينت الحدود اللازمة لئلا يزجر من إستذله الشيطان للوقوع في جرائم الزنا والقذف .

ثم رسمت السورة في ذهن المؤمن صورة لنور الله تعالى ومثلته أعظم تمثيل لتبين تفرد بالوحدانية في صفاته كتفرد بالوحدانية في ربوبيته فكان حقيقا بتوحيده في الألوهية والعبودية، وتبعاً لذلك ضربت الأمثلة لنور الإيمان في صدور المؤمنين ، وظلمات الكفر للكافرين ، وأكدت الصورة بالإعجاز في خلق وتكوين وتصرف بعض مخلوقات الله تعالى كالطير والدواب والسحاب والمطر .

ثم كانت المكافأة الكبرى من الله تعالى للأمة المؤمنة حين تعمل بأوامره وأحكامه ، والإنتهاء عن نواهيهِ ومعصيته ، فالمكافأة هي الوعد بالتمكين لهذا الدين ، وتبديل حالة الخوف التي عاشتها الأمة في بداية الدعوة إلي أمن وإستقرار ، بشرط الإقامة علي توحيده وحسن عبادته .

بعد هذا العرض البديع جاءت الآية الأخيرة من السورة لتختتم كل هذه الآيات البينات بآية تثبت القلوب، وتطمئن المؤمنين إلي أن كل ماتقدم من أحكام وآيات هو ممن يملك مافي السماوات والأرض وذلك من قوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾.

فهذا تذييل لما تقدم في هذه السورة كلها. وافتتاحه بحرف التنبيه إيداناً بآنتهاء الكلام وتنبيه للناس ليغوا ما يرد بعد حرف التنبيه، وهو أن الله مالك ما في السماوات والأرض، فهو يجازي عباده بما يستحقون وهو عالم بما يفعلون.

{أَلَا} أداة إستفتاح ، و {إِنَّ} حرف توكيد ، و {لِلَّهِ} خبر إن مقدم ، و {مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} إسم إن مؤخر ، وتقديم الخبر يدل علي الحصر ، وتصدير الآية بـ {إِنَّ} للتوكيد ، وبـ {أَلَا} ، للتنبيه والتوكيد أيضا ، لأن {أَلَا} الإستفتاحية تفيد التنبيه والتوكيد أيضا. فهذا قرع لسمع المخاطب بأهمية الخطاب التالي كقوله تعالى {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ} (البقرة ١٢) وقوله {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (يونس ٦٢) وقوله تعالى {أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ} (الشوري ٤٥) وقوله هنا { {أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} وعلي هذا فالآية مؤكدة بمؤكدتين {أَلَا} و {إِنَّ} مع تقديم الخبر علي المبتدأ الذي يفيد التوكيد مع الحصر والقصر.

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (النور ٦٣) للدلالة علي أن ماهدد الله ﷺ به من إصابتهم بالفتنة والعذاب الأليم ليس بمعجز له سبحانه وتعالى وهو من يملك ما في السموات وما في الأرض.

يقول الشعراوي [والسموات والأرض ظرف فيهما كل شيء في الكون العلوي والسفلي، فله ما في السموات وما في الأرض أي: المظروف فيهما، فما بال الظرف نفسه؟ قالوا: هو أيضاً لله، كما جاء في آية أخرى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النور: ٤٢] إذن: فالظرف والمظروف ملك له سبحانه. وعادة ما يكون الظرف أقل قيمة من المظروف فيه، فما بداخل الخزانة مثلاً أثن مننها، وما بداخل الكيس أثن مننه، وكذلك عظمة السموات والأرض بما فيهما من مخلوقات. لذلك إياك أن تجعل المصحف الشريف ظرفاً لشيء مهم عندك فتحفظه في المصحف؛ لأنه لا شيء أعلى ولا أثن من كتاب الله، فلا يليق أن تجعله حافظة لنقودك، أو لأوراقك المهمة؛ لأن المحفوظ عادة أثن من المحفوظ فيه.] إنتهي (٢٢٧)

وأسلوب الحصر والقصر في الآية فيه تحدي لكل من إدعي الألوهية أو الربوبية كالنمرود عليه لعنة الله ، ولذلك لم يصعب علي إبراهيم عليه السلام أن يفحمه بآية من آيات السموات والأرض التي يملكها سبحانه وتعالى

وييسر لمن آمن بها إدراكها ، حتى إن النمرود الذي جادل أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وقال: أنا أحي وأميت ، قال له إبراهيم: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} [البقرة: ٢٥٨] لم يستطع فعل شيء وبُهِتَ وانتهت المسألة.

ومُلْكُه تعالى لم يقتصر على الخلق، فخلق الأشياء ثم تركها تؤدي مهمتها وحدها، إنما خلقها وله تعالى قيومية على ما خلق، وتصرف في كل شيء، فلا تظن الكون من حولك يخدمك آلياً، إنما هو خاضع لإرادة الله وتصرفه سبحانه.

فالماء الذي ينساب لك من الأمطار والأنهار قد يُمنع عنك ويصيب أرضك الجفاف، أو يزيد عن حده، فيصبح سيولاً تغرق وتدمر، إذن: المسألة ليست رتبة خلق، وليست المخلوقات آلات (ميكانية) ، إنما لله الملك والقيومية والتصرف في كل ما خلق.

وقوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} و"قَدْ" لِلتَّحْقِيقِ، كَمَا قَالَ قَبْلَهَا: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْأَدًا} ، وَقَالَ تَعَالَى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [الأحراب: ١٨] . وَقَالَ تَعَالَى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١] ، وَقَالَ: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْتُمُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣] ، وَقَالَ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [البقرة: ١٤٤] فَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا تَحْقِيقُ الْفِعْلِ بِ"قَدْ" ، كَمَا يَقُولُ الْمُؤَدِّنُ تَحْقِيقًا وَثُبُوتًا: "قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ "

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} أَي: هُوَ عَالِمٌ بِهِ، مُشَاهِدٌ لَهُ، لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠] . وَقَالَ: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١] ، وَقَالَ تَعَالَى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}

[الرعد: ٣٣] أَي: هُوَ شَهِيدٌ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا هُمْ فَاعِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. وَقَالَ تَعَالَى: {أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [هود: ٥] ، وَقَالَ تَعَالَى: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد: ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦] ، وَقَالَ: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩] . وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا. وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا أَحْسَنُ وَعَدٌ لِلْمُطِيعِينَ، وَأَشَدُّ وَعِيدٌ لِلْعَصَاةِ الْمُجْرِمِينَ

ولفهم هذه الآية لا بدَّ أن نعلم أن علاقة الحق تبارك وتعالى بالأحداث ليست كعلاقتنا نحن، فنحن نعلم من علم النحو أن الأفعال ماضٍ، وهو ما وقع بالفعل قبل أن نتكلم به ، ومضارع وهو إما للحال أو للاستقبال أما بالنسبة لله تعالى، فالأحداث سواء كلها ماضٍ وواقع.

كذلك في قوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ} فقد: للتحقيق، ويعلم بالنسبة لله تعالى تعني علم، لكنه بالنسبة لك أنت يعلم: إذن: فهناك طرف منك وطرف من الحق سبحانه، فبالنسبة للتحقيق جاء بقَد، وبالنسبة للاستقبال جاء بـيعلم.

ثم يقول سبحانه: {وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا} واللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} وجاء في آية أخرى: {وَمَا يَغْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١]

يجب أن لانفهم أن نظر الله ورؤيته سبحانه وتعالى للأشياء المختلفة في الأماكن المختلفة رؤية جزئية، تتجه إلى شيء فلا ترى الآخر، إنما هي رؤية شاملة، كأن لكل شيء رؤية وحده، وهذا واضح في قوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَاتِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد: ٣٣].

وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ كَوْنِهِ - جَلَّ وَعَلَا - يُخْبِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا عَمِلُوا جَاءَ مُوضَحًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا

قَدَّمَ وَأَخَّرَ [الإنسان: ١٣] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف: ٤٩]، وَالْآيَاتُ بِمِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

فسبحانه لا يشغله سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ولا بَصَرٌ عن بَصَرٍ، فبصره سبحانه محيط، واطلاعه دقيق؛ لذلك يأتي جزاؤه حقاً يناسب دقة اطلاعه، فإياك إذن أن تغفل هذه الحقيقة، فربك قائم عليك، ناظر إليك، لا تخفى عليه منك خافية. يقول البقاعي [ولما كانت أحوالهم من جملة ما له، كان من المعلوم أنها لم تقم في أصلها ولا بقاء لها إلا بعلمه ولأنها بخلقه، فذلك قال محققاً مؤكداً مرهبا: {قد يعلم ما أنتم} أيها الناس كلكم {عليه} أي الآن، والمراد بالمضارع هنا وجود الوصف من غير نظر إلى زمان، ولو عبر بالماضي لتوهم الاختصاص به، والكلام في إدخال «قد» عليه كما مضى آنفاً باعتبار أولي النفوذ في البصر، وأهل الكلال والكدر {ويوم} أي ويعلم ما هم عليه يوم {يرجعون} أي بقهر قاهر لهم على ذلك، لا يقدرّون له على دفاع، ولا نوع امتناع {إليه} وكان الأصل: ما أنتم عليه، ولكنه أعرض عنهم تهويلاً للأمر، أو يكون ذلك خاصاً بالمتولين المعرضين إشارة إلى أنهم يناقشون الحساب، ويكون سر الالتفاف التنبيه على الإعراض عن المكذب بالقيامة، والإقبال على المصدق، صوناً لنفيس الكلام، عن الجفاة الأغبياء اللنام {فينبئهم} أي فيتسبب عن ذلك أنه يخبرهم تخبيراً عظيماً {بما عملوا} فليعدوا لكل شيء منه جواباً {والله} أي الذي له الإحاطة الكاملة {بكل شيء} من ذلك وغيره {عليم} فلذلك أنزل الآيات البينات، وكان نور الأرض والسموات، فقد رد الختام على المبدأ، والتحم الآخر بالأول والاثنان - والله الهادي. مقصودها إنذار عامة المكلفين بما له سبحانه من القدرة الشاملة، المستلزم للعلم التام، المدلول عليه بهذا القرآن المبين، المستلزم لأنه لا موجد على الحقيقة سواه، فهو الحق، وما سواه باطل.] إنتهي (٢٢٨)

والغاية الظاهرة من ختم السورة بهذه الآية الكريمة هي التأكيد علي أمور أربعة:

أولها : أن كل شيء في السموات والأرض هو لله سبحانه وتعالى يتصرف فيه كيف يشاء ، ويحكم فيه بما شاء ولا معقب لحكمه، ويقضي فيه كما يريد ، فيشرع الحدود والآداب ويضرب الأمثال فلا إعتراض علي شرعه ولا إمتناع من قضائه.

الثاني : بيان علم الله تعالى بما يصدر من خلقه ، وبما تكنه صدورهم ، وفي هذا تحذير من مخالفة أمره سبحانه وتعالى وحث علي إمتثال أمره وإجتنب نهيه.

الثالث : التذكير بيوم الحساب والمرجع والمعاد فإن هذا يحمل علي العمل الصالح والإمتثال لأمر الله تعالى.

الرابع : التذكير برؤية الأعمال والإطلاع عليها يوم القيامة ، فإن الشخص إذا علم بأن سعيه سوف يري أتقن السعي وأحسن العمل .

وبذلك تكون سورة النور قد قدمت كل مايلزم من تشريعات وأحكام تكفي لإصلاح أي مجتمع بجميع طوائفه حكاما ومحكومين ، كبارا وصغاراً ، سادة وعبيد ، رجال ونساء ، عجائز وأطفال ، ولا يبقى إلا تطبيق هذه الأحكام والله المستعان.

المراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : التفاسير

١. جامع البيان في تأويل القرآن لأبن جرير الطبري تحقيق أحمد شاكر
٢. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير - فخر الدين الرازي
٣. الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي
٤. تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور المؤلف برهان الدين البقاعي
٦. البيان في عد آي القرآن للزركشي
٧. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر

بن عاشور

٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن المؤلف : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي
٩. تفسير الشعراوي - الخواطر المؤلف: محمد متولي الشعراوي
١٠. تفسير سورة النور لابن عثيمين
١١. تفسير سورة النور في سؤال وجواب للشيخ مصطفى بن العدوي من سلسلة التأويل لتسهيل التنزيل
١٢. التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم إعداد نخبة من علماء التفسير بجامعة الشارقة إشراف الدكتور مصطفى مسلم

ثانياً : كتب السنة

١. صحيح البخاري
٢. صحيح مسلم
٣. سنن الترمذي
٤. سنن النسائي
٥. سنن أبي داود

٦. مسند الإمام أحمد
 ٧. الموطأ للإمام مالك
 ٨. فتح الباري في شرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني
 ٩. شرح صحيح مسلم للإمام النووي
- ثالثا : كتب الفقه
١. فقه الحدود للدكتور يوسف الشبيلي
 ٢. إختيارات الإمام محمد بن جرير الطبري في مسائل الحدود - دراسة فقهية مقارنة - عيسى خيرى عيسى الجعبري - جامعة القدس
 ٣. كتاب وجوب تطبيق الحدود الشرعية - للشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق - المكتبة الشاملة الحديثة
 ٤. بداية المجتهد ونهاية المقتصد- ابن رشد (الحفيد)، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد القرطبي- تحقيق د. عبد الله العبادي، دار السلام ، القاهرة
- رابعا : كتب السيرة
١. السيرة النبوية لابن هشام
 ٢. الصارم المسلول على شاتم الرسول- ابن تيمية: (٣٧/١)، بتصرف يسير
 ٣. سير أعلام النبلاء للذهبي
- خامسا : مقالات عامة
١. بداية الخلق في القرآن الكريم للدكتور منصور أبو شريعة - الجامعة الأردنية- من موقع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم
 ٢. إختلاف الليل والنهار - مقال من موقع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - للدكتور كرم السيد غنيم كلية العلوم جامعة الأزهر
 ٣. مقال عن الإعجاز العلمي في الماء من موقع (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) للدكتور صبحي رمضان فرج جامعة المنوفية